*دريني خشبة: أساطير الحب والجمال عند اليونان. الجزء الأول: دراسة ونصوص.
*دريني خشبة: أساطير الحب والجمال عند اليونان (الجزء الثاني).

*الطبعة الأولى، ١٩٨٣.

دار التنوير للطباعة والنشر. ص. ب ٦٤٩٩ ــ ١١٣.
بيروت ــ لبنان. الصنوبرة ــ أول نزلة اللبان ــ بناية عساف.

*الناشر:

دار ابعاد للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ص . ب ١١٢/٦٠٤٢ هاتف ، ٢٤٨٩٧٧ ــ ٢٤٥٥٤٧

أساطير الحب والجمال

عند اليونان

دريني خشبة

أساطير الحب والجمال عند اليونان

الجزء الثاني

هيرو وليااندر

المأساة الغرامية المؤلمة

أرسلوها إلى الدير، طفلة بريئة النفس، طاهرة القلب، بسامة الثغر، وضاحة الجبين، كلما وضعت ابهاما في فمها تمصه، تمثلت فيها سذاجة الطفولة وجمالها ودعتها.

ونذروها لفينوس، فكانت ربة الحب تنسرق في القمراء الصافية لترعى طفلتها، ولتنفث فيها من رقى السحر ما تعدها به لمستقبل غرامي مليء. وكان الكهنة يتفرسون في شفتي هذه الوديعة الصغيرة ألغازاً لايدركون لها كنهاً، وأسراراً لا يفقهون لها معنى، إلا كنه الصبابة الحمراء تنثال فوق الثنايا الأربع البراقة، وإلا معنى القبل، الناضجة يختلسونها كلما افترتا عن ابتسامة، أو انفرجتا لدغدغة أو تخميش(*).

وشبت هيرو. .

وتفتح الورد في خديها الناعيمن، واستيقظ النرجس في عينيها الناعستين، وضحكت فينوس في شفتيها الحمراوين، ونبت الخمل الحريري يطرىء صباها الغض، وشبابها الفينان!

ورسمت راهبة لفينوس في سيستوس، المدينة الخالدة، التي تربض على شاطىء الهلسبنت الأوروبي، قبالة أبيدوس، مدينة الاحلام على الشاطىء الاسيوي.

ولبثت الراهبة الرائعة تؤدي الطقوس والشعائر الدينية لربة الجمال والحب، في برج مشيد مشرف على البحر في قصر أبيها، ولبثت الشهرة تذيع محاسنها في

(*) هما: «الزغزغة»

المدينة الكبيرة، والصيت الرنان يتحدث عن جمالها بين الاهلين كما يتحدث الشذى عن ورده، والأرج عن رنده، حتى أصبح اسمها أغنية كل فم، وهتاف كل لسان.

وسمع لياندر، فتى ابيدوس وأشجع شبابها، والذائد عنها في كل حومة، بهيرو الراهبة، فعجب أن تكون حقيقة كما يصفها الناس، وحسب أن المبالغة هي التي نفحت في شهرة هيرو، فلم يهتم لما سمع عن مفاتنها، وصرف ذهنه الشاب الفتي عن هذه الطوبى التي سلبت الباب الفتيان، وغدت حلمًا ذهبياً لكل مدله ولهان.

ولكنه كان يزداد تذكراً للفتاة كلما بالغ في نسيانها أو تناسيها، وإذا صح أن الاذن تعشق قبل العين أحياناً، فلقد كانت أُذن لياندر عاشقة وامقة، وما برحت تلح على قلب صاحبها بالعشق والمقة(*) وما برح يعرض عنها ولا يصغي لها، حتى أعلن في سيستوس عن حفل ضخم يقام في هيكلها تكريماً لفينوس وتقديساً، وأن الشباب من الجنسين مدعوون للمشاركة في الاحتفال بربة الجمال والحب، وليس أولى من الشباب بتكريم الجمال والحب. وترامى خبر الاحتفال حتى بلغ الشاطىء الاسيوي في ابيدوس وحتى سمع به لياندر، فابتسم، وشعر في سويدائه بأول قبس من نار الحب، فألهب احساسه وأشعل قلبه، وملأ أضالعه شوقاً إلى هيرو وتحناناً.

واعتزم المشاركة في الاحتفال، لا تقديساً لفينوس ولكن لينظر إلى الراهبة الحبيبة التي ملأت خياله، وأصبحت مثله الأعلى الذي ينجذب دائمًا إليه، مدفوعاً بالقوة الخفية الخارقة، خاضعاً للسحر المنطوي العميق..

وإذا كان اليوم المنشود، ارتدى الفتى أبهى ملابسه، وانطلق يحدث نفسه أماني الحب، ويتغنى اغرودة الجمال وظل يحلم في طريقه إلى سيستوس بهذا الأمل اللماح، الذي يشبه في تحجبه في ثنايا المستقبل قمر ليلة مكفهرة قمطرير، ما يفتأ يتخايل في تضاعيف السحب!

وعبر الهلسبنت في زورق أبيض جميل، مخرماً بين العدوتين في ساعة كانت في فؤاد العاشق المشتاق أطول من أحقاب وأحقاب!

وقصد إلى الهيكل، وطفق يدافع الجماعات، ويزاحم الجماهير، حتى كان بين يدي هيرو.

---

(٢) المحبة

وكانت باقات الورد تتناثر من هنا وهناك تحت قدمي الراهبة الصغيرة التي استوت على منصة ترتفع قليلاً عن مقاعد المدعوين، مشرقة مونقة، كأنها زنبقة، ملتفعة بردها الحريري الأبيض ، متكئة بذراعها اللدنة الجميلة على سنادة المنصة، مقلبة عينيها الدعجاوين في الجماهير المتكبكبة حولها تلتمس البركات. . .

وكانت فينوس قد أقبلت من مملكة الأولمب تشهد المهرجان الحاشد، وتشبع خيلاءها باستملاء الشباب الهاتف باسمها، المترنم بعبادتها، وكان معها أبناؤها الغر الميامين، وفيهم كيوبيد وهرمونيا، فاختبأوا في ابراج الهيكل ، ولبثوا ينظرون إلى الملأ ويعجبون.

وأرسلت فينوس عينها الفاحصة في الملأ، فرأت لياندر العاشق يرنو إلى هيرو الراهبة، وتكاد عيناه تلتهمانها التهاماً ، ولاحظت ان هيرو منصرفة عن الفتى المسكين، لا تكاد تعيره نظرة، ولا تمنحه التفاتة، وهو مع ذاك مشرئب إليها، ينظر نظرات كلها عبادة، وعيناه مغرورقتان بدموع تكاد تنهمر.

وتحرك حنان الحب في فؤاد ربة الحب، وأقسمت لتعاونن في هذا المشروع الغرامي العظيم!!

وذلك أن فينوس لم تكن تجيد الحب لنفسها فقط، بل كان يثلجها ويملؤها غبطة ان ترى إلى عبرات المحبين، وتسمع إلى رنين القبل في شفاه العاشقين، فأشارت إلى ولدها كيوبيد ـ رب الحب، وصاحب السهام الذهبية ، والقوس ذات الوتر العرد ـ فأقبل عندها، والقت إليه أوامرها. .

فوتر(*) كيوبيد قوسه، وتخير واحداً من سهامه، وانتهز فرصة من هيرو كان نظرهامتجهاً فيها إلى لياندر، وأرسل إلى قلبها السهم الذي يحمل رسالة الحب، فدخله غير مستأذن، وملأه لوعة وصبابة. . وجنت للحظتها بالفتى. .

وتخير كيوبيد سهمًا آخر، وأرسله هدية حارة، دامية، إلى فؤاد لياندر. فما كاد يستقر فيه، حتى أحس الفتى انه لم يغد واحداً من هذه الاجسام الفانية الهالكة بعد، بل هو قد صار طيفاً نورانياً، وأحس مع ذاك بحب غامر لم يكن له به عهد من قبل، جعله يفني فناء تاماً في هيرو الراهبة، التي نظر فألفاها تلتهمه هي الأخرى بعينيها وقلبها التهاماً!

(*) أي ركب بها وترها

لله يا حب ما أجملك، وما أبر فينوس بعبادك!

ودلف لياندر نحو المنصة، وتمتم بكلمات خافتة، (كأنما هي بث الورد للمطر!) يفهمها المحبون وحدهم، حين يتكلمون بأطراف الشفاه والعيون، فعلمت هيرو ان حبيبها يقرئها حبه، ويسرها هيامه، ويرجو منها أن تمنحه ميعاداً يلقاها فيه على حدة، ويعبدها خلاله على انفراد!..

وارتبكت هيرو، وتصارع في نفسها الخوف والحب، الخوف من أن يلحظ أحد أن راهبة فينوس تصبو، وبذلك يهوي احترامها إلى حضيض السخرية، حينما يفتضح الحب الذي تكتمه في صميمها للياندر، والذي اثاره فيها سهم كيوبيد، ولم تر إلا ان تنهر العاشق الملح لينصرف، ولكنه ما يزداد الا تعلقاً بها، وتشبثاً بما طلب إليها، ورجاها فيه، وتكون هيرو قد بلغت حالة بين الهيام والاشفاق لا تحتمل، فتهمس إليه أن ينتظر حتى ينصرف الناس، فاذا انصرفوا، خلت إليه، وحدثته حديثاً موشى بالورد مبللاً بدموع الحب، يختلط فيه أنين الآهات برنين الموسيقى. وتذكر له أن اتصالها سيظل حبا في حب، وبكاء في بكاء، ولوعة في إثر لوعة، وزورة مختلسة تعقبها زورة مختلسة: «لأني راهبة كما تعلم، وأنا خادمة هذا الهيكل الفينوسي المقدس، وسأظل عذراء أبد الدهر، فلن ينتهي حبنا إلى هذا الزواج الذي أوثره وأنشهاه. فإذا كان الغسق ياحبيبي، وتألق النجم في كبد السماء يردد أناتنا، فاقصد إلى شاطىء البحر عند ابيدوس، واخلع ملابسك: ثم خض عباب الهلسبنت حين أعطيك اشارة من مصباحي، حيث أكون في برج قصرنا المشرف على البحر عند اقصى حدود سيستوس. فاذا وصلت، وستصل سالماً في رعاية فينوس، فهلم إلي في البرج نلتذ آلام الحب، ونتغن أشجان الهوى، واضعة رأسي على صدرك، أو واضعاً رأسك على صدري، شاكيين إلى الآلهة ما بنا من برح، حتى يطلع الفجر فنفترق، وتعود أدراجك إلى الشاطىء الآسيوي سابحاً، فاذا كان غد، عدت لأفني فيك واغمرك بالقبل، ولأقرأ في نفسك، وتقرأ في نفسي، كتاب الحب وآي الطهر.. وبوركت فينوس!»

ولقد آثرت هيرو خطة الحذر في صلتها الغرامية بلياندر، لأن شطئان الهلسبنت كانت حراماً على السفائن والزوارق وسائر الجواري، بعد ساعة من غروب الشمس، فلو قد ركب زورقاً وعبر به البوغاز، لعرض نفسه لأخطار جسام، من بينها عقوبة الاعدام دون محاكمة! لذلك لم يكن بد من أن يقطع البحر سابحاً كما رسمت له هيرو..

«معبودتي! سأخوض العباب في سبيلك»

« وأطوي بحار الجحيم لو أنها تحجزني عنك»

« فلا الموج جياشاً باللهب، ولا الأعماق تقذف بالحمم»

« ولا الفزع الأكبر في الارض أو في السماء، لا هذا ولا ذاك يحول دون لقائنا يا معبودتي!(*)»

* * *

فلما كان غد، وتوارت الشمس بالحجاب، وأقبل ليل العاشقين بشكواه ونجواه، يمم لياندر شطر البحر، ووقف فوق رمال الشاطىء كأنه يعدها، ولبث يرقب البرج على العدوة الاخرى، وفي قلبه أمل مضطرب، وفي نفسه قلق مستعر، وملء يديه منى تملأ العالم بأسره!

وظل يذرع الشاطىء جيئه وذهوباً، وهو حين يروح أو حين ينثني، يحملق في البرج المشيد لا تريم عيناه عنه، وكانت الرياح تدمدم في جنبات الآكام الممتدة على الساحلين والموج يزخر في غيران طوروس الشامخة، والبحر يقذف سراطينه على الكثبان البعيدة النائية، والسحب تتجمع وتتفرق كأنها موج الظلماء في خضم السماء. .

وفجأة لمح لياندر بصيص النور في كوى البرج الشاهق، فانفلت من ثيابه كأن الشعاعة تجذبه، ولم يعنه أن يمزق هذا الكم، ويشق ذاك الجيب، ولم يبالِ أن يقذف بالقميص هنا وبالبُرْد هناك، ثم ينقذف في الماء ويأخذ في سباحته، ترفعه موجة حتى ليحسب أنه يمسك النجم ويلمس السماء، وتخفضه موجة حتى ليخال البحر ينشطر بحرين، ويهوي في أعماق القرار يؤانس التريتون ويجالس الأوسيانيد(**)!!

وكانت فينوس تنظر من علياء الأولمب وتلهو. .

ما برح يصارع البحر والبحر يصرعه، وما برح يتقدم إلى أمام ويسحبه التيار إلى وراء، وكلما خانته قواه نظر الى البرج يتزود من بدره قوة، ومن القبل الحارة التي تنتظره ثمة دفئاً ونشاطاً مجدداً!

(*) من أدوين أرنولد

(*) التريتون: فتيان البحر. والاوسيانيد: عرائس المحيطات

وبلغ الشاطيء..

ووجد هيرو تنتظره كأنه الأمل المرتقب، والمنية المرتجاة، فهرعت إليه واستقرت في حضنه، ولبثت تتسمع إلى دقات قلبه الواجف الذي يخفق ــ لأول مرة ــ بموسيقى الحب!!

«وامتد فم الفراشة المرتجف، يرشف رحيق القبلة الأولى من الثغر الحبيب الذي تفتحت عنه جلنارة الحب»(*).

وتمزقت السحب، وتكشفت السماء، وأطلت النجوم ترنو إلى العاشقين المدلهين يتباثان ويتشاكيان، ويأخذان في لذة الهوى الطاهر ونعيم الحب البريء!!

وكانت فينوس تنظر من علياء الأولمب وتلهو...

ونسمت في الافق الشرقي انفاس الفجر، فنهض الحبيبان يودع احدهما الآخر، ويتزودان للنهار الطويل من زاد الهوى نظرات وقبلات!

وفصل لياندر، وأطلت هيرو من الكوة الصغيرة تنظر إليه وهو يداعب الموج والموج يداعبه، ويلبس الزبد والزبد يلبسه ويخلعه...

وفينوس تنظر وتلهو..

* * *

وأشرقت الشمس وتوارت، وأقبل الليل وتنفس الفجر، وعصفت الريح أو هبت رخاء، والتمعت الشعلة تضيء للعاشق ظلمات العباب... واطمأن البحر إلى صاحبه حتى خاله أيسر عليه من ظهر الأرض، فكان يطويه إلى منية نفسه وهوية قلبه، في كل موعد منتظر، ثم يؤوب على متنه حين ينصدع عمود الظلماء، وكأنه يمتطي من ظهور الموج الصافنات الجياد..

وكان فجراً شاتياً يكاد سنا برقه يخطف الأبصار، وزمزمة رعوده تهد جوانب الأفق، وكان البحر يتقلب ويرتعد كأنه زلزلة تأخذه من أعماقه، فأوجست هيرو خيفة على حبيبها، وتعلقت به، وراحت تغمره بالقبل، متوسلة ضارعة، ترجوه أن يبقى بجانبها ولا يجازف بحياته في هذا اليم المصطخب، وهي تدبر له مخبأ يأويه ذلك اليوم، حتى تسكن العاصفة، وينام الماء...

وثارت النخوة في نفس لياندر، وشاعت الكبرياء في جسمه القوي المفتول،

(*) من لورد بيرون، والجلنار: زهر الرمان الاحمر.

وأنف أن يجبن أمام الطبيعة الساخطة الغضبى، فطمأن هيرو واحتملها كالحمامة في يديه الجبارتين، وطبع على شفتيها المرتعشتين قبلة تجمعت فيها روحه كلها، ثم انفتل من بين ذراعيها الضعيفتين، وهرع إلى البحر فخوض فيه، متلفتاً بين برهة وأخرى، محيياً البدر الصغير المشرق عليه من الشاطىء...

وفينوس البارة تنظر من الأولمب وتلهو...

وأحس في منتصف الطريق برعشة واعياء، ولكنه كان يهتف باسم هيرو مرة، وباسم فينوس أخرى، فتنشط الثمالات القليلة الباقية من قوته الفانية... ورثت لحاله ربة الحب، فنفخت في ذراعيه المجهودتين، حتى وصل إلى شاطىء أبيدوس مهدوداً محطمًا.. وتهالك على نفسه، فوصل إلى منزله، وأوى إلى فراشه، ليحلم بالموت المحقق الذي نجا منه منذ ساعة...

* * *

وغابت الشمس، ولكن العاصفة ما برحت تزداد شدة وعنفواناً ، والبرق ما فتىء يطوي السماء، وكان كل شيء ينذر لياندر بسوء المنقلب ومع ذاك فقد نهض غير مستيئس وقصد الى الهلسبنت، فوقف بشاطئه يبتسم للاهوال التي يضطرب بها بطنه، ثم لمح الضوء ينبعث من كوى الكوخ.. فخلع ملابسه، وبدأ رحلته...

وكانت فينوس لا تنظر ولا تلهو..

لانها كانت عند حبيبها أدونيس الراعي الجميل تستمتع به، بعد ان فضحها أبو للو في حبيبها مارس.

ولم يبل لياندر من البحر ما بلا هذه الليلة... فلقد كان الموج كأنه ألواح من الثلج تتكسر على ظهر الفتى المسكين، وتصدع ذراعيه وترتطم برأسه...

ولقد كان الماء هذه الليلة كأن شيئاً من الصبر قد ذاب فيه، بعد إذ كانت ملوحته تستحيل شهداً في فمه، وعسلاً مصفى!

ولقد كان البرد ينهل من السحب القاتمة، والصقيع يساقط كندف القطن الابيض، فيعلق بشعر لياندر، وينسج فوقه قلنسوة من برودة الموت..

وجاهد العاشق....

وسبح باسم هيرو بين موج كالجبال، وليل كله ظلمات....

وا أسفاه!!

لقد نظر المسكين إلى البرج يتزود من نوره، ولكنه لم ير الشعاعة تتألق كما عودته. . .

لقد أطفأتها الرياح الهوج، فأطفأت في قلبه بصيص الامل. .

واستولى عليه خور الفجر السابق، ودهاه القنوط في عضلاته، فيئس منها جمعاً. . . وضاعف النكبة شرقه بالماء حين أراد أن يهتف باسم هيرو!

فغاص !. . .

ولفظه اليم جثة هامدة. . ثم ابتلعه، ثم لفظه. .

ثم انتصف الليل، وهيرو المشوقة حاملة مصباحها الخافت، بعد اذ أشعلته ثانية، ولكن الساعات تمضي. . ولا يصل لياندر. . .

وتنفس الصبح، فسارعت الراهبة الهيمانة إلى البحر، وحملقت في الماء. . فأبصرت الجثة الحبيبة ترتطم بأصل البرج، كأنه حنين الجسم الى أحلام الروح!!

وصعقت هيرو. . ودارت بها الارض، وانطفأت في عينيها مباهج الحياة بانطفاء أملها المشرق وبدرها البسام، فألقت بنفسها في الاعماق!. .

وما هي الا لحظة، حتى كان الحبيبان مسجيين على سرير الماء، ملففين في أكفان الزبد(*).

(*) شغف لورد بيرون بهذه الأسطورة فنظمها، وذهب بنفسه إلى الدردنيل فتمثل لياندر وعبر البوغاز، وتمنى لو غرق مثله هناك، فلا يفوتن القارىء الاطلاع على تحفة بيرون في ديوانه.

هرقل (*)

كان قلب الإله الأكبر شيوعية في دولة الحب...

ولم يكن يقصر هواه على ربات الأولمب فحسب، بل كان يفتتن بكل حسناء من بنات حواء، وطالما وصل أسبابه بأسباب الغيد الأماليد من ظباء دار الفناء... هذه الحياة الدنيا!..

ولقد كانت زوجته حيرا تقعد له بالمرصاد ، لما تعرف من تصابيه، ولقلة ثقتها فيه، فلما علق الفتاة الفتانة «ألكمين» احدى أميرات هيلاس، كان يبالغ في الحذر حتى لا تفجأه زوجته معها كما فجأته مع الحسناء «يو» من قبل.

ونعم الحبيبان بحياة راضية، ووضعت ألكمين طفلها العاتية الجبار هرقل، وما كاد النبأ يذيع في دولة الأولمب حتى ثارت ثائرة حيرا وأسقط في يدها... لأنها لم تعد تستطيع أن تنتقم لكبريائها من منافستها في قلب زوجها (زيوس)، تلك المنافسة التي ارتفعت إلى مرتبة الآلهة، بعد إذ وضعت غلامها ابناً لسيد أرباب الأولمب.

ولكنها، وهي هي المجبولة على الشر دائماً ، آلت إلا أن يرتد نور الحياة المتلآلىء ظلاماً في عيني الام، وذلك بالفتك بوليدها المحبوب، فأمرت حيتين رقطاوين من أبالستها أن تسعيا إلى مهد الطفل، وأن تندسا فيه، حتى اذا سنحت لهما فرصة أودتا بحياته، وعادتا بأثارة منه تشهد على انفاذ ما أمرتا به.

وسعت الحيتان حتى استقرتا في المهاد الوثير، وانتهزتا غفلة من الخدم فانقضتا على الفريسة الصغيرة ، وأوشكتا أن تظفرا بها...

ولكن هرقل الصغير الهادىء افتر عن ثغر شتيت مشرق وقبض بأصابعه الصغيرة الدودية على رأس كل من الحيتين وبضغطتين هائلتين حطم عظامهما

(*) Hercules أو Heracles؛ ويسميه بعضهم Alcides وعربه العرب هرقل.

جميعاً، وكان الخدم قد أقبلوا، فلما شهدوا الافعوانين، صرخوا وأعولوا، بيد أنهم بهتوا وطار الصواب من أدمغتهم حينما رأوا أن الوليد الصغير، المنبطح على ظهره، يضرب برجليه ها هنا وها هنا، قد قضى على الحيتين العظيمتـين وألقاهما ضحيتين غير مباركتين على مذبح قوته الخرافية!!

وقدمت ألكمين فضمت إلى صدرها الحنون طفلها الهائل! فرحة مستبشرة، وطبعت على جبينه الضاحك قبلة حملت أسمى معاني الامومة.

وذهلت حيرا عندما سمعت بما صنع الغلام بشيطانيها، وأيقنت ألا سبيل إلى القضاء عليه، ولكنها لم تيأس، وأقسمت أن تنثر الشوك في مستقبله القريب، وتبث العراقيل في حياته الجائية.

شب هرقل... ونشأه مؤدبه «شيرون» زعيم السنتور(*)، تنشئة حربية حافلة، ولقنه كل ما تحتاج إليه حياة الفرسان من تقشف واخشيشان، فمهر هرقل في زمن قصير في استعمال الاسلحة بأنواعها، ونبغ في جميع صنوف الريـاضة وألعـاب الفروسية والقوى.

وكان شيرون نفسه يعجب بهذا الجسم الحديدي، يمسكه العضل البارز، ويزينه الكيان المفتول... وكان إذا أراد تدريبه على المصارعة وألعاب القوى، آثر أن يشركه في نزال مع الثيران والعجول، والضخم ذي الايد من بهيمة الارض.

وكان هرقل لا يخشى شيئاً من خصومه العجماوات، بل كان يقبل على مصارعتها بثغر بسام وقلب طروب، فلا يدعها حتى يلقيها على الأرض معفرة بالتراب! وخشيته الحيوانات جميعاً، فكانت تجفل من طريقه كلما رأته مقبلاً نحوها، لطول ما جربت من بطشه وشديد بلائه!

وكان الفتى كلما ازداد قوة، وذاب الحديد في عضلاته، ازدادت حيرا تغيظاً، وهاجت في فؤادها الاحقاد!

ولم تعد تطيق صبراً على الخصم العنيد، ومادت بها الارض، وأصبحت كأن يعاسيب العداوة تطن في رأسها تغريها بهرقل، ومن يلوذ بهرقل، فانطلقت إلى زوجها ولم تزل به حتى أصدر إرادة أولمبية تقضي أن يصبح هرقل خادماً لابن عمه

(*) السنتور جيل خرافي نصفه الأعلى نصف رجل والنصف الأسفل نصف حصان.

النذل الخسيس: يوريذوس أمير أرجوس، وأن يظل في خدمته بضع سنين..

وانتهى هرقل من تلمذته على شيرون..

وانطلق يكابد الحياة كفن قاس مليء بالرغائب، مفعم بالمجازفات. فبينما كان يعبر طريقاً معروشاً بفروع السنديان، بين غابتين عظيمتين، إذا غانيتان جميلتان تعترضانه وتأخذان عليه سبيله... فأشاح عنهما، يحسبهما من المسكينات ملفوظات البغاء، أو من أولئك اللائي يتخذن الفسوق حرفة قذرة لعيش وضيع. لكن الفتاتين تشبثتا به، وأبتا إلا أن يقف معهما هنيهة، يتخير منهما واحدة تكون رائدته في هذه الحياة، تهديه وترشده وتاخذ بيده في سبلها المتشعبة.

وكانت احدى الفتاتين، (كاكيا) شيطان الاثم وابليس الفجور في هذه الارض. فتقدمت إليه متبرجة متهتكة، تغمز بهذا الطرف، وتبتسم بذاك الثغر، وتهز ما سكن من الجليد، وتمط ما اشرأب من العنق وتحسر عن الساقين، وتكشف عن الذراعين، وهي تقرقع بضحكات مخنثة تثير الاشتهاء في نفس الشاب، وتستولي بها على مشاعره: «أنا حبيبتك كاكيا، أجمل غادات هيلاس ومفتحة الورود في خدود العذارى، أضع قلبي وجسمي بين قدميك يا هرقلي العزيز مطية إلى الفردوس الذي تجد فيه ما شئت من نعيم وما تمنيت من لذة.. فاتبعني أجعل الدنيا كلها من حولك سعادة، وأصير طريقك أنّ ذهبت في الحياة منضورة بالورد زاهرة بالرياحين... هلمَّ إلي نحي حياة كالحلم، بعيدين من عناء العالم، نائمين عن شقاء الدنيا، لا نفتح اعيننا إلا على متعة، ولا نرهف سمعينا إلا لموسيقى، ولا نغلق قلبينا إلا على نعيم...

مالك ولوجه الحياة المربد يا حبيبي هرقل؟ إن الدنيا فرصة سانحة فانتهزها، وان العمر قصير فلا تلق به بخوراً في نار البأساء، وإن الايام لتخب بنا دون أن نشعر بها، فلم نحاول ان نلبسها بالجد فيها هذا اللبوس الأسود الحزين القاتم؟ ولم لا نرسلها في وشي وأفواف؟ لم لا نستمع دائماً لما توحيه إلينا قلوبنا ونفوسنا ما دامت الدنيا مخلوقة لها؟

لم تطرق هكذا يا حبيبي؟ أمتعب أنت؟ هات رأسك إذن ، ودعه ملقى على صدري الجميل الخصب...

ولكن الفتى نفر نفرة بادية، وأرسل نظرة فاحصة إلى (أريتيه) الفتاة الأخرى، التي كانت تقف عن كثب، مصغية إلى حديث كاكيا، مشفقة على الشباب المسكين

أما أريتيه هذه قربة الفضيلة، ونفحة السماء وهادية البشر ومنقذتهم من شرور كاكيا...

وسألها هرقل: «أنت أيتها الفتاة، بم تشيرين؟»

وقالت أريتيه. وهي تكفكف عبرة غالية: «أنا لا أشير عليك بشيء أيها الصديق إلا بالحذر من هذه الغادة! إنها توشك أن تضلك وترديك!»

فغيظت كاكيا وأخذها الحنق، وأجابت في غلظة ومخاشنة: «أضله وأرديه؟ هاها... وأنت؟ أتسلكين به سبيل الفضيلة التي زرعت أرضها قتاداً، وبذرت فيها أنياب الذئاب؟ اسمع يا هرقل، اصغ إليّ يا حبيبي، دعك من هذه الفتاة المحتشمة... تولَّ عنها... إنها تغطش حياتك لو تبعتها...»

وتبتسم أريتيه ابتسامة هادئة وتقول: «إن الآلهة يا هرقل قد زودتك بهذه القوة الكامنة في بنيانك لغرض أسمى من جميع الأغراض الحيوانية، وقد كان أجدى للخير العام أن تخلق ثوراً ذا خوار من أن تودع كل هذا الحديد في عضلاتك، لو لم تكن قد أعدتك لفعال جسام لن يؤديها غيرك. أجل! إن طريقي لا ينمو بها إلا الشوك، وانها تدمي الاقدام وتجهد السائرين، ولن ترى فيها زهرة ولا ريحانة، بل لن تسمع فيها عصفوراً يغني ولا بلبلاً يغرد، وبالعكس، قد تقتتل فيها مع السباع والضواري والثعابين، ولكنك في آخر كل نصر، وعقب كل ظفر، ترى جنة من الرضى تحفك بالزهر، وترقص بين يديك بالغواني والقيان. أما ما تغريك به هذه الانثى الهلوك ففيه حتفك، فحذار. وليس أحب إليك، كرجل، كان له الشرف أن يكون ابن إله، من أن تثبت للآلهة أنك جدير بما انتدبتك له»

وسكتت أريتيه، ولكن كاكيا لبثت تدل وتتيه وتتبرج، تحاول الفوز بهذا القنص العزيز... غير أن نخوة الرجولة ثارت في قلب هرقل، فانتهر الغانية الغاوية وأغلظ لها، ثم تقدم إلى أريتيه فتناول يدها الصغيرة الحلوة، وطبع عليها قبلة تفيض وقاراً واحتراماً، ثم قال لها بصوت متهدج خافت: «هلمي بنا يا فتاة فلن أخشى في سبيلك بأساً ولا رهقاً»

وانطلقا... وغابا في ظلام الغابة...

ولم يبرح هرقل معيناً للضعفاء، مغيثاً للملهوفين، اذا رأى مظلوماً انتصف له من ظالمه، واذا لقي جائعاً نزل له عن زاده، ولم يبرح ينصر الفضيلة أنّى سار، ولم تبرح الفضيلة تمشي في أثره أيان ولى، حتى ضاقت الدنيا بحيرا ولم تحتمل هذا

الغار من المجد يكلل هامة خصمها العظيم، ولا سيما بعد أن أتصل بالملك كريون، ملك طيبة ، وزواجه من ابنته الجميلة ميجارا.

لقد أحب هرقل زوجته حباً جماً، وأحبته هي كذلك وأخلصت له، وكانا يذهبان إلى الغابة القريبة يتناجيان نجوى الحب، ويرشفان كؤوس الهوى، ويعودان مع الاصيل فيسامران الملك الشيخ، ويدبران معه أمور المملكة..

ثم مكرت حيرا مكرها!...

لقد صممت على أن تسلب هرقل رشده ، وتتركه يهيم في الارض ينطح برأسه الصخر كما يفعل الضلال المجانين. فبينما كان غارقاً في أحلام السعادة إلى جانب زوجته آمنين مطمئنين، اذا حيرا الآثمة تندس في ظلام المخدع، وتنفث سحرها الفظيع في أذني هرقل، وتمضي لشأنها، فتختبىء في الحديقة خلف دوحة كبيرة من دوح الشاهبلوط .. وتنتظر ثمة ريثما يصحو الزوج المسكين، فتشهد المأساة التي تتفزع من هولها الارض وتميد الجبال!...

وأشرقت الشمس!

واستيقظ هرقل، ونهضت ميجارا، ولكن ناراً كانت تقدح الشرر في عيني البطل! وزبداً حاراً كان ينقذف من فمه المخوف! واصواتاً كأصوات الشياطين كانت تدوي في رأسه الضخم...

والدم!...

لقد كان ينبثق من كل جارحة في جسمه الارجواني، فينضح اللحف والارائك، ويسيل على أديم الغرفة المغطى بالدمقس!

وذعرت ميجارا، وصرخت صرخات راجفة تدعو أباها..

ولكن هرقل المسحور ينتفض انتفاضة تزلزل أركان القصر، وينقض على زوجته التعسة كأنه ضبع: « تعالي يا خائنة! أين كنت طيلة الليلة الفائتة؟! آه أجل! كنت تتمرغين بين ذراعي عشيقك الجبان! الويل لكما! شرف هرقل تلغ فيه الكلاب!»

وبضغطة قوية من يديه الصارمتين ، على عنق الفتاة المنكودة يتركها جثة هامدة، قرباناً للموت في عنفوان الصبى، وضحية للردى في ريعان الشباب...

وانطلق يصرخ في ردهات القصر، وهرول يزمجر في حنيات الحديقة، ثم

أطلق ساقية للريح . . .

وفي قنة جبل تزمزم الاعاصير في جنباته، جلس هرقل المسكين ليثوب إليه رشده، وليذكر أنه قتل زوجته المحبوبة في نوبة جنونية، فينشج ويبكي! . . .

وتكون غمامة فوق رأسه تظله من وهج الشمس، فتنشق عن إله كريم، هو هرمز رسول السماء، حمل الى هرقل تلك الارادة الأولمبية القاسية، التي أصدرها زيوس، متأثراً بالحاح زوجته الآثمة حيرا، والتي تقضي أن يظل هرقل في خدمة ابن عمه يوريذوس اثني عشر شهراً يصدع خلالها بما يؤمر!

ــ «لقد كان عليك أن تظل في خدمته بضع سنين . . . ولكننا ألحفنا على رب الارباب فقصر المدة، واختزلها إلى ما ترى!»

ــ «يختزلها أولا يختزلها، لقد أصبحت الحياة سجناً بدون ميجارا!»

ــ «عليك بالصبر يا صديقي، فقد تفيدك طاعة الآلهة . .»

ــ «الآلهة التي لا تحسن عملاً غير هذا العبث! . .»

ــ «صه صه . . . هلم إلى يوريذوس، وستكون حراً بعد سنة واحدة . . .»

* * *

وجن جنون هرقل لهذا القضاء الأولمبي الاعمى، وفر من هرمز في مسارب المياه، ولجأ إلى الوحوش يلتمس لديها الصبر الجميل والقلب الرحيم، ولكنه عبثا حاول الفرار مما كتبته السماء عليه، وهنا، بدت له صديقته ربة الفضيلة أريتيه، فنصحته ، ولم تزل به حتى أقنعته بخدمة يوريذوس، فذهب إليه كسير القلب مهيض الجناح، كأن جبلاً من الهم والسخط مستقر على قلبه وقال له يوريذوس: «وأخيراً وصلت إلى آخر الدرب يا هرقل! . . . ان أمامك أموراً فأعد لها عدتك، فما دموعك على ميجارا بمجدية عليك شيئاً . . .»

وحدجه هرقل بنظرة يشتعل فيها الغضب وقال له: « أجل لقد وصلت إلى آخر الدرب . . . ولكن ليس لك شأن بدموع أذرفها من أجل ميجارا . . . ألا فاذكر حاجتك التي أرسلتني الآلهة لاقضيها لك ، وأقصر!»

وضحك يوريذوس حتى كاد الرعد يخرج من بين شدقيه، وقال: « حاجتي؟! إن لي لحاجات ما أحسبك تستطيع قضاء واحدة منها. وكيف تصبر مثلاً على سبع نيميا الذي يقطع الطريق إلى غاباتها ذات الكنوز والاذخار؟»

وقال هرقل: « سبع نيميا أو ألف سبع كسبع نيميا، عليك أن تكلفني ولو بهدم السماء أفعل ما تكلفني به... والآن ، أإذا جئتك برأس هذا السبع ، أأكون طليقاً؟»

– « تكون طليقاً؟! إن امامك اثنتي عشرة مسألة، رأس سبع نيميا أولها وأيسرها يا هرقل، فهلم إذن ، وسنرى... »

مجازفات هرقل

١- الى غابة نيميا

كانت الغابة تثير الرعب في قلوب الجن، وكانت الظلمات تضرب في أنحائها فتجعلها تيها يعج بالافاعي، ويضج بالتنانين.

وكان ملكها الضرغامة يربض في المغارةالمفزعة، المنشقة كالقبر في أول الطريق المؤدي إليها، وكان يخرج في أول الليل فيصول في القرى المجاورة ويجول، وكان الاهلون التعساء يلقون من بطشه وشدة أذاه الشيء الكثير، فلم يكن يبقي على دابة في الارض، ولا انسان في الطريق. ينقض كالقضاء على فريسته فيجندلها. ثم يحتملها إلى كهفه فيلتهم منها، وينبذ الباقي لخدمه وعبيده الكثيرين من سائر السباع.

ولم يكن كهذه الاسود الضئيلة التي يتحدث عنها السودان هذه الايام، بل كان أسداً في جرم الفيل وقوته، ورشاقة النمر وخفته، وخباثة الثعلب وحيلته... يثور فينقدح الشرر من مقلتيه ، وتمور الارض وتسجد الجبال بين يديه. وكانت له لبدة نسجتها له الآلهة من أشواك الجحيم ، وبطنتها بحمى المنية!

وكان زئيره يقصف كالرعد فيزلزل شعاف الجبال، ويهز جوانب السماء ، ويهيج الجنون والفزع في رؤوس الوحوش، فترى إلى الغابة كأنها ترقص على فوهة بركان!!

ولقي هرقل أصدقاءه فنصحوا ألا يلقى هذا الاسد، وأن يضن بشبابه... على أنيابه، وبماء الحياة المتدفق في بردتيه، على جمر الغضى المتأجج في حدقتيه.

ولكنه أبى !! وانطلق كالعاصفة إلى حيث يربض أبو أسامة... وانه لعلى خطوات من الكهف، وأنه لينظر إلى السيف الذي كان الى هذه اللحظة في يمينه فلا يجده!!

«أين؟ أين سيفي؟... آه ! هاها.. لقد سرقته حيرا!! أرادت الخبيثة أن تجردني من السلاح الذي انازل به خصمي! خاب فألك يا حيرا!! سأنازله بغير ما سلاح ... سأحطمه.. سأشد لسانه حتى انتزعه من غلاصمه... إليّ يا سبع نيميا.. إليّ يا ملك الغابة وسيد وحوشها.. الساعة ساعتك.. لا مفر لك يا أبا لبدة!...»

وطفق هرقل يرعد كالمجنون، وكان سبع نيميا نائمًا فاستيقظ على هذه الصيحات المدويات، ووثب وثبة هائلة كان بها أمام هرقل، وجها لوجه..

وبدأت الزوبعة...

والتقى الجبل بالجبل، وتصارع الجباران ساعة، لا هذا ينال من ذاك، ولا ذاك يصل الى وطر من هذا.. وأقبلت وحوش الغابة تشهد المعركة وتتعجب... وغضب أبو أسامة، وهاله ألا يقوى على رجل بمفرده يكاد يصرعه..

وتعب هرقل.. ونال منه الجهد، ورأى أن لا بد من آلة، فدار دورة او... بها من شجرة باسقة، فانتزعها وألقى بجذعها في شدقي الاسد، ثم أسرع فقبض على لسانه العظيم فانتزعه، وانقذف الدم يتدفق من هنا وهناك... وتسيل به أودية الارض!!

وكأن نشوة الظفر قد ضاعفت قوة هرقل، فقبض على فكي الاسد، وشد على الرأس الكبير فتحطمت عظام المخ، وخر ملك الغابة يتقلب في لجة من دمه الغزير!

وهمهمت الوحوش مشدوهة!

لقد قتل ملكها... فلا خوف عليها بعد اليوم! ستكون حرة طليقة، تجيء وتروح، وتقتات لنفسها غير منتظرة ما كان ينبذه لها أبو أسامة!!

ونظر هرقل، فرأى سيفه وراء ظهره!!

لقد جاءت به حيرا بعد إذ شهدت من جبروت البطل ما بهرها وتناول السيف باسمًا، ثم تقدم إلى الاسد فسلخ جلده الكبير، وأبقى على اللبدة الهائلة، وعاد أدراجه الى يوريذوس، ملتفعاً دثارة الغريب الذي كان الى لحظة قريبة يضم جثمان ملك الغابة وسيد وحوشها.

٢ـ مع الافعوان الهائل «هيدرا»

ولقي صديقه يولوس، وتحدث عما كان من أمره مع سبع نيميا، فأخذه العجب، ونذر ليصحبن هرقل في جميع مجازفاته. ثم فصلا، وما كادا يفعلان حتى قابلهما رسول الملك برسالة تأمر هرقل بالتوجه إلى مستنقعات ليرنا حيث الأفعوان الارقم هيدرا: « . . . فإذا لقيته ثمة فعليك به، ولا تعودن إلا برأسه. فقد حدثنا من عرفه أنه لا يبقي على دابة ولا بهيمة، ولا يعفي من القتل أحداً. . . ونحن أرفق برعايانا من أن ندعهم فرائس لهذا الأفعوان. . .»

وانطلقا، حتى إذا كانا عند المستنقعات المترامية، شهد هرقل حيواناً ضخم الجثة فظيع المنظر، يتقلب فوق صفحة الماء المغطاة بزهرات اللوتس وأوراقه العريضة النامية. وايقن أنه هيدرا، فتناول قوسه الكبيرة، وأرسل إلى الوحش سهما يهيجه به، ليخرج من الماء، وليأخذ معه في نزال وقتال. .

وتم له ما أراد. وخرج هيدرا الفظيع يقلب رؤوسه السبعة. ويقلب في كل فم لساناً طوله ذراعان، وبرزت أنيابه تنفث سمها الزعاف، وأرسلت العيون الصغيرة البراقة شررها، وشرع الفحيح المرعب يصم أذني هرقل وأذني صاحبه.

وبدأت المعركة. . .

وامتشق هرقل سيفه الكبير المرهف، وبضربة قاضية أطاح رأساً من الرؤوس السبعة. .

ولكن. . . يا للعجب!! لقد نبتت في لحظات قليلة، في مكان الرأس المقطوع، رؤوس سبعة اخرى، أخذت تنمو بسرعة فائقة، حتى أوشكت أن تساوي الرؤوس الكبيرة في حجمها. . .

وريع هرقل، وهتف بصاحبه يولوس قائلاً: « أوقد النار يا صاح، وأجج هذا الجذع فاكوِ به كل رأس يطيح . . . آنني اخشى أن ينبت لهيدرا ألف رأس!»

ونفخ في النار وأجج الجذع، وأخذ كلما طاح رأس كوى مكانه بالنار ثم بدا له أن يدع السيف، ويقضي على الافعوان العجيب بجذع الشجرة الذي كان يكوي به يولوس وحدث ما لم يكن في الحسبان. . . لقد أرسلت حيرا سرطاناً بحرياً يعض قدمي هرقل وهو يحارب هيدرا تود بذلك لو تشغله فيستطيع الافعوان الظفر بخصمها العنيد. . . ولكن هرقل تنبه للسرطان فوطئه، وسحق عظامه سحقاً.

وانتصر هرقل . . .

وطفق يغمس سهامه في دم الافعوان ليسمها، حتى إذا أصابت رمية لا تفلتها من الموت. وعاد الى يوريذوس ثملا بخمرة النصر.

٣ـ ظبي سيرينيا

وأسقط في يد يوريذوس حين رأى هرقل يختال في بردة السبع ويتيه، وفي قبضته القوية رؤوس هيدرا هامدة خامدة . .

وكان في مقاطعة سيرينيا ظبي له قرنان من ذهب، وأيطلان من نحاس، وساقان من معدن ليس له فيما نعرف من المعادن من ضريب. وكان الملوك اذا أرادوا اعجاز أحد من الناس ليقتلوه، كلفوه باقتفاء ظبي سيرينيا وامساكه، فان لم يفعل، ولن يستطيع أحد أن يفعل، لشدة عدو هذا الظبي، كان جزاؤه القتل. وقد أراد ملك أرجوس أن يعجز هرقل هذه المرة، فأمره باقتفاء ظبي سيرينيا: «. . . فان لم تعد إلينا به فأنت أعلم بما ينتظرك من الموت الزؤام . . »

ولم يستطع هرقل أن يمسك الظبي، لانه كان يعدو كزوبعة، فما تكاد حوافره تلمس الارض إلا كما تلمس السماء كف سكران، فلجأ إلى الحيلة، واحتفر في طريق الحيوان حفرة عميقة غطاها بوشائح رقيقة من الثلج، وطارد الظبي حتى الجأه إلى الحفرة، ووقع فيها، فنزل اليه واحتمله، ومضى به إلى الملك الغاشم.

٤ـ خنزير أرمنثيا

ثم أمره بقتل خنزير بري مخرب، كان يأوي إلى غابات أرمنثيا، ويقطع الطريق علىالقبائل الرحل، ويقتل كل من تحدثه نفسه بمحاربته أو الوقوف معه في ميدان. وكان ذلك الخنزير لا يبالي شيئاً في الارض أو في السماء، وكانت بينه وبين قبائل السنتور مودة في الشر، وتحالف على ايذاء الناس. فلما اشتبك هرقل واياه في نزال تشيب من هوله الولدان، وشعر الخنزير أنه مقضى عليه لا محالة، خار خواراً عالياً يستنجد حلفاءه السنتور، ولكنهم لم يصلوا الى مكان المعركة إلا بعد أن أجهز هرقل على خنزيرهم العزيز، فنشب قتال مروع بينهما، وأخذ هرقل البطل يسدد سهامه التي كان قد غمسها في دم هيدرا، إلى صدور أعدائه حتى كادوا يبيدون جميعاً. وأقبل شيرون ــ وهو كما علمنا مؤدب هرقل وأستاذه ــ ليحسم النزاع بين قبيله وبين تلميذه، ولكن واأسفاه! لقد أصماه هرقل بسهم مسموم فأرداه وهو لا

يعرفه! فلما أدرك أنه أستاذه، أقبل عليه، وعني به، وجمع من الاعشاب الطبية ما حسب أنه ينقذ أستاذه من براثن الموت، ولكن بلا جدوى! ومات شيرون، وأهوى عليه هرقل يقبله، وفي عينيه دموع المحبة والاعزاز.

٥ـ زرائب اوجياس ملك اليس

كان الملك أوجياس، ملك أليس، يقتني عدداً عظيماً من الماشية والخيل والغنم، تزدحم في زرائب متجاورة مع آلاف من الخنازير مؤلفة. وكانت النظافة في هذه الزرائب مهملة إهمالاً تاماً، حتى لكانت الروائح الخبيثة تنتشر منها فتصدم أنف عابر السبيل على فرسخ أو فرسخين، وأنتن الروث فأحدث طاعوناً مروعاً أوشك أن يأتي على جميع الاهلين، وقرر الاطباء أن لا سبيل إلى مقاومته إلا إذا عني بتنظيف زرائب الملك.. وعلم يوريذوس بما شغل بال صديقه ملك اليس، فابتسم ابتسامة صفراء، وقال لهرقل وهو يحدثه حديث الستنور: «إذن فعليك أن تتوجه إلى صديقي أوجياس، ملك اليس، فتنظف زرائبه مما بها من خبث، وتكون بذلك قد أديت خمساً من المسائل الاثنتي عشرة، التي كتبتها عليك الآلهة»

وامتعض هرقل في أعماقه، وعبس عبوسة كادت تنفجر بالسخط على هذا الملك الغبي، ولكنه ذكر نصيحة أربتيه، فصدع بالأمر ، وذهب من فوره إلى أليس، ليرى كيف ينظف زرائب الملك..

وثمة، رأى مجرى عظيماً من الماء، يتدفق من الجبل الشاهق إلى يمين الزرائب، وينحدر انحداراً شديداً حتى ينتهي إلى البحر، فبدا له أن يغير مجرى الماء، بحيث ينصب في الزرائب نفسها، فيكتسح الروث، وينجو الناس من هذا الرهق الشديد.

وأنقذ هرقل مدينة الملك وثروته وحياة الاهلين! وحاول ملك اليس أن يستبقيه ليجزيه، ولكن هرقل أبى شاكراً، وقصد إلى يوريذوس يتلقى أوامره.

٦ـ عجل مينوس

وكان نبتيون إله البحار قد أهدى عجلاً جسداً لصديقه مينوس ملك كريد، كي يقدمه قرباناً للآلهة في العيد الأكبر الذي يحتفل فيه بميلاد نبتيون، ولكن العجل راق مينوس الملك فانتقى من عجوله أحسنها وضحى به مكان هذا العجل الإلهي السمين، واستبقى لنفسه هدية الإله.

وغضب نبتيون، وأقسم ليكونن هذا العجل نقمة على مينوس وملئه، فسخر عليه طائفاً من الجنون، فطفق العجل يخرب ويدمر، ويقتل الناس تقتيلاً..

وعلم يوريذوس بما كان من مصيبة صديقه ملك كريد في عجله، فلما قدم هرقل أرسله ليقتل العجل أو على الأقل ليقيده فيرتفع عن الناس أذاه..

وأبحر هرقل، ولقيه مينوس فرحاً متهللاً، وذهب من فوره لينازل العجل، فكانت معمعة، وكانت حرباً عوان...

لقد كان هرقل يحمل العجل فيرفعه، فيخبط به الارض فتندك، ومع ذاك ما استطاع أن يقتله! وأخيراً اكتفى بأن صفده بسلاسل وأغلال وعاد أدراجه إلى أرجوس، وودعته كريد كلها.

٧ــ خيول ديوميديز

وكان الملك ديوميديز، ملك تراقيه، يقتني مجموعة طيبة من خيول السباق التي لا يشق لها غبار، ولا تباريها خيول في مضمار، ولكنها لم تكن كهذه الخيول التي يقتنيها الناس، بل كانت بالوحوش أشبه، وإلى السباع أقرب لأنها لم تكن تذوق الحشيش ولا تسيغ النبات، بل بالعكس، كانت لا تأكل إلا اللحم تنهشه نهشاً..

وكانت تأبى لحم الحيوان والبهائم، وتستطيب لحم الانسان وتلذه، ولم يكن الملك القاسي يبخل عليها به. ولكي يوفر لها الغذاء الغريب، أصدر أمره بالقبض على كل أجنبي تطأ قدماه أرض البلاد بدون إذن من الملك ! فلما نمي الخبر إلى يوريذوس، أرسل هرقل لمعاقبة ديوميديز ولتخليص الناس منه ومن خيوله.

وشد هرقل رحله إلى أرض تراقيه، ودخلها غير مستأذن ولا مستأنس، فلما سأله ديوميديز في ذلك، انقض عليه كأنه الحتف، واقتلعه من عرشه كأنه نبتة ومضى به إلى خيوله فألقاه إليها...

وانقضت الخيول على الملك فمزقته تمزيقاً، واغتذت بلحمه الملكي الفاخر!! وطرب الشعب لتخلصه من حاكمه الظالم، ونشر الورد والريحان تحت قدمي هرقل، ومضى البطل فألجم الخيول كلها، وساقها هدية غير مبرورة إلى يوريذوس!!

٨ـ منطقة هيبوليت مليكة الأمازون

وكانت ليوريذوس ابنة ذات كبرياء وذات خيلاء مشغوفة باقتناء الحلي والجواهرالنادرة، تضحي في سبيلها بسلام المملكة وأرواح البرايا، إذا اقتضت الحال حرباً من اجل ياقوتة أو زبرجدة!

وكان أبوها الافين يلبي رغباتها ولا يكاد يرفض لها أمراً، فلما وصفت لها منطقة هيبوليت، مليكة الامازون وما رصعت به من اللآلىء، ثار في نفسها فضول الذهب، وألم بها مرض الحصول عليه، فانطلقت إلى أبيها تبكي، وتشكو العطل وقلة الحيلة، ولو أن خزائنهاكانت تحوي نصف ثروة المملكة.

وسألها أبوها ما بكاؤها؟ فتاهت قليلاً ودلت، ثم ذكرت منطقة هيبوليت!!

وربت الملك على كتفي ابنته، ودعا إليه هرقل، وأمره بالذهاب إلى الامازون والحصول على منطقة الملكة، ولو أدى دمه ثمناً لها!!

أما الامازون، فقبيل عظيم من النساء المحاربات، يحيين حياة عسكرية حافلة بضروب من الشجاعة تحير الالباب وتذهل العقول.. فمنهن فريق يعمل في الحصون ويسهر على قلاع المملكة، وفريق للغزو ومناوشة الاعداء، وثالث يقوم بمهمة الشرط والعسس، ورابع للعمل في الاسطول الذي يلقي الرعب في الشواطىء.......

ولا يعيش بين شعب الامازون أحد من الرجال، فاذا جازف رجل وانسرق بينهن، ترصده الموت في كل مكان!

وكانت مملكتهن في جزيرة نائية قاصية، ذهب هرقل في البحث عنها كل مذهب، واستعان بأقربائه من الآلهة ليرشدوه إليها.

ونصح له أحدهم أن يدع هذه الرحلة القاسية إلى مملكة الامازون، ولكنه أبى، لأن مجازفاته التي يتعرض بها للهلاك، إن هي إلا ثمن الحرية التي ينشدها ويحلم دائماً بها!!.

ووصل هرقل إلى المملكة، وتحايل حتى مثل بين يدي الملكة، فلقيته بما هو أهله من التجلة والاكرام، كابن إله عظيم... وأبدى رغبته في الحصول على المنطقة الغالية التي تزين وسط المملكة، وتحليّ خصرها، ليقدمها ثمنا لحريته الضائعة، للفتاة المزهوة (أدميت) بنت ملك أرجوس...

وتبسمت الملكة، ووعدته أن تخلعها عليه، ليصنع بعد ذلك ما يشاء، ثم تفضلت فدعته إلى حفلة راقصة ، وعشاء فاخر. .

وهنا تبرز حيرا لتمثل دورها؟!. .

لقد هالها هذا النجاح المطرد الذي يظفر به خصمها في كل مكان، فتحولت إلى أمازونة جميلة، واندست بين رعايا الملكة، وألقت في روعهن أن هرقل هو ألدّ أعدائهن، وانه إنما أقبل ليسبي الملكة، ليفر بها إلى ملك أرجوس، وانه اتخذ المنطقة تعلة لذلك جميعاً، فثارت ثائرة الامازون، وتجمهرن حول الملكة، وصارحنها بما قالت لهن حيرا. فأمرتهن بالحرب. ولكن هرقل، البطل الاعزل، انقض كالمنية على الامازون ففرق شملهن، وأظفرته شجاعته بهن، ثم هجم على الملكة فاختطف منطقتها، ونظر فرأى حيرا تشهد المعركة فوق رابية قريبة، فأشار إليها قائلاً: « وهنا أيضاً أنتصر عليك، وسأنتصر عليك دائمًا»

٩ـ طيور بحيرة ستيمفالوس

وطربت ابنة الملك لمنطقة هيبوليت، أيما طرب، وكبرت في نفسها منزلة هرقل، فاستوصت به أباها خيراً. .

واستجاب يوريذوس لشفاعة ابنته في هرقل، فلم يكلفه هذه المرة شططاً، بل اكتفى بأن أمره بالتوجه إلى بحيرة ستيمفالوس ليبيد طيورها ذوات المخالب النحاسية التي تدوم فوق الماء الآسن وتغطس فيه تصيد السمك، ثم تذهب فتأكله قريباً من القرى، فتنتشر بذلك الامراض والطواعين، ولم يكن أيسر على هرقل من أن يبيد هذه الجوارح ومعه قوسه المرنان، وفي كنانته سهامه التي رويت من دم هيدرا

١٠ـ قطعان الجريونز

وكان يأوي إلى سفوح الجبال في مقاطعة أريثيا مارد مخوف مرهوب الجانب يدعى جريونز. وكانت له قطعان كبيرة من الماشية والغنم، عرفت في سائر هيلاس بجودة ألبانها ونعومة أوبارها، حتى لكان يضرب بها المثل كلما فاخر الرعاة بقطعانهم.

وطمع يوريذوس في نعم جريونز وشائه فأمر هرقل أن ينصرف إلى أريثيا فلا يعود إلا بها.

وأغذّ هرقل السير، وألفى المارد ممدداً في كهفه السحيق يغط في نوم عميق، فانقض عليه كأنه الشهاب الراصد، وقبض بيديه الحديديتين على عنقه الغليظ فلم يفلته إلا جثة لا نأمة فيها ولا نفس! وساق القطعان، وتولى إلى ملك أرجوس بالثروة الطائلة، والوفر الكثير وأرخى الليل سدوله، ولما يبلغ هرقل نصف الطريق، فأناخ في منحدر معشوشب، ولعبت سنة من النوم بعينيه فغفا، وأسكرته نسمات الربيع فاستسلم لاحلامه الخمرية الحلوة.

وكان يأوي إلى هذا الجبل، جبل آفنتين، مارد لص قطاع طريق، يدعى كاكوس، وجد هرقل غارقاً في سبات ناعم، فذهب بنصف القطيع أو يزيد..

واستيقظ البطل على رغاء يتجاوب في حدود الافق، فلما تفقد قطعانه انطلق في أثر اللص حتى لحق به، وحطمه تحطيمًا!

وقبيل شروق الشمس، كانت مدينة أرجوس كلها عند الابواب تستقبل الرزق والغنم، وتهتف باسم البطل الحلاحل الذي بهرها بشجاعته، وخلب ألبابها بما أبدى، وما ينفك يبدي، من ضروب القوة والاستبسال..

وأحس يوريذوس بما انطوت عليه قلوب الأهالي من المحبة والافتتان بهرقل، فسخط وحنق، وبيت الشر المستطير..

١١ـ تفاحات هسبريا الذهبية

وأدركت حيرا ما ينقم الملك من هرقل، فوسوست إليه أن يأمره بالحصول على تفاحات هسبريا الذهبية، وهيهات هيهات أن يستطيع أحد الحصول عليها!

ولقد أهديت هذه التفاحات إلى حيرا، ليلة زفافها إلى زيوس، رب الارباب، فيما أهدي إليها من تقدمات وتحف، أهدتها إليها «جي» ربة الأرض، فكانت أثمن الهدايا جميعاً وأغلاها. لأنها فضلاً عن أنها من الذهب الخالص، فقد رصعت بأندر اللآلىء، وزينت بصور الآلهة، ونقشت فيها حدائق الأولمب، ثم هي تستقل بميزة ندر أن تكون لحلية مهما غلت: ذلك أنها إذا غابت الشمس، وأقبل الليل بظلامه، شعت أضواء، ولألاء قل أن تصدر إلا عن كوكب دري، أو شمس وضاءة، فتنقشع الغياهب وتنجلي الدياجير!

وحسبك أن تعلم أن حيرا نفسها لم تأمن آلهة الأولمب وحراسها الغلاظ على هذه القنية النادرة، فأرسلت بها إلى الهسبريد، بنات هسبروس إله الغرب العظيم،

ليحرسنها. ولتكون عندهن في مأمن من كل سارب بليل، أو سارق في نهار، وقد عرف الهسبريد لهذه التفاحات قيمتها، فعلقنها في دوحة باسقة في قصرهن المنيف، وأقمن على حراستها التنين الهائل لادون الهولة، الذي قيل في وصفه إن له سبعين ألف رأس ، في كل رأس سبعون ألف عين، وسبعون ألف ناب يتدفق السم منها جميعاً، ثم إنه يبلغ ألف ذراع طولاً وخمسين سمكاً، وإن له لأظافر كأن كل واحد منها جراز هرمز، وإن له لفحيحاً تضيع فيه زمزمة الجن، ومكاء الشياطين. وانقلب هرقل على وجهه في الارض حيران!

أين هي تفاحات هسبريا هذه؟

«أفي الارض أم في السماء؟ لأمضِ! فرب إله دلني اليها...»

وشرق وغرب ، وذرع الارض من أقصاها إلى أقصاها، وانسرق إلى الكهوف والغيران، وأوغل في الجبال، تحدر في القيعان، ومرّ بكل حنية، ووقف عند كل عين، حتى كان لدى نهر اريدانوس، ووقف بشاطئه يتناجى، فخرجت من الماء النمير عرائسه، ورحن يسرين عن هذا اللاجىء الحزين..

وانه ليسائلهن عن تفاحات هسبريا، فيبتسمن له ويتلطفن معه، ثم ينصحن له أن ينطلق إلى نريوس إله البحر، عسى أن يهديه إلى ما يريد. ويهيم في الارض محاذياً سيف البحر، وحتى يكون آخر الأمر أمام شيخ هرم، وخط الشيب رأسه، وتدلى شعر لحيته الكث فوق صدره العريض ذي النتوء، وبرزت أهدابه حتى لكادت تحجب عينين تزدحم فيهما السنون، وتطل من حدقتيهما الاحداث!

وجده جالساً القرفصاء مقلباً ناظريه في مملكة الماء التي تتصل باللانهاية، فألقى عليه تحية هينة، ردّ عليها الشيخ بهذه العبارة:

« أيها الفتى لماذا قطعت علي تأملاتي؟!»

«فقال هرقل: أستحلفك بسيد الأرباب يا أبتاه إلاّ ما أخبرتني عن حدائق الهسبريد، فتكون لك عليّ يد أذكرها لك أبد الدهر وأشكرها!»

وتجهم نريوس وقال :« حدائق الهسبريد! أوه!.. أنت هرقل إذن!»

فبهت هرقل وأجاب:« أي وحقك أنا هو، فمن ذكرني عندك؟!»

«ليس هذا من شأنك يا بني، ولكن لعلك تبتغي تفاحاتها الذهبية؟»

ــ «أي وزيوس يا أبتاه!»

ـ «بشراك إذن! فلن يحصل عليها إلا أنت، ولكنك لست أنت الذي ستنفذ إلى حدائق الهسبريد! اذهب إذن فالتمس المسكين برومثيوس مكبلا فوق جبال القوقاز، فأحسن إليه وسله حاجتك، فهو وحده الذي يستطيع ارشادك إلى ما تريد. . .»

وشكره هرقل، وحياه، وأطلق ساقيه يطوي الفيافي إلى القوقاز. وهناك وجد برومثيوس والرخ ينوشه، بحيث يمزق كبده ويهرأه، ويتغذى به، فوتر قوسه، وسدد إلى الطير سهما فأصماه، وخلص إلى الإله البائس فأزال أصفاده، وما زال به حتى أقبل الليل والتأمت جراحه، ثم تحدث إليه عن حدائق الهسبريد وتفاحاتها الذهبية، فحدجه برومثيوس بنظرة فاحصة، وقال له: «لكأنك هرقل إذن؟»

ـ «أجل أنا هرقل يا أبتاه!»

ـ «وأنت عدو حيرا يا بني؟»

ـ «عدوها المبين يا أبتاه!»

ـ «مسكين!»

ولم يلبث الفتى أن انهمرت عبراته، وطار لونه، وهاجت في فؤاده البلابل والاشجان، ثم اتصل الحديث، وقال برومثيوس:

ـ «انطلق يا بني إلى أخي أطلس، هناك. . . هناك في افريقية المظلمة شمالاً بغرب، تجده على قنة جبل السماء على منكبيه، ويتشح بوشاح من اللازورد يرفرف بين المشرق والمغرب. فأقرئه سلامي، وزف إليه بشرى خلاصي مما أوقع زيوس بي، ثم حدثه بحاجتك يقضيها لك، فهو وحده يعرف أين حدائق الهسبريد، وهو وحده يستطيع أن ينفذ إليها، وهو وحده يستطيع قتل لادون التنين الهائل الذي يحرس تفاحات هسبريا الذهبية، فاذا أتاك بها، فاحذر أن يأخذك بشيء من مكره، فإني قد علمت أنه بدأ يتململ من حمله الثقيل، ويود لو ينجيه منه أحد، ولو انتثرت الكواكب، وانتقض نظام الكون!»

١٢ـ هرقل يصارع أنتيوس

وفي طريقه إلى أطلس، لقي من الاهوال والخطوب ما تفتأ تتحدث به الايام إلى زماننا هذا، فمن ذلك أنه مر بقوم من الاقزام ضئال الاجسام قصارها، كانوا يؤجرون مارداً عظيم الجسم، مفتول العضل: ليحميهم من جيرانهم الاعزاء الاقوياء، وليدفع عنهم غائلة الغربان النحاسية التي كانت تتلف أعنابهم وتبيد

زروعهم كلما تم نضجها في كل عام. وكان ذلك المارد «أنتيوس» ذا حول وذا طول حتى لكان يخشاه الوحش، ويتخوفه الجن، وترجف من صولته أفعوانات البحار، فلما شهد هرقل يخب في أفق البلاد كأنه جبل يتدهدى، أخذ أهبته لمنازلته، ولم تساوره ذرة من الشك في أنه منتصر عليه.

فلما وصل هرقل، حيا أحسن تحية، ولكن انتيوس لم يجب، بل إنه سارع فأخذ بتلابيب البطل عابر السبيل!!

ـ «ماذا بك أيها الاخ؟ دعني، فليست لي عندك حاجة!»

ـ «لا، لا نجوت إن نجوت! لا أرى إلا أن أصرعك!»

ـ «ولمه؟!»

ـ «هذا ما لا أعرف، ولكن لا بد من أن أصرعك على أية حال!»..

وتصارع الخصمان، وأقبلت الاقزام ترى إلى هذين الجبلين يأخذ أحدهما بخناق الآخر فيلببه تلبيباً!.

وكان انتيوس كلما خانته قواه، وأيقن أن هرقل لا بد صارعه، وقف قليلاً على أديم الارض يستمد منها قوة، ويستلهم الحول من أمه (جي)..

فهو ابن (جي) اذن، ولن يسر ربة الارض أن يصرع ابنها أحد، إذن، فلتمده بكل ما في سرها من قوة ليصرع هرقل!

وخارت قوى البطل! وراح يلهث من شدة النصب، بيد انه تنبه إلى السر آخر الأمر، عندما لحظ أن انتيوس يزداد قوة كلما مست قدماه الارض، فرفعه رفعة هائلة، ولم يمكنه لحظة من الوقوف على قدميه، ثم أخذ يضغط عنقه الغليظ العبل، حتى شهق شهقة كانت هي شهقة الموت..!

فألقى به ... ومضى لشأنه!!

وتلفت فرأى عرائس ماء يلعبن على الشاطىء، ويترامين بلآلىء مما يُعدّ لديهن من حصباء البحر، فوقف غير بعيد وهتف بهن:

««ياعرائس الماء الجميلات! هل لكن أن تهدينني إلى أطلس الذي يحمل السماء، ويمسك كواكبها أن تقع!؟»

وفزع عرائس الماء وهرعن إلى البحر ، ولكن فتاة جريئة وقفت ترقص على رأس موجة وقالت: « امض أيها الرجل حتى إذا لقيت السد الذي يفصل البحر

المحيط من مائنا هذا (وكان البحر الأبيض)، فإذا استطعت أن تنفذ فإنك تكون على فراسخ من أطلس. .

وشكرها هرقل، وانطلق. .

وكان أمام السد، ولكنه كان جبلاً شامخاً ذا قنن وقلل وأحياد، فلم يستطع أن يتسلقه، ضربه بيمينه ضربة، وبشماله أخرى، ففتح ثغرات كبيرة نفذ منها، وترك الجبل وراءه أعمدة عالية، وما تزال تعرف إلى يومنا هذا بأعمدة هرقل!!

ونظر فما هاله إلا هذا الإله العظيم سامقا في الافق، يحمل على كتفيه العريضتين قبة السماء. والنجوم منتثرة من حوله كأنها قطرات أمطار في يوم عاصف!

وتقدم هرقل فحيا الإله الضخم، وحياة الإله الضخم بأحسن مما حيا، ثم أقرأه هذا تحية برومثيوس، وزف إليه بشرى خلاصه من الصخرة التي ظل مكبلاً فوقها أحقاباً وأحقاباً!

وطرب أطلس لهذه البشرى، وافتر عن ثنايا كأنها قمم الجبال مغطاة بالثلوج، ثم قال:

«ومن ينقذه من عذابه الطويل يا صاح!»

«أنا، ان كان يسرك ذاك النبأ»

ــ «أنت؟أنت من المكرمين إذن! مرحباً بك أيها المخلص الأمين! لقد كدت ألقي بهذا الحمل الذي ترى لانقذ أخي، ولكني خفت أن يهلك العالم بمن فيه. . . و. . . على ذكر أخي، كيف هؤلاء الناس الذين خلق؟ أبخير هم؟ وهل يحبتون له حقاً؟ إن زيوس مغيظ منهم، وامرأته حيرا محنقة كذلك، أعندك من أخبار هؤلاء شيء؟

ــ عندي أشياء يا أبتاه. . انا ابن زيوس من ألكمين وقد نقمت حيرا على
عندي أشياء يا أبتاه. . أنا ابن زيوس من ألكمين وقد نقمت حيرا على والدتي، فأرادت أن تفجعها فيّ، وقد أغرت رب الأرباب بي، فقضى أن أخدم النذل يوريذوس سنة بتمامها أصدع له خلالها بما يأمر، وقد أرسلني أجوب الآفاق واذرع الأرض من أجل تفاحات هسبيريا الذهبية، وقد ذكر لي أخوك، بعد إذا أطلقته، أنك وحدك تعرف مكان حدائق الهسبريد وأنك وحدك تستطيع الحصول على هذه التفاحات، فهل أسعد بأن تؤدي لي هذه اليد؟ لقد كادت حيرا كيدها هذا، وإن لم تنصرني أغدو من الهالكين!»

وشاعت الخيلاء في أعطاف أطلس، وسرت حميا الزهو في ظهره الشاسع، فقال: «أجل يا صاح، لن يستطيع قتل لادون غيري، ولن يدخل حدائق الهسبريد سواي، ولكن كيف أترك حملي هذا لآتيك بالتفاحات؟»

ونظر هرقل إلى القبة الهائلة نظرة تفيض كبرياء وقال:
«أنا أحمل عنك هذه القبة يا أبتاه، حتى تعود بالتفاحات!!».

وما كاد يتم كلمته، حتى تقدم فركز كتفيه تحت السماء، وانطلق أطلس لأول مرة منذ أحقاب وأدهار يمتع نفسه بمشية حرة طليقة في حدائق الأرض الغناء!!

وغبرت أيام..

ثم ذكر تفاحات هسبريا، فذهب إلى حدائق الهسبريد، واقتحم الاسوار، وانقض على التنين لادون فزلزلت الأرض تحتهما، ولم يدعه يفلت، برغم مرونته في الوثب وسرعته في الالتفاف، حتى خر صريعاً.

ومد يده إلى الأيكة الذاهبة في السماء فتناول التفاحات المتلألئة الوضاءة، وعاد يزهى ويختال إلى حيث هرقل المجهود المتعب.

وما كاد أطلس يلمح الحمل الثقيل الذي يؤود هرقل حتى ذكر الادهار السحيقة التي لبث يتململ طواها تحت عبئه، فارتعدت فرائصه لمجرد فكرة العود إلى حمله الشاق.. وبدا له أن يدع هرقل ويمضي، ولكن هرقل المتعب فطن إلى ما وقر في قلب أطلس، فناداه: أبتاه! لعمري أن حملك لأخف من الهواء، ولعمري انني لأستطيع أن أثبت له إلى نهاية الأبد!»
وبهت أطلس وقال:
ـ «إذن لتمض في حملك ما دام يسرك!»

فأجاب هرقل: «ليس أيسر من هذا! ولكن هل تسمح فتحمل مكاني برهة حتى أضع حوية فوق كتفي، فإني أشعر بنتوء أديم السماء!!»

وقبل أطلس المغفل، فنثر التفاحات من يده على الكلأ الأخضر وتقدم فحل محل هرقل!!

والتقط صاحبنا التفاحات، وانطلق لا يلوي على شيء!!

وبعد رحلة طويلة مضنية: دخل على يوريذوس بالقنية الغالية التي خلبت لب

فتاته أدميت، فخرت مغشياً عليها حين وقع بصرها عليها..

١٣ ـ رحلة هرقل الى الدار الآخرة

لم تكن محفوفة بالمكاره هذه الرحلة إلى الدار الآخرة، فقد سلك هرقل سبلاً من قبل، كان الموت يجثم في كل خطوة فوقها، وكانت المنايا تتربص فيها، ثم تفر منه آخر الامر، كأنما هو موت للموت ، ومنية للمنية وفناء للفناء..

أسقط في يد حيرا حين عاد هرقل بتفاحات هسبريا، واستولى عليها الجزع حين رأت التنين لادون مضرجاً بدمه، فوسوست في صدر يوريذوس أن يأمر البطل فيحضر له سيربيروس من الدار الآخرة!!

وسيربيروس هو ذلك الكلب الهائل ذو الرؤوس الثلاثة، الذي رأيناه يعدو في أثر بلوتو ـ إله الموتى ـ حينما زار الدار الاولى ليخطف برسفونيه، وهو أبدا يربض عند قدم سيده الجالس فوق عرش هيدز، يقلب في غيهب السفل أعينه الست، كأنها أنجم تحترق في فحمة ليل بهيم، وهو أيضاً أداة تعذيب في دار الابدية. ينشب أظفاره في أرواح المجرمين، ولا يفتأ يكرع من دمائهم حتى يروى!

وكانت الحرية تشيع بالآمال في قلب هرقل، وكان هو قد برم بهذا الرق الأسود الذي كتبته عليه السماء، فانطلق يعدو الى دار الموتى، وبين يديه طائفة من الآلهة تهديه وترشده، حتى إذا كان قاب قوسين من السدة القاتمة الدجوجية، ووجد سيربيروس مقعياً يغط في نوم عميق، وإله الموتى مستلقياً يقلب في حضنه القوي برسفونيه الجميلة، اانقضّ على الكلب فخنقه حتى لا يعوي فتعاويه كلاب الجحيم كلها وتكون هنالك الطامة! ... وانفتل من دار الظلمات وفي نفسه من الرحمة لهذه الارواح الهائمة ما أسال دموع الحنان من عينيه الحزينتين وانخلع قلب يوريذوس حين لمح الكلب الهائل!

لقد كانت الظلماء تتدجى في أشداقه فتكسف الشمس الوضاءة، وترد نور النهار المتلألىء ديجورا يلج في ديجور!!

وكان الزبد ينتشر من أفواهه كأنه ندف يساقط من علٍ في ليل عاصف!

وكان ذيله الطويل الضخم يتلوى وينثني كأنه ذنب هيدرا أو ذيل لادون!

وكان يعوي وينبح فيقلقل الجبال المجاورة، ويزلزل قصور أرجوس!

وانظر إلى الملك الجبان!

لقد قفز من عرشه مما ألم به من الهلع، وانطلق إلى مخزن الغلال المجاور فاختبأ في خابية عظيمة أغلقها على نفسه حتى كاد يختنق، وآلى ألا يخرج حتى يعود هرقل بسيربيروس إلى هيدز!

* * *

وهكذا أصبح هرقل حراً، وألقيت عن كاهله هذه الربقة التي أذلته طويلاً، وتلفت حواليه فوجد الحياة تتبرج كأنها غانية، ووجد كل شيء بساماً ضاحكاً يدعوه إلى اللهو والمرح، والاخذ بنصيب مما تفيض به هذه العاجلة من مباهج ومغريات.

وذهب في رهط من أصدقائه والمعجبين به من الآلهة إلى الأولمب، ليلقى أباه ويقدم له طاعته، وليرى هل يتوب عليه من غضب لا يستحق منه كثيراً ولا قليلاً..

ولقيه أرباب الأولمب هاشين باشين، وأخذوا يتندرون بمجازفاته العجيبة التي انتصر فيها على سبع نيميا والافعوان هيدرا ومحاربات الامازون..

أغرقوا في الضحك عندما ذكر أطلس وما كان من امر الحوية..

واقترح هرمز على الآلهة أن يصارعوا هرقل ويلاكموه، ويباروه في العدو والسباحة وألعاب القوى، لتتم بذلك بهجة لقائه، وليعبروا عما يكنونه له من حب، ويضمرون من إعجاب. فأقيم ملعب الأولمب الفخم، وشيدت على جوانبه المدرجات التي تتسع لألف ألف مشاهد من الالهة وأنصاف الإلهة وكبار المدعوين من عباد برومثيوس(*).

(*) هو خالق البشر فيما تزعم الميثولوجية

وتم مهرجان الالعاب، وحاز هرقل قصب السبق في أكثر المباريات، وكان هذا هو الأولمبياد(*)، الاول الذي أخذ اليونانيون يحتفلون بمثله كل خمس سنوات.

وتتابعت السنون..

ومر هرقل بقوم يبكون، وقيل له أن أدميتوس(**) ملك تساليا مرض، فتمنى على الآلهة أن تمنحه الخلود في هذه الدار الدنيا، فأجيب إلى ما تمنى، بشرط أن يحل محله أحد أهل بيته اذا حضره الموت، وهنا تقدمت زوجته المخلصة ألستيس فضحت بنفسها كي ينجو بعلها من الموت، وليخلد ما شاء له الخلود. وماتت الزوجة الوفية فداء للملك.. وينظر أدميتوس إلى ملكه الشاسع فيراه بغيضاً لا خير فيه، ويكون في حاشيته فيشعر بوحشة وانقباض كأنه يعيش في صحراء، ويقدم إليه الطعام فلا يكاد يسيغه، وترقص القيان بين يديه فيثرن في نفسه الاشمئزاز كأنهن جنة تدمدم في ظلام غابة..

ويبغض الدنيا...

ويود لو كانت زوجته الجميلة المخلصة إلى جانبه لحظة واحدة، وتتلاشى بعدها الحياة بكل من فيها.!.

لذلك يبكي الملك، ويبكي حوله شعبه الامين!

ويذكر هرقل أنه وحده يستطيع أن ينفذ إلى هيدز ــ دار الموتى ــ فيستنقذ الستيس من براثن الفناء، ويردها معززة مكرمة إلى زوجها المسكين فيهدأ قلبه، ويرقأ دمعه، وتستقر نفسه، ويفيء إلى أمر هذا الشعب الذي تكبكب حوله يعول وينتحب..

ونفذ البطل إلى ظلمات الدار الآخرة، وسأل الارواح الهائمة فدلته على منامة ألستيس، فتغفل حارسها الجبار وخنقه، واختطف الفتاة الناعسة وفر بها دون أن

---

(٢) الأولمبياد وهو دورة الألعاب الاولمبية
(**) أسطورة أدميتوس وزوجته اليستيس وطرد أبوللو من السماء هي من أبرع الأساطير الاغريقية.

تشعر به زبانية بلوتو.

وعادت الطمأنينة إلى قلب الملك، ورفرف السلام على المملكة.

١٤ ـ هرقل وأومفاليه

وذهب هرقل يزرع الارض، واشترك في حملة الارجونوت ضد السنتور، وانضم إلى الاغريق في حصارهم الاول لطروادة.

ولقى رجلا ذا خيلاء وكبر فقتله ظالما، وكان زيوس ينظر من علياء الاولب، فعبس وبسر، وقضى أن يظل هرقل في خدمة أومفاليه ملكة ليديا بضع سنين.

وتجهم هرقل، ولكنه لم يكد يبدأ خدماته التافهة للملكة، حتى راعه جمالها، واستهوته مفاتنها، وأحس للمرة الاولى في حياته المشحونة بالمخاطر أن قبساً يتأجج في قلبه يوشك أن يجعله ضراماً.

وحلا في فمه ما مر من الذل، وطلب ما كره من العبودية وود لو قضى الحياة في ظلال هذا الحب الأول مغموراً برضى الملكة، سعيداً بما أفاء عليه جمالها من هناء ونعيم بال. ولكن الآلهة لم تقر بهذه السعادة فأرسلت بطلها لمآرب أخرى.

١٥ ـ زواج هرقل

وطوف هرقل في أقصى الارض حتى انتهى إلى كاليدون مملكة أونيوس، ولقي ابنته الناهد الهيفاء تجمع الزهور في خميلة غناء. وكان قلبه قد نهل من خمرة الحب، وكانت عيناه قد ثقفتا نظرات الغزل، وكان لسانه قد انحلت عقدته عن وحي الهوى، فانطلق يلاعب الفتاة ويداعبها ، وينمق لها من الورود والرياحين باقات تتكلم بالشذى، وتهتف بالخضرة والحمرة، وتصافح الروح بالعبير الفياح.

وأنست ابنة الملك بهرقل واطمأنت اليه، وبثها وبثته، وتشاكيا ما شاء لهما الغرام الروي، والحب الفتي، والدمع المسكوب!

وعلم منها أن أخيلوس، أحد آلهة الانهار، قد خطبها إلى والدها وأن الملك قد أجابه إلى ما أراد:

«فهل-أسعد. بأن تزيح هذا الكابوس عن قلبي»

«وتقف حائلاً بيني وبين الشقاء الذي يتربص بي،»

«فنكون أهنأ زوجين ينعمان بلذة الحب، ويرفلان»

«في برد السعادة ، ويتغنيان مع الطير»

«ألحان الهوى والحياة. . . . . . .»(*)

هكذا بكت ديانيرا إلى هرقل، فهاجت في قلبه نخوة البطولة ونحيزة المغامرة، وأطلقت في كل عضلة من جسمه المكتنز كهرباء الحماسة والاستبسال:

«قَرِّي عيناً أيتها الحبيبة فليس أيسر»

««على هرقل من حرب الآلهة، لقد صرعتهم»

«جميعاً في حفل الأولمب، وقد مر بي من المغامرات»

«ما ينخلع من بعضه قلب اخيلوس. . . .»(**)

واستأذن هرقل على الملك، وحيا أحسن تحية، ثم طلب يد ديانيرا. . وكان أونيوس يعرف من بأس البطل وعظيم قوته ما يعرف كل ملوك هيلاس وامرائها، وكان قد أجاب أخيلوس إلى خطبته وهو يعلم من سخط ابنته على هذا الزواج ما يعلم، فلما تقدم إليه هرقل استبشر وقال: «. . لقد كنت يا بني وعدت أخيلوس أن يبني على ديانيرا، وهو من تعلم في الحول والطول والجبروت، لكني مع ذاك لا أفضله عليك، بل نجعل لكما يوما تلتقيان فيه، فمن يصرع صاحبه كان كفؤا لديانيرا»

وقبل هرقل، ورضي أخيلوس، واجتمع الناس من كل فج يشهدون الصراع العظيم بين الجبارين العنيدين. . وكان كل واثقاً بنفسه، لا يخامره أدنى شك في انه فائز على صاحبه. فلما تقابلا، ثار من حولهما النقع. كانت أنظار الناس كأنها متصلة بسواعدهما بأمراس شداد، وبعد قليل أخذت الارض ترتجف من تحتهما ، وطفق الملعب يهتز بمن فيه من خلق كثير. . وكانت ديانيرا تشرف من مقصورتها وتكاد تغص بريقها اشفاقاً على هرقل، وكان هو كذلك، كلما خارت قواه، نظر إليها النظرة فتتجدد بها روحه وتتضاعف قوته ويمتلىء قلبه بالآمال. . وكان أخيلوس قد فطن إلى جبروت هرقل، وكان يستطيع أن يتشكل بأي خلق أراد، فجعل

(*) هذه السطور من سوفوكليس في مأساته الخالدة «عذارى تراقية».

(**) هذه السطور من سوفوكليس في مأساته الخالدة «عذارى تراشينيا».

يتقلب من ثعبان ضخم الجثة، إلى تنين عظيم الجرم، إلى أسد بادي النواجذ، إلى. . ما شاء له سحره وقوة حيلته من أشكال وأوضاع. . ثم انقلب إلى عجل جسد ذي قرنين كبيرين، وشرع ينطح هرقل، وهرقل يتقيه، حتى استطاع البطل أن يأخذ بقرنيه بكلتا قبضتيه، وجعل يخبط برأسه الأرض في عنف وغل، حتى كسر أحد القرنين وفر اخيلوس من الميدان هارباً. . لا يلوي على شيء. .

ودوى الملعب بالتصفيق ، واندلعت الحناجر بالهتاف، وتدفق الناس نحو هرقل يحملونه على الاعناق. . وتقدمت ديانيرا فحياها البطل بقبلة فردوسية خالدة، لا يزال صداها يرن على شفاه المحبين. .

وتم العرس. . وانطلق هرقل بزوجه يجوب الآفاق وحدث أن اعترضه نهر عظيم لم يستطع أن يعبره ومعه ديانيرا. فبينما كان يعمل فكره كيف يقتحمه، إذا سنتور عظيم يعرض عليه أن يحمل زوجته فيعبر بها إلى العدوة الثانية سالمة آمنة، ثم يرتد فيحمله إليها كذلك، وقبل هرقل، ونسي ما كان بينه وبين السنتور من عداوة وبغضاء، وحرب قديمة تدمى لها قلوبهم، وتقرح نفوسهم، وأعان هرقل زوجته فاستوت على ظهر السنتور، وخاض بها الماء وهو يطفر من الفرح، ويحلم بالمنى والآمال . فما كاد يبلغ الشاطيء الآخر حتى عدا عدواً شديداً ليكون بمنجاة من سهام هرقل. ولكن ديانيرا صرخت صرخة مدوية نبهت ما غفل من سمع زوجها، فلما فطن إلى خيانة السنتور، شد قوسه العظيمة، وأرسل إلى دبر السنتور سهما مراشا كان قد شرب من دم هيدرا حتى ارتوى!

وأحس السنتور بسم الموت يخترم حشاشته، وبرودة الفناء تشيع في جسمه البدين، فأقسم ليكيدن لهرقل فيذيقه من هذا السم الذي سقى به سهامه ما يودي به. فقال لديانيرا: « أيتها الفتاة! لا تثقي أن حب هرقل دائم لك، بل أكبر الظن أنه منصرف عنك إلى فتاة أخرى تكون أسبى واصبى. وما أحسبك إلا ذاكرة كيف كان يتفانى في حب أومفاليه. فخذي قميصي هذا فاحفظيه لديك، حتى إذا أحسست من زوجك جفوة، أو رأيت فيه ازورارا، فابعثي به إليه ليلبسه، وألقي في روعه انه يحفظه من أعدائه. فانه إن فعل، عاد اليك بقلب مفعم بالحب، ونفس ملتاعة كلها شوق وتوق. . » ، ثم خر السنتور ميتاً!

وأخذت ديانيرا القميص المضرج بالدماء المسمومة، وفي نفسها من الهم شيء عظيم! «من اومفاليه هذه؟! كان يحب أومفاليه؟ كان يحب فتاة غيري؟ وحق زيوس لأسألنه! ها هو ذا قد سبح إلى الشاطىء!»

ولقيته فسألته، فاعترف لها بكل شيء، وطمأنها على محبته واخلاصه... ولكن قلب المرأة لا يعرف هذا الاستسلام المعسول للكلمات الناعمة! فقد ظل الوسواس يدب في نفس ديانيرا، حتى كان هرقل في إحدى جولاته، وكانت هي عند أبيها ملك كاليدون، فطالت غيبته، وذهبت بها الظنون من أجل ذلك كل مذهب.

وذكرت القميص ورددت عبارات السنتور، فنهضت من توها وأرسلته مع إحدى وصيفاتها(*) إلى هرقل في منآه البعيد. وأوصت الوصيفة أن تذكر له من مآثر القميص ما وسوس به السنتور. فلما لبسه هرقل، التصق به التصاقاً، وأخذ السم يشيع في جسمه الحديدي فيذيبه ويفتته.

وصرخ البطل بلا جدوى! وكلما حاول انتزاع القميص كان جلده يتمزق، ولحمه يتهرأ، ويتصبب الدم من فوق ومن تحت... ثم أخذت نفسه تساقط أنفساً.. وطفقت روحه تودع هذا الجثمان الهائل في دموع وآهات حارة..

ولفظ نفسه الاخير وهو يبكي ويقول: «فدى لك نفسي .. يا .. ديا.. نيرا!»

* * *

«وهوى إلى الارض ما كان من الارض، ورفرفت»

«الروح الكبيرة في جمهرة من أرواح الآلهة التي أقبلت»

«من الأولمب تزف ابن زيوس العظيم. والكل ضاحك»

«مستبشر أن القى اخوهم حمله الثقيل، وخرج الأولمب»

«جميعا يستقبل البطل ويهتف باسمه في عليين»(**)

وحمل الجثمان الطاهر إلى جبل أويتا، حيث دفن في إجلال واعظام، وحيث وقفت ديانيرا ترويه بدمعها الغزير..

(*) في احد المصادر انها أرسلت خادمها الصناع ليخاس.

(**) هذه السطور من شلر الألماني. وفي بعض المصادر أن الذي أثار الغيرة في قلب ديانيرا، انها سمعت أنه عاد إلى إحدى صويحباته القدامي «ايول» وأنه هام بها ومع ذاك فلو قد علمت ان القميص مسموم لما أرسلت به إليه.

التوت الأبيض والتوت الأحمر
أو
(بيرام وتسبيه)

كان أجمل شباب بابل، وكانت أجمل حسانها. كان فتنة في فتنة، في جسم قوي، وقلب حمي، وخلق حيي، وقوام مفتول، ونفس حلوة ساكنة سجواء(*). وكانت قسيمة وسيمة خفيفة لطيفة، غضة كالوردة، عطرية كأنفاس البنفسج، تفتر عن فم خمري شتيت، وترنو بعينين دعجاوين نجلاوين، وترسل شعرها المغدودن(**) على ظهرها العاجي تارة، وصدرها المرمري اخرى، يداعبه النسيم، وتقبله الآلهة، وتنتظم فيه حبات القلوب..

وكان بيتاهما متلاصقين، فكان يراها وكانت تراه، وكان يلقاها وكانت تلقاه، وكانا يتلاعبان في الصغر، طفلين كالملائكة، ثم شبا، فكانا ينفران إلى الخلاء والادغال، ويلتقيان عند النبع القريب، ويتسلق بيرام أشجار التوت الابيض – ولم يكن التوت الاحمر قد عرف بعد – فيهز اغصانها وأفنانها، ويساقط الثمر الشهي اللذيذ على سندس العشب، رطباً جنياً.. فتأكل تسبيه، وتقر عيناً!!

ثم ترعرعا أيضاً، ودبت الحياة الحلوة الجميلة، حارة متدفقة زاخرة، في قلبيهما الصغيرين، وأخذ الفؤادان الصغيران يثبان إلى الاعين السعيدة الطاهرة يرى كل إلى صاحبه، ويتزود كل من جمال أخيه زاد الهوى وذخيرة الحب، للأيام المقبلات.

ولم يعرفا أنه الحب، ذاك الذي يخفق في صدريهما أول الامر ولكنهما عرفاه، وعرفاه معرفة كلها شجو وكلها حنين، حين ألح عليهما، وحين كانا يفترقان أشوق ما يكونان إلى لقاء، وأصبى ما يكونان إلى اجتماع، ثم عرفا كيف يتشاكيان، وكيف يتباكيان، وكيف يكون الليل جحيمًا حينما يقبل فيفصل بينهما بظلامه، ويجمع

---

(١) ساكنة

(٢) المغدودن: الناعم الطويل.

بين روحيهما بسهده ودموعه وطويل أنينه، وكيف يكون فردوساً خالداً حينما يجمع بينهما في يقظة أو في منام.

ولم يقو بيرام على عذاب البعد، فاتفق وتسبيه على أن يكلم أباه ليكلم أباها في الخطبة، ولكن والد بيرام أبى واستكبر ورفض أن تكون هذه الفتاة التي هي مطمح أبصار شبان المدينة زوجة لولده، وكذلك أبى والد الفتاة، ثم شجر الخلاف واتسع، وكثرت شياطينه، وأحيا عداوات قديمة، فتدابر القوم وتناكروا ولكن ما في قلب الحبيبين ظل على ما كان عليه، بل ألهب البعد الذي جرت إليه الخصومة أوار حبهما، فازدادا هياماً، وذابا غراماً ، وكانت عداوة أهليهما عليهما برداً وسلاماً..

ولم يعد يفكر إلا فيها، ولم تعد تفكر إلا فيه، وراح ينظم الشعر يتغنى به برحاءه، ويرسل موسيقاه يكلم بها السماء عسى أن ترق له آلهتها فترحمه مما يقاسي... وراحت هي تبكي وتتكلم بلغة الدموع إلى نفسها الملتاعة، وترسل آهاتها في صميم الليل تتردد بين النجوم الخفاقة الكلمى، تتوسل إلى أرباب الرحمة والحب أن تدرك بلطفها ضعف الحبيبين المظلومين.

وتصدعت السماء، وانهمرت شآبيب الرحمة، وانهل فيض الحنان، وأمرت الآلهة فزلزلت الارض زلزالها.. وكانت الغرفة التي ينام فيها بيرام ملاصقة للتي تنام فيها حبيبته تسبيه، وكان يفصلها جدار مشترك بن المنزلين المختصمين، فأحدث الزلزال في هذا الجدار صدعاً صغيراً كالشعرة فوصل هواء الغرفتين، وحمل كلام الحبيبين، وأخذت موسيقى بيرام وغناؤه ينسابان إلى غرفة تسبيه، واخذ بكاء تسبيه وآهاتها تنساب في غرفة بيرام، وأخذت النجوى الحلوة، والشكوى الجميلة، وغزل الكلام، وحنين القلوب، ينتقل في برج هذا الشق كأنها كواكب السعد تحدوها الآهات الملتهبة، وتذهب بها القبلات الحارة، ترف بأجنحة من أثير ، من فم إلى فم..

ــ تسبيه، تسبيه!

ــ من؟ لمن يناديني؟

ــ تسبيه، هو أنا ــ أنا بيرام!

ــ من أين تتكلم؟

ــ من هنا .. ألم تشعري بالزلزلة؟

ــ آه! شعرت بها في العشاء ليلة أمس.

ـ إنها أحدثت في الحائط الذي يفصل بيننا شقاً. . وأنا أكلمك منه.

ـ بيرام!

ـ تسبيه!

ـ إذن لقد رثت الآلهة لحالنا!

ـ واستجابت دعاءنا يا تسبيه، لقد حركتها موسيقاي!

ـ إذن كنت تعزف وتتغنى، بينما كنت أبكي وأئن وأذوي!

ـ لا! ولكني كنت أسكب نفسي دموعاً على أوتار القيثار!

ـ يا لقسوة هذا الجدار يا بيرام! انه يفصل بيننا بشدة!

ـ هو على كل حال أرحم بنا من أبوينا. . أليس قد انفرج ليصل حديثنا؟

ـ نشكره جداً يا تسبيه. . وأشكره أنا خاصة لأنه فرج عن قلبي بالتحدث إليك.

ـ بيرام!

ـ حياتي!

ـ هل الجنة أجمل من سجننا هذا؟

ـ إنه أجمل من أنضر الجنان يا تسبيه!

ـ وهذا الظلام! أليس هو أضوأ من سنا الضحى؟

ـ لأننا نتحدث فيه يا اختاه!

ـ أحب أن أسمع موسيقاك يا بيرام تتدفق في روحي خلال هذا الجدار.

ـ ليس أحب إليّ من ذلك يا تسبيه.

ـ أنا لم أسمعك تغني مذ تناكر أهلونا.

ـ سأفعل إن وددت!

ـ وماذا عساك تغني؟

ـ كل أغنياتي التي ترنمت بها فيك؟

ـ ألا تغني شيئاً آخر؟

ـ للآلهة! لانها أنعمت عليّ بحبك!

وهكذا كانت أحاديث الحبيبين المعذبين كلما جنهما الليل، وضمهما غاشي الظلام. أحاديث كأوشية الروض، وأفواف الزهر، ونجوى البلابل، ممزوجة بعبرة أو عبرتين يريقانهما على جفاء الاهل، ولدد الطباع، وقسوة الايام.

ولم يحتملا هذه الحال طويلاً، فلقد شفهما الهوى، وأنحلتهما الصبابة، وفعل الحب في قلبيهما الضعيفين أفاعيله. ففي ليلة سافرة البدر، ساجية النسيم، صمتت فيها الطبيعة، وتكلم القمر، دار بين العاشقين الحديث الآتي:

ـ تسبيه؟!

ـ بيرام!

ـ أوشك القمر أن يكون بدراً يا حبيبتي!

ـ إنه جميل الليلة، وحبذا ان يظل جميلاً الليالي المقبلة...

ـ إن القمر جميل دائماً... اليس هو ابتسامة هذه الدنيا في ليالي العاشقين!

ـ لكنه صامت أبداً ... إنه أبكم لا يعي!

ـ سو... لا تقولي ذلك يا تسبيه... قد تسمعك ديانا فتغضب!

ـ هل يتكلم؟ هل يفهم؟

ـ أما أنه يتكلم فحق... لكنه لا يتكلم بلسان كلساننا. انه يتكلم بلسان من فضه يا تسبيه، لسان له رنين حلو في أعماق الروح... ثم هو يفهم آلام المحبين لأنها تصعد إليه مع آهاتهم...

ـ خيال شاعر وفلسفته!

ـ بل هو الحق يا حبيبتي! لقد كان يكلمني وكنت أكلمه. وكان يفهمني وكنت أفهمه، كان يكلمني بآراده(*) وأضوائه، وهي لسان صامت ولكنه بليغ لسن، وكنت أكلمه بوجداني مرة، وموسيقاي أخرى، فكان يضحك في الأولى، ويرقص في الثانية.. تسبيه!

ـ ماذا يا بيرام؟

(*) أشعته.

ـ أتمنى لو غمرتنا أشعة القمر غدا، في هذا السهل المنبسط..

ـ غدا؟ وكيف؟

ـ ولم لا ؟ ألا ترغبين؟

ـ وكيف أرفض؟ أنا أتمنى ذلك..
ـ إذن سنلتقي!

ـ وكيف أفعل يا بيرام؟

ـ تنسرقين إذا نام أهلك... لن يشعر بك أحد..

ـ وأين نلتقي؟

ـ عند مقبرة نينوس
ـ ... ؟..

ـ الا تعرفينها؟

ـ مكان رهيب.

ـ لكنه جميل رائع! سنجلس ثمة بين يدي القمر ونتحدث، ونشفي أنفسنا مما تجد!
ـ وتعزف وتغني؟

ـ وقد نبكي؟

ـ ..؟..

ـ اتفقنا! أليس كذلك؟

ـ اتفقنا.

ـ إذن أنتظرك، إذا لم أجدك هناك، عند النبع القريب، تحت التوتة البيضاء! وكذلك تفعلين.
ـ أفعل ماذا؟

ـ تنتظرينني ثمة اذا سبقتني!
ـ ترى ماذا تبتغي ديانا مني؟
ـ لا شيء.. لا شيء..

* * *

ما كان أجملها ليلة سطع في حواشيها القمر، ودحرج لآلأه على مياه النبع، ودغدغ بأضوائه العشب وأفنان الشجر، فتبسمت وتضاحكت ، ونشر في أجوائها بخوره المتصاعد من مجامر الورد، ومداهن البنفسج، احتفاء بمقدم تسبيه، يـالجمال الطبيعة! لقد كان كل ما فيها موسيقى صامتة تنشر أحلى النغم حوالي هذه الحبيبة التي انسرقت تحت أسدال الظلام، تمشي كالقطاة، وترسل من فوق رأسها خماراً رقيقاً كسحابة الصيف، تستر ما وراءها وليست شيئاً! لقد كانت توجس في نفسها خيفة وهي تدب في سكون الليل، كما يسري الحلم الجميل في خلد النائم.

وذهبت تطوي الطريق وفي رأسها ألف فكرة عن هذه المجازفة، وبلغت مقبرة نينوس آخر الأمر، ولكنها لم تجد حبيبها عندها. . ترى ماذا عوقه؟ لقد كان رخام المقبرة نظيفاً ناصعاً، ولقد كان شبح الفناء جاثماً فوقها يلمع في ضوء القمر، كأنه يتلاعب بالسنين والاحقاب، وكأنه يسخر من كل شيء فوق الارض! وبدا للفتاة الضعيفة كأنه يرقص كالسكران فوق الشاخص الرخامي ، ولكنها اخذت تصرف عن عينيها رؤى عفاريت الليل، وتصاوير الوهم المريض، ثم سخرت من خوفها وذكرت التوتة البيضاء، والنبع الذي عندها، فارتدت إليهما لتجلس ثمة، ترتقب زورة الحبيب.

وجلست عند جذع التوتة، وجعلت تحدج الثمر الابيض، وتشتهي لو سقط منه شيء فتأكله حتى يحضر بيرام. . ثم سمعت دبيبا يقترب، فلم تشك أن بيرام قد أقبل، ونبض قلبها بشدة واندرفت من عينيها عبرة لم تفكر هذه اللحظة في أن تذرفها. . ثم أبطأ الدبيب. . ووثبت تسبيه تمد عينيها الثاقبتين في أرجاء الدنيا الصامتة الرهيبة، ولكنها لم تر شيئاً، وعادت عفاريت الليل ترقص في وهمها، ولكنها لم تبالِ ، وجعلت تجاهد نفسها مجاهدة لينة مرة، عنيفة مرة أخرى، وهي في هذا وذاك تفكر في بيرام، وتضرب لتأخره أخماساً لاسداس. . ثم ذعرت الفتاة ذعراً كبيراً، وساخت الارض تحت قدميها المرتجفتين الواهنتين. . ذلك أنها لمحت شبح لبؤة تخرج من دغل قريب فجأة ثم تيمم شطر النبع الذي تعرش من فوقه التوتة. ماذا؟ انها لبؤة ضارية أقبلت ترتوي من ظمأ ملح وجواد(*) شديد. . وهي تتبهنس(**) مع ذاك كأنها عروس، ولكن عروس من الجن.

(*) الظمأ

(**) تتبختر

وأطلقت الفتاة ساقيها للريح، ولم تحفل بها اللبؤة، لانها قد افترست فريسة قبل ساعة ونهشتها، وهذا فمها ملوث بالدم الغريض الدافىء..

لم تصنع اللبؤة شيئاً، إلا انها رأت الخمار الابيض الذي كانت تسبيه ملتفعة به، ملقى على الارض، فعاثت فيه، وكأنما أرادت أن تمسح فمها به، فلوثته بالدم ثم هممت نحو النبع فارتوت على مهل، وعادت أدراجها نحو الدغل الذي تركت فيه فريستها لتأتي على بقاياها.

أما الفتاة فقد ظلت تجري حتى بلغت شجرة ضخمة وجدت في أصلها فراغاً فاختبأت فيه، وراحت تلهث من الذعر والتعب، وتتمنى ألا ترتد اللبؤة إليها.. وقد أيقنت أن ديانا إلهة القمر، قد سمعتها حين عابت على البدر عيه وبكمه، فساقت إليها ذاك الوحش في هذا الليل.

ولم يمض وقت طويل على تلك الاحداث حتى أقبل بيرام وفي نفسه لهفة، وبقلبه قلق، فقصد إلى مقبرة نينوس فلم يجد عندها شيئاً، ووقف قليلاً يبحث عن تسبيه في كل شيء! في شجيرات الورد وفسائل الزنبق، وفي العشب الخائف المذعور حول المقبرة، وتولاه طائف من الوجد والذهول فراح يبحث في السحابة الرقيقة البيضاء التي انتشرت على وجه القمر في هذه اللحظة، مشبهة خمار تسبيه، إذ يكون على وجهها الرقيق الناحل.. ثم ذكر ميعاده عند النبع القريب تحت التوتة البيضاء، فانثنى ميممًا شطرها..

« يا للهول! ويا للفزع الاكبر! ما هذا؟ خمار حريري أبيض؟ لمن هذا الخمار يا ترى؟ أواه! انه خمارها لا ريب! لقد شهدتها تلتفع به مراراً! يا أرباب السماء! ما هذا الدم؟ وأسفاه عليك يا تسبيه! لقد قتلتك الوحوش فلن أراك بعد اليوم! أنا السبب يا حبيبتي! لقد جررت عليك هذا باقتراحي الضال! ألا ليت أمي لم تلدني! أي وحش ضار اغتدى بك يا تسبيه؟ أيها القمر القبيح الأبكم، لماذا أغريتنا بهذا اللقاء؟ أنت تتستر الآن حياء وخجلاً من فعلتك التي فعلت، وكنت بالأمس سافراً متبرجاً! أغرب أيها الأصفر كصفرة الموت، فلا جمال فيك! رد عليّ موسيقاي وأغاني فأنت جبس(*) لئيم لا تستأهل منها شيئاً! هات كل ما عندك لي هات! هات دموعي وأشجاني وآهاتي! هات سهدي وعبادتي ومناجاتي! قتلت تسبيه تحت سمعك

(*) بكسر الجيم الثقيل الروح والجبان واللئيم.

وبصرك!! ما أقساك يا صاحب الليالي المواضي! أوه.. ولكن لا.. أنا الذي قتلتها، ولا ذنب لك يا قمر. اني استغفرك، ابق كل ذكرياتي عندك، فلا آمن عليها إلا أنت! أما أنا.. فهلم يا حسام أسكن هنا.. في حبة القلب. ارو من هذا الدم الدافىء، فلا أمل لصاحبك في الحياة بعد اليوم».

وألقى الفتى المسكين نظرة على كل شيء حوله، لا حرصاً على الحياة المرة، ولكن لينظر إلى كل ما نظرت إليه تسبيه قبل أن يأكلها الوحش، وليتزود من الاثر الذي تركته في الوجود عيناها الحزينتان المفزوعتان..

ثم أغمد سيفه في صدره وسقط يتجرع غصص الموت! وهدأ روع تسبيه، فبرزت من مكمنها في أصل الدوحة، لترى من أين كان يتردد في أذنيها هذا النداء الحبيب. وكان شبح اللبؤة لا يزال يتمثل لها فيفزعها في الفينة بعد الفينة، ولكنها كانت تسير بخطى وئيدة لانها ما شكت مطلقا في أن النداء هو لحبيبها، لان الصوت الفضي الذي كان يمتزج بأضواء القمر فيغمر اذنيها وقلبها، كان لا يزال يداعب أذنيها الصغيرتين.. ثم بدا لها أن تحث الخطى حتى تنبه بيرام إلى وجود لبؤة في هذا السهل الجميل جعلته كالفلاة.. فأسرعت وأسرعت!

ــ من هذا المستلقي على حفافي النبع؟ هو من غير شك! ثم أسرعت أكثر من ذي قبل.

ــ بيرام؟! ما هذا؟ السيف في صدرك؟ لمه؟ حبيبي ردّ علي! كلم تسبيه! ها أنا ذي! لم قتلت نفسك يا بيرام؟ آه ! هذا الخمار الابيض! وي إنه ملوث بالدم؟ عاثت فيه اللبؤة الملعونة!

ــ تسـ... بيه!

وأرسل القتيل هذا الاسم المحبب وحشرجة الموت تعتلج في صدره، ثم فتح عينيه قليلاً فرأى فتاته تبكي فوق رأسه، فتبسم.. ثم مات!

ــ بيرام، لا! لا تمت! لا بد أن تعيش من أجلي.. ولكنه مات برغم هذه الاماني.

ــ إذن أنا التي قتلتك يا حبيبي؟ اشهدي يا توتتنا البيضاء!

ثم رفعت بصرها إلى فوق، ولكنها بدلا من أن ترى الثمر الشهي الابيض، رأت ثمراً أحمر يقطر دماً قانياً.

ـ أوه! رويت من دمه أيتها الشجرة فضرجت ثمرك من حبنا وسعادتنا؟ يا للقسوة! تعالوا يا أهل! تعالوا أيها القساة! فتشوا عن الرحمة في قلوبكم المتحجرة واذرفوا دموعكم علينا. . احذروا ان تفرقوا بعد اليوم بيننا، فقد ربطت جسومنا المنايا. . لقد أبيتم أن نجتمع في الحياة فلا تفرقوا بيننا بعد الموت. . وداعا أيها القمر . . وداعا فقد ظلمناك!»

ثم جذبت السيف من صدر حبيبها وأغمدته في صدرها بعد أن قبلت بيرام الميت قبلة الوداع. . وسقطت تتخبط في دمائها إلى جانبه. . ثم عالجت سكرات المنون فوضعت رأسها الجميل، وشعرها المغدودن، فوق صدره. . ولفظت ثمة آخر أنفاسها.

وأقبل أهلوهما في الصباح فبكوا كثيراً، واستغفروا لذنوبهم، ثم أقاموا للحبيبين قبراً واحداً من الرخام الناصع عند حفافي النبع. . تحت التوتة الحمراء!

أدونيس

كان جميلاً كالكأس المترعة.. وله وجه أبيض كالحبب، تتدفق الخمر في دمه، وتكمن في عينيه، وتنثال على لسانه..

رأته فينوس يستحم في بحيرة مزهرة، فوقفت تنظر إلى هذا التمثال من بلور، يسبح في لجة من لجين!

ولمحها الغلام فخجل واستحيا، وطفق يخصف عليه من أوراق اللوتس.. ولكن الحياء ورد وجنتيه، وصبغ خديه، وفتر ناظريه، وتصبب في شفتيه فاحمرتا! وبذلك أصبح فتنة تملأ البحيرة، وعجْباً يشيع في الماء..

وسبح إلى الشاطىء المقابل، بيد أن فينوس كانت عنده قبل أن يبلغه هو، فانثنى يريد الشاطىء الآخر، فكانت فينوس عنده كذلك، فارتد يحسب أنه يسبقها إلى الشاطىء المقابل كرة أخرى، ولكن الآلهة العنيدة كانت تسابق الوهم في الوصول إلى أحد الشاطئين، فلما نال الجهد من أدونيس لم ير بدأ من البروز إلى البر، وليكن من أمر هذه الغادة التي تهاجمه بحبها ــ وهو لا يعرف من هي ــ ما يكون!

ــ «أدونيس.. أليس كذلك؟»

ــ «؟..»

ــ «ألا تتكلم؟..»

وكانت قطرات الماء البلورية تتحدر على جسمه الرشيق، فمن يدري؟ أهي من ماء البحيرة أم من ماء الخجل!...

ــ «تكلم يا أدونيس! الا تعرف من أنا؟..»

ــ «؟......»

ــ «أنا التي سجد عند اخمصيها مارس الجبار! لقد ألقى سلاحه لدى النظرة

الاولى التي زلزلت بها أركان قلبه! ألا تصدق ؟ أدونيس؟!..»

ـ «أرجوك.. إن رفاقي ينتظرونني، ونحن جميعاً نتخذ أهبتنا للصيد..»

ـ «صيد؟.. وماذا تصيدون في هذه البرية الموحشة؟..»

ـ « الخنازير يا غادة.. انها متوحشة جداً..»

ـ «وهي خطرة أيضاً، وكل يوم لها ضحايا.. أدونيس! ألست ترى إلى جمالك الفينان! ألا تشفق عليه من أن يصيبه سفع من شمس هذه البرية المحرقة؟ ألا تقلع عن صيد الخنازير القتالة؟.. تكلم! لا تصمت هكذا!»..

ـ «أرجوك؟»

ـ ترجوني؟ أنا التي أرجوك يا حبيبي!..

ـ «... ؟؟ ...»

ـ أراك ارتبكت اذ دعوتك حبيبي؟ وي! ما هذا الحياء، يصبغك بأرجوانه هكذا يا أدونيس؟ تعال.. هات قبلة!»

ـ «لا.. لن يكون شيء من هذا! اسمعي! ها هي ذي سلوقياتي تنبح ولا بد أن أسرع إليها.. دعيني.. دعيني!»

ـ «لن أدعك، ولو استجمعت شبابك كله وريعانك ما استطعت أن تفلت من ذراعي يا حبيبي!.. هات قبلة قلت لك!..»

ـ «...؟؟...»

ـ «اذن أنال بالقوة كل ما أشتهي! سأحرق شفتيك الباردتين بشفتي المشتعلتين!»

ـ «أ.. ر.. جوك أوه.. حبـ.. بك.»

ـ «فمك جميل شهي، ولكن خديك جميلان كذلك.. ألف قبلة على خديك وعارضيك أيها الغلام الفتان!..»

ـ «...؟؟...»

ـ أنفاسك تتضوع من فمك الرفيق، وأنفك الدقيق، فهل فيك حديقة من بنفسج؟..»

ـ «أر. جوك.. كفى.. كفى سلوقياتي تنبح، ولا بد أن أذهب!..»

ـ «تبذهب؟ ولمن تترك هـذا الصدر الـدافىء الذي يضمـك؟ حقا أنت غريرا..»

ـ «أرجوك .. قلت لك!»

ـ «كل هذه القبل أغمر بطوفانها فمك، ولا تحييها بقبلة؟.. قبلني!..»

ـ «لا.. لا أقدر.. أرسلي ذراعيك عن عنقي..»

ـ «أنت لا تقدر؟ آه يا ساذج؟.. انني لن أفلتك ما دمت تتباله علي!..»

ـ «أرجوك، دعيني أذهب! أوه..»

ـ «قبلني قلت لـك! لن يقهـر كبـريـائي فتى غـريـر مثلك، اذا قبلتني أرسلتك!..»

ـ أقبلك؟

ـ أجل، قبلني يا أدونيس!

ـ أقبلك كيف؟

ـ هكذا يا صغيري...

ـ ..؟..؟.. دعيني اذن!

* * *

وانتشت ربة الجمال بقبلة أدونيس اليافع، فارتجفت ارتجافة هائلة، وخرت إلى الارض كأنما غشي عليها، وارتبك الفتى الذي لم يألف مثل هذا الموقف النادر من مواقف الحب، فأنف أن يغادر المكان قبل أن يعالج الغادة حتى تصحو، ثم يذهب إلى صيده بعد. ولكنه لم يدر ماذا يفعل، وعلى كل، فقد طفق يدلك قدميها، ويربت على صدرها، ويمر بيديه الناعمتين على خديها وجبينها، فلما لم تفق، أهوى على فمها الحلو يلثمه.. ويرد إليه دينه من القبل!

وكانت فينوس الخبيثة تحس وتصمت.. ولا تأتي بحـركة قـد تطير بهـذه الاحلام السعيدة التي تطيف بها، وتتنزل من السماء الصافية عليها، ألم تكن تضرع إليه من أجل قبلة واحدة؟ فكيف بها تطرد هذه العشرات والعشرات من القبل؟!

ولم تطق فينوس..

ففينوس ربة ولكنها هلوك! لقد طوقت أدونيس بذراعيها ثم أمطرت فمه الخمري، ووجهه العطري، آلافاً من القبل العذاب، والنولات الرطاب(*).

حدثته عن الحب بلسان ينفث السحر، وعينين تتقدان اشتهاء، ولكنه كان يصم أذنيه ويغلق أبواب قلبه. وضمته بحرارة وعنفوان إلى ثدييها، فما زادته إلا شموساً وعناداً..

قالت له: «الا تقبل علي إلا ميتة يا أدونيس؟ أيسرك أن أقضي بحبي اذن؟ ألست أعدل عندك خنزيراً برياً؟ أكلما خلعت عليك شبابي ونضرتي وحبي، ألقيت بها في تراب كبريائك غير آبه لدموعي وتوسلاتي؟ افتح قلبك للحب يا صغيري!!..»

ولكن أدونيس يعبس عبوسة محنقة ويقول لها: «أهذا كله عندك هو الحب؟..»

فتنظر في عينيه الساحرتين نظرة تستشف بها ما في قرارة نفسه وتسأله: «اذن ما هو يا أدونيس؟»

وينفجر الفتى بالحقيقة المرة فيقول لها: «إن كنت تجهلين ما هو، فالحب أجل من هذا وأقدس يا غادة.. إنك قد أسلمت جسمك للشهوة تصهره، وروحك للغلمة تحرقها وتذهب بها شعاعاً.. دعيني أذهب اذن .. دعيني.. سلوقياتي تنبح ولا بد أن أذهب اليها..»

(*) لا نستطيع متابعة الموقف، ولكننا نثبت هنا أسطراً من شكسبير الذي لم نعرف فيه تفحشاً، وفي وصف ما كان بينهما ــ وذلك من قصته الخالدة Venus and Adonais (مجموعة وارك ولوك ص ١٥٢٤)

He will not , Manage her, although he mount her.. erc...
All is imaginary she doth prove,
Her champion mounted for the hot encounter:
Now is she in the very lists of love
He on her belly falls, she on hor back.
She sinketh down, still hanging by his neck,
and on his neck her yoking arms she throws:

والقصة رائعة، وبها أكثر من ثلثمائة بيت في وصف القبل وحدها، ومن لم يقرأها لم يعرف شكسبير القصاص. والنولة القبلة

وكأن ثلجاً ذاب في أعصاب فينوس عندما سمعت أدونيس ينتهرها ويعيرها، فتقلصت ذراعاها، وفترت نفسها، وخمدت في قلبها تلك الشهوة الملحة التس سلطت عليها تعذبها وتضنيها: . واستطاع الفتى بجهد بسيط أن يتخلص من أسرها، فانطلق يعدو كالظليم إلى سلوقياته التي كانت تناوش خنزيراً كبيراً بادي النواجذ، بارز الانياب.

وجلست فينوس تنظر إلى ادونيس يعدو، وتجتر كلماته وتتعذب.

وغفت اغفاءة قصيرة، ولكنها استيقظت فجأة على صرخة راجفة من جهة الشرق، حيث كان فتاها الحبيب يتلهى بالصيد ، فهبت مروعة، لأن الصوت كان بصوت يا للهول!!

أدونيس مضرج بدمه، وعيناه مستسلمتان للموت وسلوقياته تبكي حوله؟! لقد انقضّ عليه الخنزير الضاري فمزق لحم الفخدة، وسرى في الدم سم الكلب!

ووقفت فينوس ذاهلة تنظر إلى حبيبها الصغير، ثم أهوت على فمه تقبله وترشفه وتبكي.. ثم أسندت الرأس الذابل إلى صدرها ، وجعلت تقول:

« ألم يكن حباً حبي يا أدونيس؟! يا للقضاء؟! كنت أعرف هذه النهاية، وكنت أشفق عليك منها، ولذا كنت أتشبث بك، وأحاول أن أنسيك بقلبي ودموعي خنازير هذه البرية، ولكنك قلت إن حبي شهوة وصبابتي غلمة، فجنيت على نفسك وعليّ!! أوه! يا لبرودة الموت؟ أدونيس؟ أدونيس؟ رد علي يا حبيبي ! لقد حسبتني غادة! أنا فينوس أكلمك فرد علي.. آه..»

وألقت به على الكلأ السندسي، وانطلقت تبكي وتنتحب حتى كانت عند عرش الأولمب فقالت تكلم رب الارباب زيوس العظيم:

ـ «أدونيس يا أبي!!»

ـ ماله؟..

ـ قضى.. قتله الخنزير..

ـ ومالك مذعورة هكذا؟..

ـ «مذعورة؟! وحقك إن لم تأمر برده إلى الحياة الدنيا لاذهبن معه إلى هيدز!»

فوقف إله كان يجلس قريباً من السدة وقال: تذهبين إلى هيدز؟! يا للهول!

والجمال والحب؟ أيذهبان في أثرك إلى دار الموتى؟ وهذه الدنيا يا فينوس؟»

ـ «هذه الدنيا تنعي من بناها.. تخرب.. لا زهر.. لا شفق.. لا طير.. لا موسيقى.. لا خمر.. لا حب.. لا حنين.. لا غزل.. لن تكون دنياكم شيئاً إذا ذهبت إلى هيدز مع حبيبي أدونيس!!»

فسجد الإله الذي تكلم أمام زيوس، ثم نهض وقال له:

ـ أنا بلسان الآلهة أضرع إلى مولاي أن يلبي طلبة فينوس ربة الحب..

فتبسم إله خبيث كان بالقرب منه، وغمز إليه وقال:

ـ وربة الجمال يا بن العم!!

وأرسل زيوس العظيم الى أخيه.. بلوتو.. إله هيدز، يرجوه عن أدونيس ويستأذنه فيه، ولكن بلوتو كان أحرص على الجمال من سكان هذه الحياة الدنيا، فأبى أن يلبي رجاء أخيه.. فألح عليه، فلم يقبل..

ثم اتفق الاخوان، زيوس وبلوتو، على أن يجعلا حياة أدونيس مناصفة، فيقضي ستة أشهر في هيدز، أشهر الخريف والشتاء، وستة أشهر في الدنيا، حيث تأخذ زخرفها في الربيع وتؤتي أكلها في الصيف!!

ولما لقيت فينوس حبيبها عائداً أدراجه من دار الفناء قالت له:

«أتستطيع اليوم تعريف الحب؟». فقال أدونيس: «هاتي قبلة يا فينوس.. هاتي قبلة.. هاتي ألف قبلة..»

حب من السماء

كان الراعي الشاب يرسل من نايه أنغاماً تسحر الطبيعة، وتجعلها آذاناً مرهفة تتلفت يمنة ويسرة نحو هذا الجبل الشامخ، الذي جلس أنديميون فوق صخرة كبيرة ناعمة، من صخوره المرمرية البيضاء، وجعل يمر أصابعه الرقيقة اللدنة فوق ثقوب براعه، فتستحيل أنفاسه ألحاناً تملأ السهل والجبل، ثم لا تلبث أن تكون عرائس راقصة ترف في الهواء ثم تنزل منه لتثب نحو المشرق خفيفة رشيقة، تستقبل القمر النحاسي الضاحك، الذي يرتفع قليلاً قليلاً، حتى إذا سامَتَ قمة الأولمب، توقف عن المسير، وحنى جبهته الفضية تحت قدمي ديانا الجميلة الفتانة، فتركبه وتستوي فيه، ثم تأمره فيبدأ رحلته السماوية في عالم الأثير.

وكان الراعي الشاب أسعد الناس بهذا القمر، لأنه كان يملأ فؤاده بهجة ونشوة، ولأنه كان يسكب على ألحانه جمالاً وفتنة، ولأنه كان يلقى في ليله الوارف الساجي حبيبته، وآسرة لبه، لافينيا، عروس الغاب الهيفاء التي كانت تنتظر على أحر من الجمر، حتى يسامت القمر قمة الأولمب، فتنطلق من أجمتها في الغابة، لتلقى حبيبها الساهر المسهد، الذي نام قطيعه في ظلال الدوح، وأرق هو في شعفة الجبل، يتحرق للقاء حبيبته، ويغازل الأحلام ويداعب الأماني... حتى إذا رآها مقبلة نحوه، وهي تتواثب كالقطاة فوق الكلأ، بقدمين صغيرتين ناعمتين، وساقين مستويتين مكورتين، وقد برز صدرها العاجي البض وجعل يعلو ويهبط، مما يضطرب فيه من لوعة ووجيب، وانتثر شعرها الطويل الأسود الفاحم وراء رأسها الصغير المستدير، فتزاحمت نسمات الوادي الضاحك المزهر لتقبل كل شعرة من شعراته... جرى إليها انديميون لهفاناً متشوقاً ليملأ بها ذراعيه، وليطفىء ببرد القبل نار فؤاده الذي يتزي بين جنبيه.

وكانت لافينيا بعد ذلك تطلب إلى حبيبها أنديميون أن يملأ نفسها الظامئة من موسيقاه، فيتناول نايه، ويدنيه من شفتيه السعيدتين، ثم يأخذ في إرسال أنغامه التي تستحيل في سمع لافينيا، وملء دمها أنغاماً وألحاناً.

وفي إحدى الليالي المقمرة، نامت لافينيا بين يدي حبيبها انديميون بعد أن أسكرت روحها موسيقاه، فظل هو يتفرس في وجهها الناعس الحالم مرة، ويقلّب عينيه في الوجود الباسم مرة أخرى، ثم أحسّ بقوة عجيبة لطيفة تجذب روحه إلى فوق، فاتجه بعينيه إلى البدر الكامل الذي كان يسكب ذوب أضوائه فيفضض بها هامات الجبال، وينثر لألأها في حفافي الغدير، فرأى فيه طيفاً يرمقه ويبتسم، ثم يرمقه ويبتسم، ثم يثني الطيف عنان القمر، فيتوارى خلف سحابة رقيقة لم تكن موجودة من قبل. . .

ويظن أنديميون أنه كان يحلم، فيفرك عينيه، ثم ينحني على وجه لافينيا يتأمله، ويقرأ فيه كتاب حبه. . . ثم يرسل أنامله تداعب الشعر الناعم، وتمر كما يمر النسيم بالذقن الدقيق، والخد الرقيق، والجبين الوضاء، فتستيقظ لافينيا. . . وتنظر إلى أنديميون. . . وتبتسم.

ويحدث هذا في الليلة التالية، ثم في الليلة التي تليها، ثم في الليلة التي بعد هاتين. . . وتستيقظ لافينيا، لكنها تجد وجه انديميون هذه المرة منصرفاً عنها، كما تجده ساهماً زائغ العينين. . . فتناديه. . . فلا يلتفت إليها. . . فتقبل عليه لتطوقه بذراعيها، وتطبع على جبينه، ثم خديه، ثم فمه. . . ألف قبلة. . . لكنه لا يستجيب. . . بل يظل ساهماً زائغ العينين. . كأنما يفتش في القمر عن قلب ضائع، أو حب مفقود. . . فتذهل لافينيا. . . ثم تخطو إلى الوراء خطوات. . ثم تناديه. . . لكنه لا يرد عليها، ولا يلتفت إليها. . فتصرخ عروس الغاب صرخة هائلة مُدَوية، وتنثني، فتنهب الأرض نحو الأجمة. . . وهنا فقط، ينتبه أنديميون، ويعلم ما أصاب صاحبته، فيثب كالظبي الملهوف، وينهب الأرض وراءها. . ولكن. . هيهات؟ وأنىً لبشر أن يلاحق هؤلاء الحور العين؟

وتمضي أيام. . . وفي كل ليلة يتأخر ظهور القمر. . . وأنديميون مع ذاك وفي لميعاده. . لكن لافينيا لا تجيء. . وهو مع ذلك ينتظرها. . . إلا أن ميعادها يمضي. . . ثم يمضي. . . وهو جالس فوق الصخرة زائغ العينين، يفتش في القمر عن طيف غير طيف لافينيا. . . لافينيا المسكينة التي تقف كل ليلة مختبئة وراء شجرة كبيرة، لترقب ما يكون من حال أنديميون، وتمني النفس باكتشاف سره، والوقوف على أمره.

وفي تلك الليلة التي يتوارى من القمر ثلثه. . . وبعد أن يمضي ميعاد لافينيا، تأخذ أنديميون سِنَةٌ من الكرى، ثم لا يلبث أن يستغرق في نوم عميق بعد

أن يترك الصخرة إلى ظهر الجبل.

وتنظر عروس الغاب المختبئة وراء الشجرة، فترى القمر يتوقف عن المسير، ثم إذا هو ينمو فيكون بدراً كاملاً، ثم إذا هو يأخذ في الدنو من الأرض رويداً رويداً، وهو في أثناء ذلك يكبر حتى يكاد يخطف أعين الطبيعة سناه، حتى إذا صار من الأرض قيد ذراع، برزت منه ربة كريمة، «قسيمة»، وسيمة، رابية الجسم، شديدة الأسر، في هالة من السحر فلا تجهل لافينيا أنها ديانا مليكة الليل.. وربة هذا الكوكب الفضي... رمز الطهر في السماء، ونصيرة الضعفاء الفضلاء... إنها ديانا العذراء التي رسمها أبوها سيد الأولمب ربة للعفاف، وأوصاها أن تجبر قلوب المحبين والمشغوفين، وتطبب المكلومين منهم والمسهدين المعذبين.

ويكاد فؤاد لافينيا أن يثب من شدة ما انتابها من الفرح... لأنها كانت من المؤمنات بديانا، ولأنها كانت لاتني تصلي لها، وتقرب باسمها القرابين من الزنبق الفضي، ومن السوسن اللؤلي، ومن كل زهرة بيضاء ذات شذى، وذات شميم...

كاد فؤاد لافينيا أن يثب من شدة الفرح، لأنها أيقنت أن ديانا الكريمة قد شهدت ما كان من أمرها وأمر أنديميون، فأقبلت تحكم في هذه القضية، وترد قلب أنديميون إلى صراطه المستقيم.

ولكن... يا للهول؟ ما هذا الذي تشهده لافينيا؟ إنها لا تصدق عينيها؟ إن الربة الكريمة تقترب من الراعي الشاب النائم فتشير بيدها إلى رأسه الساكن، كأنها ترسل إليه رقية حتى لا يستيقظ،... ثم ماذا؟... ثم تقترب منه، بعد ذلك فتنحني بكل جمالها وكل جلالها، فتطبع على جبينه قبلة سريعة خائفة... ثم تعود مسرعة إلى قمرها الواجف المرتجف، فتثب إليه، وتستوي فيه، وتشد إليها عنانه، فيتحرك، ويعلو في الفضاء، ويأخذ في رحلته.. كأن لم يكن شيء..

«ديانا تقبّل أنديميون؟ ديانا ربة الطهر والعفاف؟... ديانا العذراء؟ أتراها تحبه؟... أهي التي سرقت قلبه مني إذن؟ ألهذا كان يحملق في القمر بعينيه الزائغتين؟ ألهذا فتر حبه، وانصرف إلى غرام جديد؟ أيجوز هذا البغي في شرعة السماء؟ إلى من أشكو بث نفسي، وأحزان قلبي إذن؟. أأناصِبُ ربة الطهر العداء؟ وأين أهرب منها إذا أرادتني بشر؟...

وعادت عروس الغاب المسكينة إلى مأواها في وسط الغابة وهي تضطرب وتنتفض، وجلست في صميم الليل الفضي تبكي وتنتحب...

وأصبح الصبح فأيقنت لافينيا أنها كانت تحلم، وأن ما شهدته أمس كان كابوساً مزعجاً... لأنه لا يعقل أن تعشق ديانا.. وإن جاز أن تعشق فلا يعقل أن يشغفها أحد من بني الموتى.. وإن كان أنديميون وهل يعقل أن تحب ديانا راعياً؟ وأين الملوك الصيد إذن، إن لم تجد لها حبيباً بين شباب الآلهة؟ على أن عشق ديانا غير معقول ولا مقبول، ولا يجوز في ذهن أحد، إلا إنْ كان ذهن مجنون أو مأفون... لأن ديانا هي ربة العفاف العذراء، ثم هي الربة الوحيدة التي لم يستطع كيوبيد أن يسدد إلى قلبها سهامه الذهبية. ليغزو قلبها الحب، بالرغم مما بينها وبين فينوس، أم كيوبيد، من خصومة وعداء.

وهكذا ظلت عروس الغاب تلتمس الأعذار لديانا مرة، ولانديميون مرة أخرى.. ولنفسها كذلك، حتى كان الليل، وحتى أشرق القمر وحتى سامت ذروة الأولمب، فذهبت لميعادها، ووقفت خلف الشجرة تتربص وترتقب...

يا عجباً... لقد رأت انديميون الحبيب يترك الصخرة المقدسة فجأة.. ثم يستلقي على ظهر الجبل، ثم يستسلم لنوم مفاجىء عجيب.. ثم يقف القمر... ثم يدنو من الأرض رويداً رويداً.. ثم يتكرر كل شيء.. إلا أن ديانا الخائنة لا تقبل الراعي هذه المرة فوق جبينه.. بل تطبعها قبلة طويلة هائلة.. فوق.. شفتيه.. ثم تعود مسرعة إلى مركبها الفضي... ليسبح بها في الفضاء، وليصل رحلته من جديد؟

وترتجف لافينيا، فتخرّ مغشياً عليها، ثم تجد نفسها في أجمتها في اليوم التالي، وحولها سرب من عرائس الغاب وجدنها قبيل الشروق في ظل الشجرة فحملنها إلى هناك، وقمن عليها، وعنين بها.. حتى أفاقت... فلما سألنها عما أصابها... لم تجب بشيء.. إلا بدموع غزيرة كانت تسفحها وهي ساكتة صامتة...

وبالرغم مما أصابها من هول الصدمة، فقد ذهبت لميعادها... الذي أصبح ميعاد الحبيبين الآخرين.. ولم يعد لها منه إلا الذكرى المؤلمة، والهم العظيم المقيم...

وشهدت ما شهدته من قبل، وتجلدت، فلم يغش عليها... ولكن الذي خلع قلبها، وزلزل كيانها، أن ينام أنديميون في الليلة السابعة، فتأتي ديانا فتلقي عليه الرقية، ثم لا تنحني لتقبله، بل تنحني لتحمله في ذراعيها الجبارتين، وتمضي به مسرعة حثيثة إلى قمرها الواجف المرتجف المرتقب.. حتى إذا وثبت بحملها إليه، واستوت فيه، شدت عنانه، فاسرى بها، ولكن لا ليصل رحلته، بل ليعود أدراجه

إلى الأولمب. .

ولا تحتمل لافينيا. . . لأنها تحس كأنما الجبل يميد بها، فتخر مغشياً عليها. . وتظل ثمة إلى الصبح، حيث يلقاها أترابها عرائس الغاب، فلا ينقلنها إلى مأمنها، بل يعالجنها بشيء من الماء والطيب حتى تفيق، ويلححن عليها لتبوح لهن بسرها، فلا تذكر لهن من ذلك شيئاً. . .

وترتفع الشمس. . . وترى عروس مقبلة من ناحية الأولمب، فيهتفن بها، فتدنو منهن، وهي تفتر عن ابتسامة عريضة ثم تقول: ألم تعلمن يا عرائس؟ لقد سمعت الآن أن ديانا قد عشقت راعياً من بني الموتى اسمه انديميون، وأنها قد سرقته هذه الليلة، وذهبت به إلى أبيها سيد الآلهة، وجعلت تبكي بين يديه وتنتحب، وتلحف عليه في الرجاء كي يمنح حبيبها الخلود، ففعل. . . ولقد عرفت بعد ذلك أنه هو بنفسه هذا الراعي الذي كان ييمم بقطعانه هذه المروج الخضراء. . . والذي كانت اختنا. . . . . .

وقبل أن تتم العروس كلامها. . . نظرت شطر لافينيا. . . ولكن لافينيا كانت قد سبقت حديث العروس. . . لقد أسلمت الروح. . ولعلها آثرت أن تصعد إلى السماء لتشكو ديانا إلى أبيها سيد الأولمب. .

القبلة

التي أنقذت العالم من الطوفان

كانت الدنيا جميلة.. وكانت ربيعاً دائماً.. وكانت خيرات الأرض تغني الانسان عن الكدح، ولهذا لم يعرف الناس التحاسد ولا التباغض.. بل كانوا اخواناً متحابين طوال هذا العصر الذهبي للحياة الناعمة الأولى...

ثم كان العصر الفضي الذي اضطر الناس فيه إلى العمل حين كثروا.. ولكنهم مع ذلك لم يعرفوا التحاسد ولا التباغض، لأن خيرات الأرض كانت لا تزال كثيرة، وكان الناس يحصلون عليها بأيسر جهد.

ثم كان العصر النحاسي، الذي أخذت طبائع الناس فيه تفسد، ونفوسهم تمتلىء بالأحقاد.. لأنهم كثروا تلك الكثرة التي أكرهتهم على تنازع البقاء، فأصبحوا يقتتلون على أرزاق الأرض، يدخرونها ويحرصون عليها، ولا ينفقونها في سبيل الآلهة ورضوان السماء.

فلما كان العصر الحديدي، غلب الشر على نفوسهم جميعاً، وأذلهم الطمع، ولم يبالِ بعضهم أن يسفك دماء بعض، وانقسموا إلى سادة وعبيد، وطغى الفساد على هؤلاء وهؤلاء، فنسوا الآلهة، وأهملوا المعابد، وبخلوا بتقديم القرابين، فغضبت السماء، وعبس زيوس سيد الأولمب، وقطب جبينه، فاكتأبت الدنيا، وأظلم وجه الأرض، وأقفرت المروج الخضر، ويبست الحدائق، وأرهف العالم آذانه إلى تلك الضجة التي أخذت تجلجل في دولة الأولمب، حيث دعا الإله الأكبر أعوانه من الآلهة، وجميع من دونه من سائر الأرباب ليشاورهم في أمر هؤلاء البشر الذين كفروا بأنعمه، وأنكروا شرائعه، ولم يبالوا بأسه، فاتفقت كلمتهم على أن البشر آثمون، وعلى أنهم يستحقون أن يسحقهم الإله الأكبر وأن يبدد شملهم، وأن يبيدهم من سطح الأرض.. إلا أنهم اختلفوا في الطريقة التي تكفل ألا تبقى منهم باقية.. فمنهم من أشار بتحريق الأرض جميعاً، ومنهم من أشار بتسليط الصواعق

على الناس فلا تذر منهم على الأرض دياراً. . وكاد الإله الأكبر يفعل ذلك لولا أن أنذره إله صغير. . أو ربة حكيمة، لعلها مينرفا، بأنه إن فعل فلا بد أن يحترق الأولمب نفسه. . لأنه في قمة جبل من جبال الأرض فأشفق زيوس، وسأل الآلهة أن يدلوه على طريقة أخرى يبيد بها الناس. . . فأشار أحدهم بالطوفان! . . .

ورضي الإله الأكبر، وأمر الآلهة بأن يساهم كل منهم في إغراق الأرض، فوعد نبتيون، رب البحار السبعة، بأن يصنع مداً لا يدع منها شبراً إلا غمره بماء دافق، ووعدت أرباب الأنهار بمثل ذلك، وأقسمت أرباب الرياح بألا تدع سحابة في السموات إلا أخرجت من بينها الودق فتكون ماء ثجاجاً.

وبدأ الطوفان. . وروع الناس. . وفزعت البهائم. . ووجم الطير، والتمست المخلوقات شعاف الجبال تعتصم بها من السيل الرابي. . . ولكن الموت مع ذاك أخذ ينتشر، وأخذت أنفاس الخلائق تتقطع، ثم تهمد، وتخمد، لأن الجبال التي كانوا يحسبونها تعصمهم من الماء نامت كلها تحت الطوفان، خاضعة مستسلمة كأنها صغار الحصى.

ولم يبق من الدنيا كلها إلا قمة جبل مجللة بالثلج. . هي قمة جبل بارناس. . . كانت تبرز فوق الموج المتلاطم، تنظر في حزن عميق إلى مصير الانسانية. . بل إلى مصير الخلائق كلها. .

وكان زورق صغير يتهادى فوق اليم. . وقد جلس فيه حبيبان يتناجيان، ويرثيان لما حل بالدنيا الجميلة من دمار.

وكان الفتى اليافع ينظر بعينيه العميقتين في دنيا الماء مرة، وفي عيني حبيبته مرة أخرى. . ثم يتمتم باسم الحبيبة قائلاً: «بيرها! أين نمضي؟ وماذا يكون مصيرنا؟». . فتهتف الفتاة اليافعة باسمه، ثم تقول: «ديوكالين! لماذا تيأس؟ أليس سيد الأولمب معنا؟ ما معنى أن يغرق الناس ونبقى نحن؟ ألم نكن تقيين نصلي للآلهة ونقرب لها القرابين؟ ألم نكن نعطف على الفقراء، ونرثي للضعفاء، ونغيث الملهوفين؟ لقد هلكت الخلائق، وبقينا نحن. . نحن فقط. . فما معنى هذا؟ وما معنى أن يغمر الطوفان جميع الجبال، ولا تبقى إلا هذه القمة التي يجللها الثلج؟ اطمئن يا حبيبي فالسماء معنا. . اطمئن. .»

ولم يملك ديوكالين الحبيب إلا أن يمد يده يتناول بها يد بيرها. . وإلا أن ينظر من جديد في عينيها الخضراوين الزبرجديتين يبحث فيهما بحثاً شديداً متواصلاً. . فإذا سألته عن ذلك أجابها: «إنني إنما أبحث عن نفسي يا حياتي. . ولست أخشى

هذا الطوفان من أجلي.. بل لست أخشى منه إلا عليك.. بل لست أخشى إلا أن يفصل بيننا، ولهذا.. فلن أدع يدك هذه تفلت من يدي.. يدك الجميلة الحلوة الدافئة».

ثم أوشك أن يهوي على اليد الجميلة يلثمها، إلا أن الفتاة أبت إلا أن تتلقى القبلة الثمينة الخالدة في مكانها الخالد المقدس، فطبعها الحبيب المضطرب، الذي كانت الدموع تنهمر من جميع مقلتيه، في قرمز الشفتين المرتعشتين.

وكانت الآلهة كلها تنظر من عرش الأولمب، وإن حسب الحبيبان أن أحداً، غير الطوفان وغير قمة جبل البارناس، لم يكن ينظر إليهما.. وكان أعظم الآلهة تقديراً لهذه القبلة الثمينة الخالدة، هو سيد الأولمب نفسه.. زيوس، رب السماء.. فلقد هزت كيانه، وزلزلت أركانه، فنظر إلى ملأ الأرباب من حوله وطفق يقول: «كلا.. ينبغي ألا يبيد البشر.. يجب أن يبقى هذان على الأقل، لتكون منهما ذرية صالحة» وتساءل الآلهة في دهشة: «ذرية صالحة» فقال سيد الأولمب: «ولِمَ لا؟ ألم تسمعوا حديثهما قبل تلك القبلة؟ ألم يكونا مؤمنين بنا؟ ألم يكونا يعطفان على الفقير، ويرثيان للضعيف، ويغيثان الملهوف؟» ثم سكت الإله الأكبر لحظة، وهتف بشقيقه نبتيون، رب البحار السبعة، فطلب إليه أن ينفخ في صدفته ليغيض الماء، ويعود أدراجه إلى البحار والأنهار، ففعل.. ولم تمض ساعات حتى بدت الجبال، وظهرت الأرض.

وكان ديوكالين وبيرها، قد نزلا في قمة جبل البارناس، وأخذا يجولان فيها جولة، فلما عادا، لم يجدا زورقهما.. لكنهما لم يجدا الطوفان كذلك.. ففرحا، وزادهما فرحاً أنهما وجدا إلهاً كريماً ينتظرهما، ليهديهما سبيلهما إلى سفح الجبل، وليقول لهما إن آلهة الأولمب أجمعين راضون عنهما، وأنهما ينبغي أن يتزوجا من فورهما.. لتكون لهما ذرية صالحة تعمر بها الأرض.. غير أن الإله الكريم الذي كان يكلمهما، ذكر لهما شيئاً غريباً لم يفهماه، ولم يعرفا كنهه.. فقد قال لهما أن تلك الذرية لن تأتي من صلبهما... فكيف؟ وكيف تكون لهما ذرية إذن؟ وكيف تعمر الأرض بتلك الذرية؟

ولم يملكا إلا أن يشكرا الإله الكريم الذي باركهما.. وأشار الإله إلى الأرض من حولهما فأنبتت لهما روضة غناء، فيها من كل فاكهة زوجان... ثم ودعهما.. ورف بجناحيه في السماء.. فتفتحت له أبواباً..

وتزوج الحبيبان السعيدان.. ومضت السنون الطوال.. لكنهما لم ينجبا...

ولم تكن لهما ذرية. . . بالرغم مما كانا يصليان ويقربان القرابين، وبالرغم مما كانا يضرعان إلى الآلهة أن ترزقهما الخلف الصالح. . .

وتذكرا ما قاله الإله الكريم لهما يوم أن غاض الطوفان، فانطلقا من فورهما إلى معبد دلفي، معبد أبوللو رب النبوءات فصليا صلاة طويلة خاشعة، ثم قربا القرابين من الفاكهة والخمر، ثم سألا عن تلك الذرية التي لا تأتي من صلبهما كيف تكون، فسمعا صوت أبوللو نفسه يقول: «انطلقا من هنا في الحال، وليجعل كل منكما على وجهه خماراً، ولتنثرا من خلفكما عظام أمكما، تكن لكما ذرية كثيرة صالحة!» ثم سكت أبوللو. . فسجد الزوجان البائسان، ونهضا، وانطلقا في حال سبيلهما، وهما لا يفهمان مما قاله أبوللو حرفاً واحداً.

ينثران عظام أمهما؟. . كيف هذا؟ أيذهبان إلى قبور الآباء فينبشانها، وينثران منها العظام المقدسة؟ ويقعان بذلك في شر الآثام التي تنهي عنها الآلهة، بعد تلك الحياة الطويلة الصالحة؟

وجلسا يفكران. . . ثم انتهى ديوكالين إلى أن نبوءة الإله أبوللو لا يمكن إلا أن تكون نبوءة مجازية. . فالآلهة لا يمكن أن تنهى عن شيء، ثم تأمر به في وقت واحد. . وتأمر به عبادها الصالحين الطيبين. . وعلى هذا، فلا بد أن يكون للنبوءة معنى باطن، غير منطوقها الظاهر، فما هو يا ترى؟

تقول النبوءة: «انطلقا من هنا في الحال، وليجعل كل منكما على وجهه خماراً، ولتنثرا من خلفكما عظام أمكما، تكن لكما ذرية كثيرة صالحة!».

وجعل ديوكالين يردد النبوءة في نفسه، ثم هداه تفكيره إلى أن الأم هنا ليست هذه الأم البشرية التي حملته وهناً على وهن. . بل لا بد أن تكون أم جميع البشر. . بل جميع الخلائق. . أي هذه الأرض التي خلق من أديمها كل شيء. . وإذا صح هذا التفسير فلن تكون عظامها إلا هذه الحجارة المتناثرة في أرجائها ذات اليمين وذات الشمال. . .

ونهض ديوكالين، فجعل على وجهه لثاماً، ثم تناول حجراً فألقاه من خلفه، ثم نظر وراءه، فماذا رأى؟. . لقد صح تأويله إذن. . فها هو ذا شاب عجيب جميل الخلق، حلو اللفتات، وقف ازاءه وهو يناديه: السلام عليك يا أبي!. . .

ورد ديوكالين السلام، ثم هتف بزوجته والفرح يفعم قلبه، فأقبلت بيرها، ونظرت إلى الشاب وهي تنكره، إلا انه تقدم منها خطوتين، وتبسم قائلاً: السلام عليك يا والدتي، السلام عليك!

وشعرت بيرها بكل ما يستطيع قلب الأم أن يكنه من محبة لولدها، وهي ترد على الشاب العجيب سلامه.

ثم طلب ديوكالين إلى زوجته أن تجعل على وجهها لثاماً مثله، وأن تتناول حجراً فتلقيه وراءها.. فلما فعلت، ونظرت خلفها، رأت فتاة جميلة المنظر، ريانة الاهاب، واقفة حيث سقط الحجر، وهي تبتسم وتقول: أماه! مرحباً بك يا أماه! أبي! أبي ديوكالين.. أهلاً بك وسهلاً!

وفرح الزوجان السعيدان بابنهما وابنتهما، وغمرتهما سعادة ليس مثلها سعادة، واكتفيا ذلك اليوم بهما..

وفي غد.. كان لهما عشرة ابناء وعشر بنات...

ثم استبد بهما الطمع.. فوقعا في الغلطة القديمة الأزلية.. إذ لم يمض شهر واحد وشهر واحد فحسب، حتى كان لهما جيش جرار من البنات والبنين...

ومضى العصر الذهبي في سرعة البرق...

ثم تلاه العصر الفضي... والعصر النحاسي... ولم يموتا قبل أن يشهدا العصر الحديدي... بحلوه ومره.

وجلس سيد الأولمب يفكر مرة أخرى في طوفان جديد، فأية قبلة يا ترى تدفع عن البشرية هذا الشر الجديد؟

الجوع

كن يجتمعن كل ليلة، فيتحلقن حلقة رائعة، أشبه بضفيرة الآس الأبيض الغض، ليرقصن حول تلك الدوحة الباسقة التي كانت تسكنها عروس منهن، عزيزة عليهن، من عرائس الدراياد. . . تلك العرائس الرشيقة الأنيقة الروحانية، التي كانت كل منهن تولد مع مولد الشجرة، ثم تتخذ منها بعد ذلك مستقرها ومستودعها، حتى يحين حينها بقطع الشجرة نفسها، واجتثاثها من الأرض، ولهذا كان قطع الأشجار من أكبر الكبائر التي تنهى عنها السماء، وتوقع بمرتكبها أشد البلاء.

وكانت دوحة هذه العروس أعظم أشجار الغابة وأعلاها. . بل كانت لعظمها وامتداد أغصانها، غابة كبيرة قائمة بنفسها، يراها القادم إليها على مسيرة أيام طويلة، وكانت مع ذاك حالية الأفنان بالأزهار البيض ذات الشذى، فلا تنفك تتأرج، وتملأ الدنيا بحلو عبقها.

وكانت عرائس الدراياد يؤثرن الاجتماع حول شجرة أختهن الحبيبة، ولا سيما في الليالي المقمرة، وكن يبدأن رقصهن بصلاة قصيرة خاشعة، يضرعن فيها إلى ديميتير، ربة الزروع ومعلمة الحضارة، وراعية العرائس، أن تحميهن من كل ضر، وأن تدفع عنهن عوادي الحدثان، وأن تشيع في أشجارهن النضارة والغضارة. . ثم يبدأن في الرقص، فيوقعن بأصابع أقدامهن الجميلة على الكلأ الرطب، ويثنين بقدودهن الممشوقة في الهواء السعيد، فيهتز الكون، وتنتشي الدنيا، وتغني الطبيعة، ويسكر القمر، ويود الشجر لو اجتثّ من جذوره، ليشارك في الرقص مع هذه الاطياف اللطاف!

وكان جذع الشجرة عالياً سامقاً، فلم تكن الأغصان والأفنان تمنع من ذوب البدر الساطع قليلاً ولا كثيراً، في باحة الرقص، اللهم إلا ظل الجذع نفسه من الناحية المضادة، وحدث أن أطلت ديانا مرة من مركبة الليل الفضية — التي هي القمر — فلاحظت أن هذا الظل القليل يحجب شيئاً من جمال المنظر، فأشارت إليه،

فتلاشى، وصار ما حول الجذع مقمراً كله. . ولاحظ العرائس ذلك فعرفن أن ربة كريمة هي صاحبة المعجزة، فسجدن من فورهن، فاستحيت ديانا، وباركتهن، ثم ذهبت تقطع أجواز السماء.

وكان الناس يتناقلون أخبار تلك الشجرة فتهتز قلوبهم، ويقبلون مع الفجر يلتمسون بركاتها، وكان الصالحون منهم يسمعون صوت عروسها صادراً من أعماق الشجرة، فلا يملكون إلا أن يسجدوا، فتقول لهم العروس، وهم لا يرونها: «بل اسجدوا لديميتير. . اسجدوا لربة الزروع ومعلمة الحضـارة. . اسجدوا لـراعية العرائس واعبدوا» فتتعالى أصواتهم: «تباركت يا ديميتيرا!!».

وكانوا يروون عنها العجائب. . فيقولون إنها كانت تدل الضالين في الغابة وتهديهم سواء السبيل، فإذا كانوا يضربون فيها هجيراً واشتد بهم الظمأ، ولم يجدوا ماء، ألقت إليهم بفاكهة عجيبة مكورة، إذا شقت نزّ منها سكر بارد كريم، فيكون طعاماً وشراباً، وشفاء من كل داء، وراحة من كل نصب.

ويقولون إن هذه الفاكهة كانت تشفي من العقم خاصة، كما كان العذارى يدهن بسكرها، فمن كان بها عيب من خلق أو نحوه، زال عنها، واكتست مكانه جمالاً وإشراقاً.

* * *

وكانت ملكية الغابة قد آلت إلى رجل ضال النفس، جاحد القلب، كافر الروح، ملحد لا يؤمن بالآلهة، فاسق لا يوقر أبناء الأولمب ولا يحفل بما يعتقده الناس فيها، متحرر الفكر مما يسميه الخرافات الدينية، وأساطير الأقدمين، فهو يعلل الظواهر الطبيعية بعلل مادية لا تعترف بما وراءها من سلطات السماء العليا، فإذا جادله العارفون في الروح زعم أنها نتيجة تفاعلات مادية تحدث وفقاً للقوانين التي تسيطر على العالم، فهو يجري فيها، ولا يمكن أن يحيد عنها، فإذا جادلوه في الجمال قال إنه شيء نسبي يختلف عندنا، كما يختلف عند الثعابين والسلاحف والتماسيح وكل الأحياء، وهو من أدوات الجاذبية، أحد تلك القوانين التي تهيمن على العالم، فإذا سألوه عمن خلق هذه القوانين زعم أنها قديمة أزلية. . وهو القول الذي ينتهي إليه عجز الفلاسفة دائماً. .

وكان الناس ينقمون منه تلك الروح، ويعيبون عليه هذا الجموح، وكان هو يهزأ بهم، ويسخر منهم، ويتعمد إيذاء مشاعرهم، فإذا مر بتمثال لأحد آلهتهم لم يبالِ أن يغمزه بإشارة، أو يلمزه بعبارة، إيغالاً في السخرية بقومه، وغلواً في

استفزازهم، ولم يكن يدع لهذا الاستفزاز وسيلة إلا فعلها في أبشع صورها، فقد اعتزم يوماً أن يجتث تلك الدوحة المباركة التي كان قومه يقدسونها، والتي كانت عرائس الدراياد يجتمعن حولها للصلاة والرقص في ضوء القمر، فأمر بعض عماله بإعداد الفؤوس والبلط والمناشير التي لا بد منها لارتكاب هذه الجريمة التي ينهى عنها الشرع، وتحذر منها السماء.

ولم يكن العمال الصالحون يعلمون أنه إنما أمرهم باعداد هذه الآلات لقطع الشجرة المباركة.. ولذلك فزعوا، واقشعرت أبدانهم، حينما طلب إليهم البدء بالعمل، فقد تقاعسوا جميعاً، ونظر بعضهم إلى بعض، فلما ألح عليهم، وكرر أمره لهم بقطع الشجرة، بكوا، وذكروه بشريعة السماء التي تنهي عن قطع الأشجار، ولا سيما الأشجار المقدسة التي تسكنها عرائس الدراياد.

وضحك ابرزتون، وسب السماء، وسب عرائس الدراياد، فلما خوفوه بديميتير، سبها هي الأخرى، ثم توعدهم، إن هم لم ينفذوا أوامره أن يلهب أجسامهم بسوطه حتى يمزق جلودهم.. ولم يبالِ أكثر العمال ما توعدهم به، فانهال عليهم يضربهم، حتى انبثق الدم من أبدانهم، لكنهم صبروا بالرغم من ذلك، إلا عدداً قليلاً منهم، اضطروا أن يصدعوا بأمر سيدهم القاسي المتحجر القلب، انقاذاً لأنفسهم.

وكان ابرزتون نفسه هو أول ما تناول معولاً وضرب به لحاء الشجرة الذي لم يكد ينقطع حتى تفجر منه دم أحمر قانٍ، وحتى أخذ صوت رقيق متوجع يتردد من مكان ما في الشجرة وهو يقول:

«ابرزتون! حسبك هذا الدم دليلاً على المنكر الذي لا تبالي أن تأتيه! إن كنت لا تخشى الناس فاخش سيد الأولمب أن يقذفك بصاعقة من السماء، أو أن يشق الأرض تحت قدميك فتبتلعك، أو أن يسلط عليك جارحاً ينوشك ويمزق جلدك كما مزقت لحائي».

ويعود ابرزتون إلى ضحكه، ويبالغ في سخريته فيقول: «تهددينني بسيد الأولمب فإن سمعك فليحضر لإنقاذك.. ولماذا تذكرين سيد الأولمب وتنسين ديميتير التي تزعمين ويزعم أترابك ويزعم الناس أنها راعية الدراياد جميعاً، فلماذا لا تستغيثين بها من هذا الهلاك الذي يحل بك؟»

فتئن العروس، ولا تنقطع شآبيب الدم، ولا يمتنع ابرزتون الملحد عن إعمال معوله، ويعود الصوت المتوجع الباكي يقول: «أنا لم أنسَ ديميتير لأنها قريبة تسمع

وترى، وأنا أعوذ بها منك، وأستعينها عليك، وسيصيبك منها عذاب يرديك».

ولم يزد ابرزتون على أن أشار إلى تلك الفئة القليلة من العمال التي آثرت السلامة، فأقبلوا بفؤوسهم على الشجرة يعملونها في الجذع الكبير، وبسائر الآتهم يداولونها عليه حتى سكت صوت العروس بعد طول الأنين، فعرفوا أنها ماتت، وأن الشجرة توشك أن تسقط فعزموا على الفرار حتى لا تسقط عليهم فتهلكهم.. ولكن.. هيهات! لقد رأوا أنهم مسمرون في أماكنهم لا يستطيعون أن يبرحوها حتى وقعت الشجرة فأتت عليهم.. وإن لم تمس الجاحد ابرزتون بأذى!

وقهقه الخبيث وأخذ يقول: «عجباً لكم أيها اللئام لماذا لم تنجدكم آلهتكم التي كنتم لها عابدون، وبها مؤمنون؟»

لكنه لم ينعم بسخريته طويلاً.. فقد انشق الهواء من حوله عن نور كريم يبهر الأعين ثم أخذ صوت إلهي يقول له: «على رسلك يا سيد ابرزتون، فسيأتيك عذاب يضنيك، ويحل عليك غضب يرديك... فلا تعجل، ما دمت قد أتيت هذا العمل!».

وسكت الصوت.. ثم نظر ابرزتون حوله فلم يجد شيئاً.. فلم يبالِ أن يضحك ساخراً مستهزئاً من جديد.. لكنه لم يكد يفعل حتى شعر ببرد شديد يشيع في جسمه، وتقلصات مؤلمة تصيب عضلاته بأوجاع مبرحة.. ثم إذا هو يسقط في مكانه كما يسقط المشلول الذي لا يستطيع أن يأتي بحركة، إلا هذه التخلجات التي تعتري بعض أعضائه، فتعلو وتهبط، دون أن يكون لارادته شأن فيها...

وينتظر ابرزتون، ليرى ماذا يأول إليه أمره، لكنه يعتقد آخر الأمر أن نذير ديميتير يتحقق، وأن ساعة حسابه قد دنت، فإذا اشتد عليه عذابه، لم ير بأساً في أن ينهنه من كبريائه، ويخفض من خيلائه، فيرجو بعض المارة أن ينجدوه.. ويكون فيهم بعض أولئك العمال الذين رفضوا أن يشاركوه في قطع الشجرة، فيتقدمون لمساعدته.. ولكن الصوت العجيب المقدس يرتفع فجأة، وهم لا يعرفون من أين يجيء، فيقول: «أجل.. عاونوه حتى يعود إلى داره.. وليجد هناك ما ينتظره...»

* * *

ويصل الرجل البائس إلى داره.. ولا يكاد يمس جسمه أرضها حتى يشعر كأنه سليم معافى وأن شيئاً من الألم أو الضعف أو المرض لم يعتره منذ لحظات.. ويجرب نفسه فيحرك أطرافه فتتحرك في قوة وبأس.. ثم يجرب الوقوف فيثب في

خفة الغزال.. وهنا.. يقهقه فجأة، ويضحك ملء شدقيه، ويقول: «إذن.. فهو الوهم.. لقد كان وهماً ما كنت أحسب أنني أعانيه من ضعف واعياء.. وعلى هذا.. فأنا على حق.. وليس هناك إله ولا آلهة..».

ولم يكد يهرف بهذه العبارة الأخيرة حتى رنت في الهواء ضحكة عالية مستهزئة ختمت بهذه العبارة: «بل هناك آلهة أيها الانسان الضعيف... وسترى».

وحملق ابرزتون قليلاً، ثم نظر حوله، ثم مد أصابعه عند أذنيه كأنه ينثر الكلمات المقدسة من حولها.. لكنه رأى في ظلام البعد أشباحاً يمتلىء بها الهواء، فعاد يحملق فيها من جديد، فتبين أطيافاً نورانية لأكثر من مائة عروس من عرائس الدراياد يتشحن جميعاً بالسواد، وقد رفرفت فوقهن ديميتير ربة الزروع.

إذن لقد ذهب العرائس مذعورات إلى راعيتهن يبكين أختهن صاحبة الدوحة المباركة، ويستغثن بديميتير، ويستنزلن غضبها على ابرزتون، فاستجابت لهن، وأقبلت فيهن لتشهدهن الذي تصنع بعدو نفسه، وعدو الآلهة...

وقد صدقت ديميتير.. فها هو ذا الرجل الجاحد يلقى جزاءه.. وها هو ذا انتقام السماء يسخر منه ويستهزىء بفلسفته، ويشهده عاقبة قسوته وغلظة كبده.

ثم أغمض ابرزتون عينيه حتى لا يرى تلك الأشباح المحزونة، لكنه لم يكد يفعل حتى أحس بدفء العافية يدب في جسمه مرة أخرى.. بيد أنه أحس مع هذا الدفء جوعاً شديداً يمزق معدته، ويهرأ أحشائه، فلم يستحي أن يطلب إلى الواقفين حوله شيئاً من طعام، فلما جاؤوه به التهمه كما تلتهم أفراس الماء علفها.. وطلب المزيد.. فقد خيل إليه أن شيئاً من هذا الطعام لم يستقر في جوفه.. فلما جاؤوه بطعام آخر ازدرده في سرعة ونهم ثم طلب المزيد كذلك، فجاؤوه بما تبقى في داره من أبيض وأسود، وطري ومقدد، فكان يلتقم كل ما يقدم إليه كما يلتقم الحوت صغار السمك.. وكباره.

وقد شده الواقفون مما رأوا من نهم هذا المستكبر الصلف قبل ساعات، وعجبوا أين يمضي هذا الطعام كله، ولم يعرفوا كيف يسدون جوعه المخرب، ولم يملك بعضهم إلا أن يذهب إلى داره ليأتيه بمزيد من الطعام يقدمه إليه صدقة لا يستحقها.. فلما رأوا أن جوعه لا يشبع، انصرفوا عنه يائسين.. وهم يرثون له مع ذاك.. ناسين ما صنعه بهم، وما سامهم من الخسف وسوء العذاب.

واستبد بالرجل جوعه حتى أيقن آخر الأمر، وأيقن الناس أنه عذاب سلطته

عليه الآلهة، لتذل نفسه الطاغية.. وأي ذل أفتك من هذا الذل الذي يجعل الانسان عبداً لمعدته التي لا يكفيها طعام ولا يلهيها شراب؟

ومضت الايام كان ابرزتون مشغولاً فيها عن كل شيء إلا عن معدته.. لقد كان يخيل إليه أنه يسمعها تصرخ وتئن طالبة إليه أن يشبعها، وإلا عذبته بالجوع، هذا العذاب الشديد، الذي لا تنفك تريه من غرامه ألواناً.

يا للسماء ماذا صنعت ديميتير؟ إنها ربة الزروع ومصدر الخيرات ومعلمة الحضارة ولم تعرف الآلهة ولم يعرف الناس أنها كانت مصدراً للشر قط، ولا يمكن ان تأتي مثل هذا التنكيل أبداً.. فيا للسماء ماذا صنعت؟

لقد أتاحت للرجل فرصة الرجوع والانابة، لكنه آثر الضلالة على الهدى حينما زال عنه ما ألم به من سقم، فصور له عماه أن ما أصابه كان وهماً.. فأخذته العزة بالإثم، ومد لنفسه في حبل الغرور.. ولهذا صممت ديميتير أن ينال جزاءه على ما أتى من منكر، فاستدعت إليها عروساً من عرائس الأورياد، أولئك العذارى الموكلات بالكهوف والأودية وسلاسل الجبال. فحملتها رسالة إلى برية سكوذيا الموحشة ذات الجبال المجللة بالثلوج، والبطاح القاحلة التي لم تعرف الخضرة ولا الخصب، حيث تأوي ربات الزمهرير والرعدة والجوع، ثم أمرتها أن تقصد إلى الربة الأخيرة، فامن، ربة المجاعات، وهي تسكن في أعلى قمم القوقاز، فتطلب إليها بلسان ديميتير أن تقدم لتحل في دم هذا الجاحد الملحد ابرزتون، وألا تبرحه حتى يبرح هو هذه الدنيا.. على ألا تمس أحداً غيره بأذى...

ولكي تصل العروس إلى سكوذيا في غمضة عين، قدمت إليها ديميتير عربتها السحرية التي تجرها في الهواء افعوانات هائلة، تمرق فيه كما يمرق البرق.

وانطلقت عروس الأورياد، ولقيت فامن المخيفة في البرية القاحلة تقتلع جذور الاشجار القديمة بأنيابها الزرق، وقد تغبّر وجهها بالتراب، وجحظت عيناها وبرزت عظامها واستطالت أظافرها، وتغضن جلدها، فريع فؤاد العروس الاوريادية، ووقفت عن كثب، ثم أنهت إلى ربة الجوع رسالة ديميتير، فتبسمت بوجه قبيح أفظع من جمجمة ميت، وقهقهت بصوت محشرج يلقي الرعب في فؤاد جهنم...

وعادت العروس بسرعة البرق، وقد أحست هي الأخرى جوعاً شديداً لمجرد رؤياها ربّة الجوع.. أما فامن.. فقد انطلقت في الهواء حتى أتت نساليا، وحتى كانت في منزل ابرزتون، الذي كان في تلك اللحظة قد ألمت به تلك الاغماءة،

فاستخفت عن أعين الموجودين، ثم أخذته في حضنها، وملء جناحيها، ونفثت سمها في دمه، فأحس على الفور بالجوع البارد يدب في أحشائه وهو لما يزل مغشياً عليه، فحرك فكيه كالذي يأكل.. وما كان يأكل إلا الهواء...

ولما استيقظ جعل يصرخ من حوله من أجل الطعام على ما شهدنا...

واضطر الرجل البائس تحت ضغط الجوع إلى بيع جميع ما يملك لكي يشتري طعاماً.. فقد كانت ربة الجوع تتدفق في دمه، وتلتهم كل ما يلتقمه هو من غذاء، فإذا توقف عن الأكل ضغطت أمعاءه من جديد ليصرخ من أجل طعام جديد..

ولم يبق له من حطام هذه الدنيا، بل لم يبق له من الأهل والولد، إلا ابنة عذراء ما كان أجدرها بأن تكون ابنة لغير هذا الأب.. فلما اصفرت يداه من كل شيء، لم يجد بدأ من بيعها لأحد الأغنياء من تجار البحار النائية، وقد دفع الرجل مبلغاً من المال طائلاً ثمناً لها، وأخذها وانصرف.. فلما كان عند البحر، تركها في مكان ما وذهب لبعض شأنه فنظرت الفتاة إلى أعماق اليم، وجعلت تبكي وتنتحب، وتضرع إلى نبتيون، رب البحار المبارك، أن ينقذها مما هي فيه من هم الرق، وأن يسبغ عليها نعمة الحرية... ولم تكن الفتاة تفرغ من دعائها حتى استجاب لها الرب الطيب، فسحرها في لحظة فكانت صائد سمك يلقي شباكه في الماء، فلما عاد التاجر، ولم يجد فتاته، جعل يسائل صائد السمك عنها، فأنكر أنه رآها.. فعاد الرجل إلى ابرزتون يسأله عنها فلم يفز بطائل.. وكان ميعاد اقلاع السفينة قد أوشك فأهرع الرجل إلى الميناء وركب في السفينة وهو ينثر دموعه أسفاً على جاريته الحسناء.

ولما اطمأن نبتيون أعاد الفتاة بكلمة رقيقة إلى صورتها الأولى، فشكرته وأثنت عليه وصلت له، ثم سكبت عبرة في مائه عرفاناً بجميله، وعادت إلى أبيها البائس الذي وجدته لا يزال يقاسي من جوعه ما لا طاقة لمخلوق به.. أما هو فقد فرح بعودتها، وتحركت فيه غريزة الأبوة فضمها إلى صدره باكياً.. لأن البشرية مهما انحط بعض أبنائها إلى حضيض البهيمية لا تستطيع أن تتخلص من أخص فضائلها.. على أن الرجل لم يبالِ أن يبيع ابنته مرة ثانية ليحصل بثمنها على القوت الذي كان يلقيه في جب فامن التي لا تشبع.. وقد عاد نبتيون فأنقذ الفتاة مرة ثانية كذلك. بل أنقذها مرات لأن أباها باعها مرات...

ولم يصبر ابرزتون لهذا العذاب طويلاً... فلم تمض أشهر حتى وهى جسمه، ووهنت قواه، وحشرجت روحه، ولفظ آخر أنفاسه، وعند ذلك.. وعند

ذلك فقط، تركته فامن ربة الجوع، لتعود أدراجها إلى بريتها في بطاح سكوذيا، ولتقيم من جديد في تلك القنة العالية من قنن جبال القوقاز.

أما تلك الفتاة المحزونة الجميلة ابنة ابرزتون فقد عاهدت الآلهة على أن تنقطع لسقي جذور الدوحة المباركة التي قطعها أبوها، والتي كانت سبب بلائه، وقد وفت ما عاهدت الآلهة عليه، فلم تزل تسقيها حتى انبتت عدة أفرع جديدة.. ولم يمض زمن طويل حتى أينعت الأفرع، واستطالت وأصبح كل منها شجرة مباركة، تسكنها عروس من عرائس الدراياد المباركة.

ثم خلع الدراياد حدادهن، وعدن إلى رقصهن القديم في ضوء القمر، في المرتع القديم الحبيب، وكانت تقوم على خدمتهن تلك القديسة ابنة ابرزتون.

يوم استراح الناس من مارس

وضعته أمه ملكة الاولمب في ساعة من ساعات النحس، فلم يكد يستنشق أنفاسه الأولى حتى أربد الجو من حوله، وهبت في العالم ريح كريهة كأنها زفرات الجحيم.. ثم لم يلبث الأفق أن تلطخ بالدم، وشاعت الشحناء في دنيا الآلهة، ودب الخصام بين الأرباب جميعاً، وكادت الفتنة الكبرى تذهب بريح الأولمب، لولا أن تداركه كبير الآلهة بلطفه، فكشف الغمة، وأذهب الأزمة، ونشر السلام على الأرض.

ونشأ هذا الإله الطفل ــآرســ أو كما دعاه عباده الطغاة فيما بعد ــمارســ نشأة شاذة عجيبة.. فلم يكن يطربه من النغم إلا زمزمة الريح في رؤوس جبال تراقيه الشامخة، وإلا زمجرة الموج يلطم صخور الشاطىء فيكاد يهدها هداً.. حتى إذا شب على الطوق، لم تكن له موسيقى غير قعقعة السلاح في المعركة، وتأوهات المقتولين فوق الثرى، وأصوات الرقاق البيض تفلق الهام وتفري الرقاب.. ولم يكن يسره أن يرى أحداً من العالمين سعيداً تلك السعادة البريئة التي يكون مصدرها الحب أو السلام أو المودة.. وكان إذا رأى شيئاً من ذلك عمد إلى تكدير صفوه، ولو كان السعداء هم أرباب الأولمب وربباته.

لقد ساءه أن يرى أباه سيد الآلهة يخلق طيراً من البلابل والشحارير والسنونو تملأ أرجاء الأرض غناء وسقسقة وشدواً، دون أن يكون ثمة صراخ وبكاء وألم، فجعل يصلي لأبيه ويضرع حتى خلق له أسراباً كثيفة من الغربان والصقور والحدأ، أو النسور القشاعم جعلت تعيث في السماء تجريحاً وتذبيحاً، وتملأ أكناف السموات صلصلة ونعيباً، فأصبح البلبل يغني لأفراخه من فرح بها، ثم يراها في منسر الصقر فيتمزق من الألم حسرة عليها.

وساءه أن يرى الأرض تفيض بالأقوات والأرزاق، فلا يقع الخصام بين البشر، ولا تنشب المجازر اقتتالاً عليها، فجعل يتردد على اخوته آلهة الرياح

الأربع يحسن لها أن تصرف عن السهول والحقول والحدائق أمطارها إلا بمقدار، وأن تصبها هنا مرة، وهناك مرة، فيخضل هذا المرج عاماً، ويمحل عاماً، وتؤتي تلك الحديقة أكلها سنة ثم تشح سنة أخرى وتبيد من هذا السهل أقوات الناس تارة، ثم ينهمر عليه المطر فيجود بأطيب الأرزاق تارة أخرى.. وهكذا يجوع ذاك الشعب وتصيبه المخمصة، بينما يشبع هذا الشعب وتصيبه التخمة، فيحسد أولئك هؤلاء.. ثم تدور الدائرة، فيجوع من شبع، ويشبع من جاع... وتشتد ريح الحسد بين الناس، وتمتلىء نفوسهم بغرائز التباغض وحب الاعتداء، بعد أن يعلمهم الجوع وسائل السلب والنهب والادخار لوقت المجاعة... أو اكتناز الذهب والفضة لمجرد الفخفخة والخيلاء والصلف.

وقد سمعت آلهة الرياح الأربع البلهاء إلى ما زخرف لها مارس فأخذت تصرف أمطارها عن هذا البلد، فيمحل، ويصيبه القحط والشقاء، ثم تصيب بها ذاك الاقليم، فيخضل ويصيب أهله العز والرغد.. وأخذ الناس يغير بعضهم على بعض.. ثم انتقلوا من طور الغارات العارضة إلى طور الحروب البشعة التي لا تبقي ولا تذر... ثم أخذت دائرة الحروب تتسع وتتسع، حتى شملت العوالم كلها، والأرض والسموات جميعاً.. ولم تملك الآلهة نفسها إلا أن تنحاز إلى فريق من الناس دون فريق، ومن هنا هذا الظلم الذي دفعها إليه مارس بحماقاته.. وهو الظلم الذي أنسى آلهة الأولمب أنها آلهة... والربوبية والظلم لا يتفقان.

وكان مارس ينظر إلى ذلك كله ويبتسم، بل كان ينظر إليه فتنتفخ أوداجه بالصلف والكبرياء.. إنه لم يدع جماعة من البشر أو الحيوان أو الطير أو دواب الأرض أو حيتان البحر إلا أثار بينها حرباً شعواء... ولم يترك ضعيفاً إلا جعله لقمة لأخيه القوي.. بل هو قد صنع ذلك بين آلهة الأولمب أنفسهم، ولو كان الآلهة يجوز عليهم الفناء لما بقي في الأولمب إله واحد.. حتى مارس نفسه.. فقد كان يقاتل الجبل إن لم يجد شيئاً يقاتله!

وخرج مرة في شكته الحربية المفزعة يختال كالطاووس، وقد غطت خوذته المتلألئة ذات الريشة رأسه الصغير الممتلىء بالزهو، وحمل في إحدى يديه حربته التي يقطر من سنانها الموت، وفي يده الأخرى ترسه الكبير الثقيل.. وكانت إلى جانبه صاحبته انيتو ربة الحرب، ومن حولها وصفاؤه ايريس وفوبوس وميتوس وديميوس.. وياللور.. أرباب الخصام والنذير والخوف والفرع والرعب.. ثم توقفت اينو فجأة، وراحت تسائل إله الحرب، وهي تتخابث عليه.. عن تلك

الحرب الدامية التي استعر أوارها بين المردة وبين الآلهة، بين المردة وعلى رأسهم بروميثيوس، خالق البشر وحبيب الناس، وبين الآلهة وعلى رأسهم زيوس، صاحب النزوات وأبو الشهوات، ووالد مارس وفينوس، وأبوللو، وسائر تلك العصبة الضالة من آلهة الأولمب.. جعلت اينو تسائله عن تلك الحرب التي لا تريد أن تنتهي، والتي ينتصر الآلهة فيها أحياناً، والمردة في معظم الاحايين.. والتي سببها غضب المردة لما أصاب أقوات الناس والدواب من نقص وخلل واضطراب، ورضى الآلهة بكل هذا النقص والخلل والاضطراب، وعدم مبالاتهم بما يصيب الناس من جرائه، وما تجر إليه مصائبهم في أرزاقهم من المصائب الخلقية، وما يقعون فيه بسببها من تباغض واحتراب.

ويقهقه مارس.. ويقول لاينو إنه قصد إلى ذلك كله.. لأنه وجد لذلك كله.. فهمه أولاً، وهمه أخيراً، ألا يسود السلام في الأرض، وأن يظل كل شيء.. ولا سيما هؤلاء البشر التعساء، في حرب تعقبها حرب، ونزال يعقبه نزال، وغصة تسلمهم إلى غُصة، وكروب لا تنقطع ولا تمتنع.. ثم يقول مارس إنه لا يحزنه.. أو لا يضايقه... إلا هذا المارد الجبار برومثيوس.. الذي يعطف على البشر كل هذا العطف، ولا يني يفسد خططه المرة بعد المرة بما يعلم الناس من حيل التماس العيش، وطرق تفجير الماء، كلما أصابهم جدب، أو حلت بهم مجاعة، فلا يقع بهم من الشقاء كل ما اشتهى، ولا تشتد بهم المتربة على الصورة التي أحب.. ولست أدري لماذا يطاولهم أبي كل تلك المطاولة.. ولماذا لا يحتال لهم بحيلة فيحرمهم نعمة الخلود.. لأنهم طالما كانوا لا يموتون، فلن تنتهي هذه الحرب بيننا وبينهم.. ولقد اقترحت على والدي سيد الأولمب مرة أن يمحق البشر، أحباء بروميثيوس، فنستريح من هذه الحرب بيننا وبين المردة بسببهم.. ولكن أبي نظر إليّ نظرة فيها من السخرية وفيها من الانكار، شيء كثير، ثم أخذ يضحك.. ثم انقلب ضحكه قهقهة عالية مدوية.. ثم قال لي: وماذا يكون عملك يا ولدي مارس إذا لم تجد بشراً أغبياء مثلك، يدبون في هذه الأرض، يطيعونك، ويأتمرون بأوامرك، فيقتل بعضهم بعضاً، ويعدو بعضهم على بعض، ويقعقعون بأسلحتهم، فتطرب أذناك، ويمتلىء سمعك بالمرقص المطرب من أصوات المعمعة، وأنين القتلى، وحشرجات المحتضرين؟»

ثم سكت مارس قليلاً، وعاد إلى حديثه يقول: والحق أقول لك يا اينو إنني خجلت من كلام أبي، فلكي تكون هناك حرب، يجب أن يكون هناك بشر.. وبشر أغبياء، لا يهمهم أن يذبح بعضهم بعضاً لاتفه الأسباب، وأن يضعوا أطيب

جهودهم في سبيل اختراع أدوات القتل والتخريب.. فإذا تم لي هذا، كنت إله الحرب حقاً.. وإله الدمار صدقاً، أما بغير هذا، فلن يكون لي عمل ذو بال.. ولن يكون لك عمل قط.. ولن يكون لوصفائي هؤلاء شغل يشغلهم.. يكون له وزن..!!

والآن.. لقد تغيبنا عن معركة الجبابرة طويلاً.. فهلموا..»

ولم يكن مارس يفرغ من حديثه، ويقف منه عند هذا الحد، حتى دوت في كهوف الجبال القريبة قهقهة عالية كأنها رعد الليلة العاصفة الهوجاء.. فلما نظر مارس حوله، لمح بريقاً جميلاً رائعاً يشق ظلام الليل.. ثم عرف أن البريق يتلألأ من وجه بروميثيوس نفسه... بروميثيوس خالق البشر وحبيبهم، وحلال مشكلاتهم، ومنقذهم من كل كرب، ومدركهم في كل شدة.

وانتضى مارس حربته، وأوشك أن يسددها إلى صدر غريمه، لولا أن أشار هذا إليه قائلاً: «على هينتك يا مارس.. على هينتك.. فالحرب بيننا طويلة المدى، وأكبر ظني أنها لن تنقطع، ما دامت هذه خطتكم يا معشر الآلهة، في سبيل إلحاق الأذى بالناس وما دام في الناس أغبياء يطيعونك، ويأتمرون بأوامرك، كما قال أبوك.. أغبياء لو فكروا في مشكلاتهم قليلاً، ما نشبت بينهم حرب، وما فكروا قط في سفك قطرة واحدة من دمائهم التي تأبى إلا أن تتخذ منها خمرك المعتقة يا مارس...».

وهاج مارس، وماج، ولم يدع حبيب البشر يمضي في حديثه، بل هز رمحه هزاً عنيفاً قوياً، ثم أرسله نحو المارد الطيب بروميثيوس، الذي انفتل من مكانه بسرعة البرق، فمضى الرمح في سبيله، ليستقر في صدر الجبل الشامخ، وليثبت فيه فلا يستطيع مارس نفسه انتزاعه...

ويعود بروميثيوس إلى قهقهته من جديد، حتى إذا فرغ من ضحكه، نظر إلى إله الحرب نظرة الساخر، أو نظرة المشفق، وقال له: «وبعد يا سيد مارس؟ ترى ماذا أنت صانع بعد إذ تجردت من سلاحك؟ لعلك مستنجد بصاحبتك اينو يا صاح؟ أو بوصفائك المساكين عسى أن يلقوا الرعب في قلبي؟... ولكن لا عليك.. لا عليك.. هاك رمحك الظالم.. فتسلح به مرة أخرى...»

وتقدم بروميثيوس إلى الرمح فجذبه جذبة خفيفة هينة، فكان في يده... ثم ألقى به ناحية مارس، الذي التقطه ولم يفلته...

وعاد مارس إلى نزقه، فحاول أن يخرق صدر بروميثيوس برمحه.. ولكن.. هيهات.. لقد مرق المارد من مكانه كما يمرق السهم، وعاد إلى قهقهته وسخريته.. ثم قال لإله الحرب: خائن كدأبك.. آثم غدار.. بأبي أنت وأمي.. لو أردت حربك ما أقتلك.. ولكن.. لا.. فحرب المردة شرف لا يناله أمثالك... ولكني أبرز إليك طفلين من أطفالنا يداعبانك ويلاعبانك.. ثم يأسرانك فيريحان البشر المساكين منك، وتصبح الأرض من بعدك جنة وارفة الظلال كعهدها قبلك...».

واختفى بروميثيوس، وما كاد يفعل حتى انشقت الأرض عن ماردين جبارين، جعلا يضحكان ويقولان: أين هو؟ أين مارس؟ أين إله الحرب البائس؟

وضحك مارس بدوره... ثم خاطبهما قائلاً: أنا مارس أيها الماردان، فمن أنتما؟...

وقهقه الماردان.. ثم قال أولهما: أنا أوتوس الذي وعد بروميثيوس أن يرميك بي!

ثم قال الثاني.. وأنا افيالت.. أخوه.. ونحن توأمان.. فهلم خذ حذرك..

ولم يملك مارس أن يبتسم، ثم قال: ولكنه وعد أن يرسل إليّ طفلين من أطفال المردة.. فأين هما؟...

فقال أوتوس: ويلك يا إله الحرب؟ ما أجهلك! إنما نحن طفلان يا صاح.. ولا يعدو أحدنا التاسعة من عمره.. وسل أباك سيد الأولمب يحدثك أننا ننمو بمعدل تسع بوصات في الشهر الواحد، حتى نبلغ الثامنة عشرة فيتم نمونا.. ومن هنا هذه البوصات الألف التي تقف أمامك، والتي سترى منها الأمرين.. دع اللغو وخذ حذرك!

وضحك مارس، ثم أشار إلى أرباب الفزع والرعب والخوف أن يحاولوا كسر شكيمة الماردين بالقاء سمومهم في نفسيهما، وإلى اينو بمناوشتهما من خلف حينما يأخذهما هو من أمام.. ولكن.. هيهات.. لقد كان أوتوس وأخوه عاصفتين يزلزلان الأرض تحت أقدام خصومهما زلزالاً عظيماً.. وهل أعجب من أن يفر وصفاء إله الحرب الواحد بعد الآخر، وأن تلقي اينو رمحها، ثم تطلق ساقيها للريح، رعباً من هذين الجبارين الصغيرين؟

وظل مارس يناوش الماردين الطفلين ساعة ما كان أطولها وما كان أحرها.. وما كان أشقاها على نفسه...

ثم أخذت ساعداه تخذلانه.. كما أخذت ساقاه ترتجفان مما أوهاهما من طول هذا النضال.. وفي لحظة من لحظات النحس، استطاع أوتوس أن يختطف الرمح المتأجج من يد مارس... فأصبح إله الحرب أعزل لا يقوى على شيء، وأخذ يتطلع إلى السماء عسى أن يسعفه أبوه سيد الأولمب بنجدة من عنده، أو بصاعقة تذهب بأحد الماردين أو بهما معاً.. ولكن.. واأسفاه! لقد نامت أعين الأولمب عن هذه المأساة، فساور الماردان مارس، ثم استطاعا أسره وتكبيله، ثم حملاه إلى هذه الوهدة العميقة التي انشق عنها بطن الأرض فحبساه فيها...

واستراح العالم من مارس الملعون، وانطلقت الرياح الأربع تسكب أمطارها فكثرت الأرزاق، وعمت الخيرات، وفرح الناس، ونسوا أكثر الدنايا التي كانت تغري بينهم العداوة والبغضاء، فتلاشت الجيوش، وأصبح البشر في أطراف جنتهم اخواناً متحابين، لا يعدو بعضهم على بعض، ولا يشغلهم عما أخذوا به أنفسهم من التفرغ إلى العلوم والفنون شاغل، واستطاعوا أن يقضوا على الأمراض والعلل، وخطايا الأنفس وأدواء القلوب.

ومضت خمس عشرة سنة، أصبح فيها وجه الأرض فردوساً، ثم فوجىء الناس بين عشية أو ضحاها بأن مارس إله الحرب قد انطلق من سجنه، وأن أخاه المحتال المخادع، هرمز، أمير اللصوص هو الذي فك أساره، فريع الناس، وأربد وجه السماء، وصوحت جنة النعيم.. ولم تلبث آلهة الرياح الأربع أن حبست أمطارها ثلاث سنوات عجاف خماص.. عاد البشر بعدها إلى قديم دناياهم... لقد صرفوا عن العلوم النافعة والفنون المفيدة، ولم يعودوا يهتمون إلا باختراع المهلكات التي يقتل بها بعضهم بعضاً..

فيا للبشرية الأسيفة التي تتعذب منذ ذلك التاريخ.. ومن ها بمن يأسر مارس مرة أخرى بعد إذ انتصر الآلهة على بروميثيوس الطيب وملإه!

اللعب بالصواعق

كان سولمانوس رجلاً غريب الأطوار، كثير التأمل، يتبرم بكل ما حوله، ومن حوله، لا يروقه نظام هذا العالم، ولا تروقه تلك العصبة من الآلهة التي تعبث من قمة الأولمب بهؤلاء البشر الضعاف الذين يسكنون الأرض، وينتشرون فيها، يشقون ويكدحون بينما تخبىء لهم المقادير آلاماً وأحزاناً، ومصائب مهلكة لا يستطيعون منها فكاكاً، ولا يملكون تجنبها قبل أن تقع.

لم يكن أحد من الآلهة يعجبه، ولا أحد من الناس يعجبه...

كان يضيق بسيد الأولمب نفسه، زيوس، ذي الحول والطول، لأنه لم يكن إلهاً كما يجب أن يكون الإله الكبير المتعالي، المتصف بالفضائل المطلقة، والمنزه عن الصغائر المطلقة.. وكان يغيظه منه أنه إله مجنون لا عقل له.. ظالم لا يكاد يعرف العدالة، لا يقوم حكمه للسماوات والأرض على مثقال ذرة من المنطق.. فالفقر يملأ أقطار الأرض، والأمراض تنهك أجسام الناس، والجهل يفتك بعقول الخلق، والخزعبلات تملأ نفوسهم والغرور، والرذائل تملك أزمتهم.. وسيد الأولمب المخبول لا يفكر إلا في شهوات نفسه، ولا يحاول مرة أن يطهّر الأرض من أدرانها، والناس من رزاياهم.. كأن هذا كله لا يهمه، ولا شأن له به، بقدر ما تهمه فتاة حلوة يجري وراءها، أو عروس ماء يمرغ خديه في التراب تحت قدميها...

كان سولمانوس يكره هذا الإله الجبار المتعجرف، الذي استبدت به شهوات نفسه، وكان يغيظه من الناس أنهم يعبدونه مع ذاك، ويقرون له بالربوبية، خوفاً وجزعاً، لا أملاً ومحبة.. وكان يغيظه موقف مينرفا، ربة الحكمة، من هذا الإله.. لأنها كيف تكون ربة للحكمة، والتفكير المتزن المستقيم، وهي لم تفكر قط في إصلاح هذا الفساد الذي يملأ الأرض والسموات؟

كان سولمانوس يفكر في هذا كله.. ويعجب، ثم يعجب.. ثم لا يملك إلا أن يصمت، وينطوي على نفسه.. ثم يعود فيفكر.. ويتأمل.. ويحس بمسّ من

القنوط يكاد ينقلب فيكون مساً من الجنون.. فإذا اشتد عجبه من موقف مينرفا، ربة الحكمة.. عاد يقول لنفسه: «ولم؟ لماذا تكون مينرفا ربة للحكمة، وهي ابنة زيوس، سيد الأولمب المجنون؟ ومن أين لها الحكمة إذن؟ وأنّ لها التفكر السليم المتزن؟.. ثم يتلوى بعد ذلك من الألم حينما يفتح نافذته فيرى البائسين والمساكين يهرولون في الشارع ميممين شطر الهيكل، ليعبدوا تلك العصابة من الأرباب المأفوكين..

وفي إحدى هذه النوبات التي كانت تنتابه، قال المسكين لنفسه: آه لو كنت إلهاً؟ آه لو كنت أنا سيد الأولمب؟... إذن لأصلحت كل شيء!!

وفي هذه اللحظة التي تمنى هذه الأمنية.. طرق بابه طارق.. وإذا الطارق مينرفا.. مينرفا نفسها.. التي سمعت ما لغاية هذا الرجل سولمانوس، ففزعت، وخافت أن يسقط أبوها زيوس، سيد الأولمب صاعقة من السماء لا تذهب بهذا الرجل فقط بل تذهب بالأبرياء المساكين من أهل الأرض جميعاً، وتعود الأرض خراباً يباباً كقبل أن يعمرها الناس، ويمشوا في مناكبها، ويقيموا فيها هذه الحضارة الزاهرة الناضرة.. ويعود الآلهة لا عمل لهم إلا أن يحيكوا الدسائس لأنفسهم، وإلا أن يثيروا شرورهم فيما بينهم، كدأبهم قبل أن يخلق الانسان.

وهبّ سولمانوس ليرى من الطارق، فإذا مينرفا تقول له في صراحة وفي وقار: «ماذا يا سولمانوس؟ ما هذا الذي لغوت به في جانبي وجانب أبي؟ أحقاً لا يعجبك نظام هذا العالم؟ أحقاً تود أن تكون أنت الإله المطلق المتصرف؟ ولماذا؟ أيستطيع بشر مثلك، لا يكاد يصبر على طعامه أو شرابه يوماً أو يومين، أن يفعل ما لا تفعل الآلهة؟.. ولكن.. لا.. إنه ليس ذنبك.. ولا ذنب البشر جميعاً.. ولكنه ذنب بروميثيوس المجنون الذي أحبكم فسرق لكم ذلك القبس من النار المقدسة، فكان لكم هذا القدر التافه المغرور من العقل، الذي خدعكم وأضلكم، وكاد يودي بكم.. تبْ يا رجل.. واستغفر لذنبك، تبْ.. قبل أن يحطم أبي رأسك بإحدى صواعقه».

ولكن سولمانوس يصر على ذنبه ولا يتوب.. بل تأخذه العزة بالإثم، وينشأ يحاجج ربة الحكمة ويناقشها، ويذكرها بما صنع أبوها بصديق الناس، بروميثيوس، الذي أهدى إليهم قبس النار المقدسة، فكان لهم كل ذلك العقل الذي رفعهم فوق مقام الآلهة.. وعبست مينرفا.. وأخذت تنصح الرجل من جديد.. لكن طارقاً جديداً يطرق الباب.. فيقطع حوارهما...

آه!... إنه هرمز.. ابن زيوس.. ورسول الآلهة.. بعث به أبوه إلى سولمانوس ليبشره بأنه استجاب سؤاله.. فهو منذ اليوم رب هذه الأرض، لمدة عام كامل..

ولا تكاد مينرفا تسمع ذلك حتى تعبس، وترمق سولمانوس بنظرة حزينة، ثم تقول له وهي تنصرف: أيها الشقي.. أرنا حكمتك إذن.. فقد أصبحت إله هذه الأرض!

وينظر سولمانوس فيجد نفسه تتغير، ويحس كأن قوة ألف ثور تدب في جسمه.. وكأن عينيه تدركان ما في زوايا الأرض مما يدب ومما يهمس.. وما يطير في الهواء أو يسبح في الماء.. فيتولاه شيء من الغرور، إلا أنه يشعر بشيء من الخوف مع ذاك يشيع في قلبه، ويدرك هذا هرمز، فيضحك، بل يقهقه، ويطمئن سولمانوس قائلاً: لا عليك.. لا عليك يا رب هذه الأرض، حاول أن تصلح من شأن هذه الدنيا ما حسبت أن الآلهة قد عجزت عن أن تصلحه.. فإذا أفلحت، فستظل إلهاً أبد الدهر، وستكون وكيل أبي في هذه الأرض أما إن فشلت، فلا تلومن إلا نفسك.. على أنني لا أستطيع أن أرحل عنك، دون أن أنصحك بنصيحة قد تنفعك.. فاخش نفسك.. يا سولمانوس.. اخش نفسك!

ثم انصرف هرمز.. وخلا سولمانوس إلى نفسه يعجب لهذا الذي حدث كله.. وكان أعجب ما بهره من هذا التحول المفاجىء الذي طرأ عليه، أن جدران منزله لم تكن تمنع عينيه من رؤية ما خلفها.. بل الجبال نفسها.. والغابات.. لقد كان يرى كل ما خلفها، وما يسعى فيها.. لقد كان يرى كل ما في بيوت الناس، وأجحار الدواب، وأوكار الطير... كل شيء.. كل شيء...

وكان يسمع كذلك كل كلمة تخرج من فم بشر.. وكل همسة يبثها حبيب لحبيبه... وكل رفرفة طائر بجناحيه.. وكل نَفَسٍ يدخل أو يخرج من كائن حي..

وأخذ هذا كله يزعجه في أول الأمر.. فكان يغمض عينيه حتى لا تتكاثر عليهما المرئيات العجيبة فتسحرهما.. وكانت المسموعات تلذه أحياناً، وتزعجه في أكثر الأحيان.. وكيف لا تزعجه أصوات الرياح وزمزمات العواصف، وزمجرة الرعود واضطراب الزلازل؟.. ولكن كيف يتقي سولمانوس هذه الأصوات المزعجة، وهي تصدر عن آلهة مثله لا يملك أن يأمرها فتسمع، أو أن يطلب إليها فتصيخ؟

إذن.. فليسد أذنيه بالشمع الاحمر... وليجلس في منعزل عن الخليقة كلها ليدبر نفسه، وليرسم منهاجه لإصلاح هذه الدنيا.

ونظر سولمانوس في أسباب الشقاء الذي يملأ الأرض، ويكرث الناس، فزعم أنه الفقر وحاجة البشر إلى ما يأكلون وما يشربون وما يلبسون، فقال في نفسه: أكفيهم هذا كله.. لتمتلىء الأرض خيراً وبركة.. وليصبح كل شيء لكثرته، بلا ثمن!

ثم تذكر سولمانوس أن كثرة الأرزاق لا تحول بين الناس وبين المرض، فوضع في برنامجه أن يصح الناس جميعاً، وأن تنتفي الأمراض من الأرض، وأن يدوم عهد الشباب فلا يهرم الناس ولا يصيبهم الكبر، ولا تثقل كواهلهم الشيخوخة!

وإذا كثرت الأرزاق حتى تغدو بلا ثمن، وصح الناس جميعاً فلا يصيبهم المرض.. فماذا تكون الأرض؟.. ألا تكون جنة ناعمة؟.. لا.. لا.. لن تكون كذلك حتى يرى سولمانوس حـلاً لمشكلة الموت... إذن.. فلينتفِ الموت من الأرض.. ولتخلد الخلائق كلها!

وهكذا رسم سولمانوس منهاجه.. أرزاق تملأ فضاء البر والبحر.. وصحة ينتفي معها المرض.. وخلود لا يعرف الموت!!

ثم أدرك سولمانوس أن برنامجه، إلى هنا، يقوم على مبادىء مادية صرفة.. وأخذ يفكر في هذا فرأى أن ينعم الناس بنعمة العلم.. فقرر أن يكونوا كلهم علماء...

وبهذا كمل برنامج سولمانوس في نظره.. ولم يضع وقتاً طويلاً في التفكير فيما وراء هذه الأسس الخاطفة.. بل هبَّ من مقعده، وفتح نافذته، وشرع يرسل الأوامر التالية في الفضاء: لتمتلىء الأرض بالأرزاق فلا يكون منها شبر لا ينتج طعاماً أو شراباً أو لباساً... وليمتلىء البحر بما يطعم الناس وما يكون لهم حلية.. وليصح الناس جميعاً فلا يصيبهم مرض.. وليدم لهم شبابهم فلا يعرفوا الموت.. وليكونوا كلهم علماء...

وأصبح سولمانوس، وأصبح الناس.. أصبح هو ذاهلاً لا يدري ماذا يأتي وماذا يدع.. وأصبح الناس حيارى لما أصاب الدنيا.. لقد صح كل مريض، وسلم من الموت كل محتضر، والناس لا يستطيعون أن يشقوا طريقهم في الشوارع لكثرة ما بها من الأقوات.. وهم جميعاً يفلسفون، ويتكلمون في نظريات العلم العميق المعقد، كلاماً سهلاً مفهوماً... وسولمانوس ينظر إليهم فـاغراً فـاه من

الدهش. . . لا يدري كيف حدث هذا كله في ليلة؟؟ ولا يدري كيف يبلغهم أنه هو الذي أمر بهذا كله فحدث في ليلة؟. . ولا يدري كيف يقول لهم إنه غدا إله هذه الأرض خشية أن يهزأوا به، ويسخروا منه، إن لم يرجموه، ويظنوا أنه رجل مدخول العقل ذاهب اللب. وكيف يستطيع أن يقول لهم إنه رب هذه الأرض وقد غدوا كلهم فلاسفة وعلماء، ومن دأب الفلاسفة والعلماء انكار ألوهية الأشخاص الذين لهم أجساد كأجسادهم. . وربوبية من يأكلون كما يأكل الناس، ويشربون كما يشربون، ويلبسون كما يلبسون، ويفعلون كما يفعل البشر؟

وزاد دهشة سولمانوس أنه لم يعد يدري ماذا يصنع في دنياه الذي هو ربها، وقد تم في ليلة واحدة كل ما كان يدور في خلده من أمانٍ إذا كان هو رب هذه الأرض! ماذا يصنع بعد هذا كله الذي تمّ في ليلة واحدة يا ترى؟

وتذكر فجأة هذه المرأة الجميلة المفتان كاكيا. . كاكيا التي سحرته يوماً بحسنها، وسلبت فؤاده بمفاتنها. . وكانت سبب الضلال الذي هو فيه اليوم، حينما أعرضت عنه إلى غيره من محبيها المساكين، الذين لم يفوزوا منها بأكثر مما فاز هو به من غصة ولوعة، كاكيا التي كان كل همها أن تنشر الفساد في الأرض، وأن تصيب بجنون الحب صرعى غرامها في كل حدب وصوب. . فصمم على أن يلقاها، ليهديها صراطه السوي، أو ينقذ عباده من شرها.

ولم يفكر سولمانوس طويلاً، بل انطلق من فوره ليلقاها. . لكن الذي أدهشه وهو في طريقه إليها، أن الناس، هؤلاء العلماء الفلاسفة، كانوا يسجدون بين يديه أينما سار، ويبتهلون إليه بالدعاء أنى توجه!! فيا ترى؟ كيف عرفوا أنه أصبح فصار ربهم؟

لكنه يمضي حتى يكون عند بيت كاكيا. . . وتخترق عيناه جدران البيت فيراها مستغرقة في نومها. . لكنها تهب فجأة حينما تحس نظراته تكاد تلتهم جمالها، وهو لا يزال خارج البيت، ثم تهرع إليه وهي لا تدري من أمر نفسها شيئاً. . وبدلاً من أن يزجرها الإله وينصح لها بالرشد والسداد، يغفر لها خطاياها. . ثم يعرض عليها أن تكون له زوجة. . فترضى، وهي ساجدة بين قدميه. . .

وتمضي الأيام. . والإله الكريم مستغرق في أهوائه في بيت كاكيا. . ويكون الناس قد سئموا ما هم فيه من تلك الحياة المتشابهة التي تجري على نسق واحد. . الحياة الرتيبة التي لا نصب فيها ولا كدح. . ويكونون قد سئموا فلسفتهم وعلومهم. . لانها فلسفة نظرية لا تهدف إلى غرض. . وعلوم كلامية خالية من

الغرض، وماذا تكون قيمة العلوم إن لم تثمر شيئاً مادياً ينفع الناس؟ وماذا ينقص الناس وقد امتلأت أرضهم بأرزاق أصبحت مصدر تعاسة لكثرتها. . لقد أخذت الحقول والفلوات والمدن تمتلىء بالدواب حتى أصبح الهواء فاسداً خانقاً، والناس مع ذاك لا يموتون، بل لا يمرضون. . لكنهم يستنشقون ريحاً نتناً لا يطاق. . يأتيهم من البر، ويأتيهم من البحر الذي امتلأ بالسمك ووحوش الماء التي يفترس بعضها بعضاً.

فكر الناس في هذا، وعرفوا أن الموت قد امتنع بينهم، فأصبح عندهم نقمة، وأدركوا أن الأرض لن تتسع بعد قليل لهذا السيل من النسل الذي لا ينقطع؟ فماذا تكون الحال يا ترى. . إنها إذن لعنة. . . لعنة سولمانوس. . . المنكب على أهوائه في بيت كاكيا. . .

وتذكر الناس آلهتهم القدامى. . فانطلقوا من فورهم إلى معبد دلفي يستفتون ربه أبوللو في هذه الحياة الضنك، وماذا يكون مآلهم بعد هذا اليسر الشديد الذي هو أفظع من الحرمان. . وهنا. . ذكر لهم الإله ما كان من أمر سولمانوس. . فهاجوا. . . وأقسموا ليحطمنه في بيت كاكيا. . .

واستيقظ سولمانوس على هتاف الناس ولعنهم اياه، فغيظ غيظاً شديداً. . وخرج إليهم ففتك بمئات منهم. . لقد كان كالثور مينوطور. . لا يقف في سبيله احد. . .

وفر الناس مذعورين من هذا الإله الوحش. . ولاذوا بجبل الأولمب يدعون سيده، يدعون زيوس. . أن ينقذهم من بلاء سولمانوس. . .

وكأنما أفاق سولمانوس من نوم طويل كئيب. . ونظر فوجد أن العام كاد ينصرم. . . وأنه لم يبق منه إلا أشهر قليلة. . . وأدرك أنه سيقدم حسابه بعد هذه الأشهر القليلة إلى زيوس كبير الآلهة الذي كان ينقم عليه سفاهته من قبل. . فماذا يصنع؟. . ثم ماذا يصنع في هؤلاء الناس الذين أنعم عليهم بكل تلك النعم فثاروا عليه لأنها لم تعجبهم؟

وهداه تفكيره أول الأمر إلى وجوب استعمال الجبروت والقوة ليخمد ثورة الناس أولاً. . . وليقاوم زيوس إذا رأى أن يحرمه من تلك الربوبية الجميلة الهينة التي أعادت إليه حبيبته كاكيا. . وذكر أن سر قوة زيوس هي هذه الصواعق التي يصيب بها من يشاء من قمة الأولمب، ويكاد يزيل بها الجبال. . فلماذا لا تكون له هو الآخر صواعق مثل صواعق زيوس؟. . ولماذا لا تكون له رعود مثل رعوده؟. . .

وخلا سولمانوس إلى نفسه يدبر أمر هذه الصواعق وتلك الرعود، فصنع قنطرة كبيرة هائلة من النحاس الأصفر الرنان، فوق ذلك الوادي الكبير الذي كان يطل عليه قصره، ووكل بها من يدقها بمطارق كبيرة هائلة.. فيحدث الدق رعداً مدوياً له هزيم كهزيم الجبال تساقط من السماء.. ثم أخذ يصنع صواعقه من مادة مدمرة ناسفة.. وأخذ يفكر في تجربتها، لكنه كان يخشى إذا هو جربها.. أن تنسف الأرض التي تحمله.. وتحمل الناس.. فأخذ يتردد.. ويتردد.. حتى لم يبق إلا يوم واحد من عام ربوبيته.. ومع ذاك.. كان لا يزال يتردد...

ثم بدا له قبيل غروب شمس ذلك اليوم أن يجري تجربته.. فودع كاكيا.. ثم حمل الصاعقة الأولى من صواعقه، ورفع يده ليلقيها في الوادي العميق الذي يشرف عليه بيته.. ونظر سولمانوس حوله كالذي يودع هذا العالم.. وقبل أن يلقي الصاعقة.. أتته صاعقة من ناحية الأولمب فنسفت صاعقته.. [illegible]ته.. ونسفت جميع الصواعق التي أعدها للثورة على سيد الأولمب.. ونسفت القصر.. والقنطرة النحاسية...

وكانت تجربة لم تدر في خلد أحد إلا خلد سولمانوس...

فراق هلكيون وسيكس

كان سيكس ملك تساليا، ملكاً عادلاً، رحيم القلب، محبوباً من رعاياه، ولم تعرف القسوة إلى نفسه سبيلاً، ولم يتخلق يوماً بخلق ينفر الناس منه، ولا وقع من دنايا الملوك الطغاة في شيء يذهب بمروءة الرجال، أو يخدش شرف الأبطال. . .

وكان له وجه باش، ونفس سخية، وحديث يسحر الأسماع، ولسان عف لم ينطق بهجر قط. . .

وبالاختصار. . لقد كان سيكس رجلاً عظيماً، جديراً بأن يكون رباً. . وكيف لا؟. . وأبوه هسيروس رب المغارب. . الذي رفعته آلهة الأولمب إلى أفقها الرفيع، فجعلته كوكب الصبح. . أو نجمة الفجر، كما درج الناس على تسميته. . ذلك الكوكب اللماح الذي يبشر الناس كل يوم بعودة الحياة إلى الدنيا النائمة. . .

وكانت هلكيون. . . زوجته الشابة ذات المفاتن. . تستحق أن تكون ربة كذلك. . فلقد كان أبوها ايولوس رب الرياح الأربع. . الذي يطلق زبانيته على البحار فيجعلها جبالاً وظلمات يضرب بعضها في بعض. . ويطلقها على الأرضين فتفرق المردة، وتجفل الجبابرة، وتفزع الأنسر البواشق فتلتمس الملاجىء فى الكهوف، وتعتصم من فتكها بالغيران.

وكانت هلكيون الجميلة وفية لزوجها، تحبه أكثر مما تحب الجمال، وتفي له أشد مما تفي الحسناء البارعة الحسن، لشبابها الغض، وصباها الفينان. . وكان هو يبادلها حباً بحب، ووفاء بوفاء، وكان غرامه بها يتجدد كما يتجدد العطر في لباب شجرة الورد، فلم يكن يطيق بعداً عنها، ولا يعرف قلبه الشبع من التملي بمحاسنها. . لقد كان يحبها هذا الحب المخامر الذي يجعل صاحبه أنفاساً تحترق، ونظرات ساهمة في بحر لجي من صفاء النفس، تستشف من خلاله تلك الأضواء السرمدية التي خُلِق من ألقها جمال العذارى. . .

لقد كان سيكس ينسى أنه ملك حينما يخلو إلى هلكيون.. لأنه كان كلما خلا إليها في فيها.. لقد كانت عيناها عالماً بأسره من زرقة صافية لا نهاية لها.. زرقة ذات أعماق ترتفع بالناظر إليها إلى آفاق من الحسن شاسعة واسعة، من الخير للهائم فيها أن ينسى نفسه.. ليندمج في نسيم تلك الجنة الحالية التي تصدر عنها نفوس السعداء، وترتد إليها أرواح المحبين.. لا يعرفون فيها شيئاً من أدران تلك الحياة التي تتصارع فيها الغرائز، وتتهالك من دونها الشهوات، فتجعلها جحيمًا مزعجة، وظلاماً يتدجى.

وكان لهذا الملك أخ شقيق يحبه من كل قلبه.. وقد ذهب هذا الأخ في رحلة بعيدة أغراه بها شبابه.. لكنه لم يعد.. ثم جاءت الأنباء بأنه قضى.. ولكن كيف قضى؟ وأين قضى؟ وهل اعتدى عليه معتدٍ؟ أو غاله غائل؟.. لم يعرف الملك من ذلك كله شيئاً.. وقد ضاعف هذا حزنه على أخيه، وأرق عليه عينيه، وأطلق في سماء حبه سحابة كثيفة سوداء، لم يكن ينير ظلماتها إلا جمال هلكيون.. وإلاّ نظراتها البسامة المحزونة التي كانت تحاول أن تعزي بها الملك.. وإن كان عزيزاً عليه أن يتعزى.. فقد علمه حب هلكيون وجمالها أن يكون شديد الوفاء، صافي المحبة، صادق الود، متين الاخوة، لا ينسى أحداً من رعاياه.. فما بال الأخ الشقيق.. ابن الأم والأب، الذي لم يكن للملك تساليا المحزون شقيق غيره!

وزاد في هموم الملك أن حدثت أحداث مفجعة جعلته يعتقد أن الآلهة غير راضية، وأنها تناصبه عداء لا يدري سببه، ولا يعرف مصدره، فاعتزم أن يذهب في رحلة إلى كارلوس، من أعمال ايونيا، لكي يستنبىء كهنة أبوللو هناك، عن ذلك كله.. عن مقتل أخيه إن كان قد قتل حقاً.. وعما يحيق به من عداء الآلهة، إن كانت تعاديه صدقاً... وعما يضمر له القضاء والقدر من متاعب بانت تباشيرها.

وأخذ الملك يعد عدته لتلك الرحلة.. ولم يخبر زوجته بشيء منها حتى أتم من أمرها كل شيء...

وكانت مفاجأة مهلكة أذهلت هلكيون الحسناء.. مفاجأة تشبه انقضاض الصاعقة على الآمنين السعداء، أو غرق السفينة العاتية في البحر الهادىء، بل هي بالموت المفاجىء أشبه.

وزاد في انذهال هلكيون ما تعلمه من انطلاق الزوابع في هذا الوقت من السنة باذن أبيها رب الرياح، انطلاقاً مفاجئاً في أشد ساعات الصفو، وأجمل هنيهات السلام... وهي تنطلق لتأتي عامدة، على كل شيء.. على الأخضر واليابس، وعلى

ضحاياها المساكين في البر والبحر.. وعلى البواشق في القنن المنيعة.. على كل شيء!!

ولم تملك الزوجة الوفية إلا أن ترجو زوجها في أن يعدل عن هذا السفر، لكنه أصر عليه اصراراً لم تشفع فيه دموعها التي أخذت تنهمر فجأة، وهي تقول له:

«يا لشقوتي إذن؟ ترى أي ذنب جنيت حتى لم تعد لكلماتي قيمة عندك! وأي جريرة صرفت عني حبك، وأطفأت ما كان يعمر من حرة قلبك؟.. أهكذا تقول لي إنك تستطيع البعد عني الأيام والشهور، ولم يكن أحدنا يطيق البعد عن أخيه لحظات يا سيكس؟ ألا تخشى على حبنا تلك الرياح الهوج التي تقلب الأعماق في هذا الوقت من السنة يا أعز الأزواج؟ ألا ترحم وفائي وحبي فتعدل عن هذه الرحلة التي يتولاني من أمرها فزع وخشية أي خشية؟ إذن.. فخذني معك.. عسى أن تخجل العواصف من بنت ربها فلا تمسك بأذى، خذني معك وحق أبيك كوكب الصبح! استحلفك بكل عزيز عليك ألا تدعني وحدي! أستحلفك بحبنا الذي سعدنا به زماناً رغداً ارتفع بنا عن ذاك الشقاء الذي توشك أن تقذف بي في غياهبه!...»

ولكن سيكس يصرّ على الذهاب وهو يصر عليه في غير عناء أو صلف، بل هو يتمسك به باكياً حزيناً مضعضع القلب، لأنه كما قالت هلكيون لا يصبر على البعد عن زوجته تلك الأيام الطوال.. ثم هو لا يدري كيف يقوم من نومه فلا ينظر في وجه هلكيون، ليتزود من جمالها لنهاره كله، وليقبس من نور جبينها لمشاكل الملك وظلم الرعية وظلمات الحياة، وليسمع من لسانها الحلو وفمها البسام صلوات الصبح التي ترسلها غناء سعيداً، وشدواً فريداً، ومسرة ومحبة... وليشم من عطر روحها ما ينعش فؤاده، ويبعث فيه الايمان والاشراق...

يصر سيكس على الذهاب وهو هذا الزوج الوفي المحب الصدوق.. وهو يعترف لزوجته بأنه ذاهب برغمه.. لكنه ذاهب مع ذلك لما تعرف فيه من خلة الوفاء... فهو كما يفي لها... لا يملك إلا أن يفي لأخيه... ولا يملك إلا أن يفي للسماء التي أخذت نذرها تقلق باله.. وهو حريص على أن ترضى عنه السماء، كما ترضى عنه هلكيون... السماء الصافية الزرقاء، التي رضيت عنه فيما مضى فمنحته تلك الروح الصافية الزرقاء، التي تطل من عيني هلكيون، وتفوح بالشذى من نفس هلكيون، وتنفح بالشباب من برد هلكيون، وتبسم بالسعادة عن فم هلكيون، وتتنزل بالوحي في موسيقى صوت هلكيون، وتشرق بالآمال في قسمات وجه هلكيون...

«هلكيون الحبيبة التي هي كنزي.. ومعقد آمالي.. ونبض فؤادي.. وربيع حياتي.. وحر دمي... ونور إيماني.. ومحض محبتي، وخالص ودي.. ومرآة نفسي..».

ويمضي سيكس في بث هذا الشعر الجميل الموشى الذي ينظمه قبلاً خالصة حارة فوق وجنات زوجته الجميلة الشابة. . ويكونان في شبه غيبوبة لا يفيقان منها إلا على هذا الصوت المفاجىء الأجش. . صوت الربان العجوز الذي جاء يعلن بأن السفينة قد أعدت، وأن الشراع قد انتشر، وأن الملاحين قد توزعوا في أماكنهم. . وأنه يستأذن مولاه في أن يتفضل. . . !

وتشعر هلكيون بأن قلبها ينتقل من الشمال إلى اليمين وزوجها يودعها. . . وينتزع نفسه من ذراعيها المرتجفتين. . فتصرخ صرخة مذبوحة. . وتغمر وجهه وصدره وذراعيه بالقبل. . وترسل من عينيها دموعاً تكاد تئن. . ومن روحها كلمات تكاد تختنق. . .

لكن سيكس يقبلها. . ويقسم لها أنه عائد في أقل من شهر إنْ تأذنت الآلهة. . ثم ينطلق. . قاصداً إلى الشاطىء. . حتى إذا مضت السكرة. . وأفاقت هلكيون. . انطلقت مسرعة خلف زوجها. . تثب كما يثب الظبي المروع. . وتنفتل كما تنفتل الحمامة البيضاء. . حتى تلحق به. . فتسير إلى جانبه. . دون أن تكلمه. . .

ويقفان هنيهة عند سيف البحر. . ثم ينظر كل منهما في عيني أخيه. . .

وينزل الملك دون أن ينبس بكلمة. . ويركب الفلك. . ويظل واقفاً منتصباً كأنه تمثال لا يحرك إلا ذراعه الذي يشير إلى هلكيون. . وتلوح له هلكيون كذلك. .

وتبتعد السفينة بحملها الثمين. . .

ويمضي الوقت. .
وهلكيون واقفة منتصبة تنظر وتلوح. .
وسيكس واقف منتصب ينظر ويلوح. .
ثم تبتعد السفينة وتبتعد. . . وتبتعد. . .
ثم تختفي حتى لا يبقى منظوراً منها إلا شراعها. . .
ومع ذاك. . فهلكيون واقفة منتصبة. . .
ولكن الشراع يختفي هو الآخر. . .
ولكن هلكيون لا تعود. . .
إنها وقفت تحاول أن ترى الأحلام. . الأحلام التي كانت حقيقة قبل وقت قليل. . .

* * *

ثم عادت هلكيون إلى القصر المنيف الباذخ الذي ضربت الوحشة فوقه بظلال غائمة قاتمة، ولما يمضِ على سفر الملك لحظات.. وصعدت إلى غرفتها بخطى وئيدة متثاقلة، كانت الهموم.. والأوهام.. تحيلها حديداً ثقيلاً يكاد يسوخ في الأرض فلا تنتزعه منها بجهد، ولا ترفعه إلا في مشقة... ولم تنزع عنها ملابسها... بل هوت فوق السرير الوثير، ودفنت وجهها في حشية.. وراحت تبكي بكاء صامتاً طويلاً...

وجاءت إحدى الوصيفات تحاول مواساة الملكة المحزونة.. لكن الملكة المحزونة لم ترد عليها بكلمة.. ولم يكن هذا من سوء أدب، أو خفة حلم، ولكنه اللسان المعقود، والقلب المهدود، والروح المهراقة، والنفس المحطمة التي تساقط أنفساً...

* * *

أما السفينة فقد شقت طريقها في بحر ساكن باسم، ومياه نائمة، تدفعها ريح سجسج لطيفة.. كانت أشبه برؤيا سعيدة توسوس بها في أخلاد الملاحين عروس الأحلام..

ثم لم تزل هذه هي الحال حتى قطعت السفينة نصف الرحلة أو كادت، من مشرق الشمس إلى أن جن الليل...

ثم أشرق القمر.. فكان كجذوة يقذف بها فم بركان أول الأمر.. ثم أخذ يرقى في معارج الأفق.. وهو في أثناء ذلك يكتسب بياضاً ويزداد لمعة.. حتى إذا انتهى من ربع طريقه أو كاد، أخذ البحر النائم يستيقظ، وشرع موجه يعلو ويهبط، وبدأت الرياح تهب فتعنف في هبوبها قليلاً أول الأمر، ثم يزداد هبوبها عنفاً بعد ذلك.. ثم تقسو فتكون بالعاصفة أشبه.. ثم تكون عاصفة بالفعل... عاصفة تشد أعراف الموج، وتلهب ظهورها بسياط الزبد، فتندفع جامحة مذعورة، مرة إلى فوق ومرة إلى الأعماق.. وآونة تيامن.. وأخرى تياسر.. ثم تشرق وتغرب في آن... وهي في هذا كله تدور حول السفينة.. وتمور.. ثم تضرب الصدر وترتطم بالسكان، ثم تترك البطن معلقاً على شبه قمة.. والملاحون في أثناء ذلك كله يقاومون ويكافحون ويشدون هذا الشراع ويطوون ذاك الشراع.. والملك المسكين واجم ساهم يفكر في هذا الطوفان الذي يأخذ السفينة من كل مكان.. ثم يفكر في هلكيون التي حزرت ذلك كله، وتحدثت إليه به، وحذرته منه، فلم يزده تحذيرها إلا اصراراً، ولم يزده نذيرها إلا تشبثاً بما اعتزمه من هذا السفر المنكود، والرحلة المشؤومة إلى كارلوس.. وكأنها لم تكن إلا رحلة إلى هذه اللجة الفوارة، في ذاك اليم المضطرب، الذي أخذت زبانيته تطل برؤوسها، لتطبق مع الموج على الضحايا الأشقياء...

ثم اشتدت العاصفة التي كانت تسخر من جهود الملاحين، فكانت تثير أعماق اليم، وتجعل من الموج جبالاً مرغية تقذف بزبدها في أوجه السحاب، وتصم برعودها آذان الوجود، وتلمع ببروقها وسط الظلام المنتشر، كأنها تنير ما تدجى من الجو حول السفينة، ليستيقن الملك البائس من هول الكارثة. . .

لقد أدرك الملاحون الآن أنهم مغرقون، وكان ربانهم يشحذ هممهم ليشبعوا في المجاذيف أرواحهم، وكل ما أوتوا من قوة. . ولكن! واأسفاه! لقد كان ذلك كله يذهب عبثاً. . ويضيع أدراج العاصفة. . .

وكان الملك ينظر إلى ذلك كله على أضواء البروق اللامعة، فيرتجف. . ولما طال انتظاره للفرج، أخذ يتمنى أن تأتي الطامة التي تريحه من كل ذلك الهول. . . وقد جاءته في موجة حملت معها نصف ماء البحر. . فضربت السفينة ضربة جعلتها في قرار الماء.

وانتهى كل شيء!

لقد كانت آلهة الرياح الأربعة لا تريد إلا هذا! فلما أنالها طيشها ما تريد. . . قهقهت. . ثم نظرت إلى السفينة وإلى الملك وإلى الملاحين في القاع. . وولت الأدبار.

ثم هدأ البحر، وانكشفت السحب، وتلألأ القمر فوق صفحة الماء الساجية. . وانتثرت النجوم في قبة السماء. . كأن لم يكن شيء!!

لقد كانت السماء كلها صافية. . إلا من هذه السحابة التي انعقدت في الأفق الشرقي، لتحجب هسبيروس. . كوكب الصباح الحزين. . الذي بح صوته من عليين يدعو صهره أيولوس، رب الرياح، ووالد هلكيون، كي يأمر رياحه فتكف أذاها عن ختنه(*). . لكن صيحاته كانت تضيع في أصوات العاصفة واصطخاب الموج وجؤار الملاحين. . فلم يسمعه ايولوس. . ولعله لم يسمعه إلا لكي يتم القضاء ضربته.

أما هلكيون. . هلكيون المسكينة. . فقد لبثت في قصرها تعد الأيام. . بل تعد الساعات. . وترتقب عودة سيكس. . لقد كانت تصلي للآلهة كلها. . وتقدم لها قرابين كل شيء. . قرابين الورد، وقرابين الرياحين. . تبللها بقرابين الدموع. . وكانت تدعو أرباب الأولمب دعاء حاراً قوياً أن تصون حبيبها وزوجها، وأن تكلأه في

(*) الختن: زوج الابنة أو زوج الأخت.

حله وترحاله.. وأن تصون ذاته.. وأن تصون قلبه كذلك! فلا يقع في حب غير حبها...

لشد ما كان التفكير في ذلك يؤلمها ويخيفها! أيحب سيكس.. هذا الملك الشاب فتاة سواها؟.. إنه ذاهب إلى جزائر الشرق الساحرة... الجزائر الممتلئة بالزهور والعطور.. وبكل كاعب حسناء، وفتانة هيفاء.. وقلوب الرجال حول قلب.. فهل يصبر قلبه لغزوات العيون الجميلة الساحرة في جزائر المشرق؟ وهل يعصم نفسه من عطور الغيد الامالية هناك، فلا يقع في هوى إحداهن.. وينسى هلكيون المسكينة؟

وهكذا راحت الملكة الشابة تفكر.. وتستسلم لوساوسها.. لكنها كانت تستعين على ذلك بالصلاة والصبر.. الصلاة لأرباب الأولمب، ولا سيما لسيدة السماء.. حيرا.. التي كانت تدعوها وتضرع إليها أن تصون زوجها، وأن ترعاه في كل خطوة.. وأن تدفع عنه الضر.. ثم.. أن تصرف عنه سحر بنات المشرق، وأن تبقي قلبه لها وحدها... لا يشركه فيه أحد...

واأسفاه!

إن حيرا سيدة الأولمب لم تستطع أن تلبي من هذه الأماني الحلوة إلا الأمنية الأخيرة...

إنها لم تستطع أن تدفع عن سيكس ضر العاصفة.. ولم تستطع أن تلبي صرخاته وهو يغرق...

لكنها استجابت مع ذاك لهلكيون... فحفظت قلب زوجها لها.. وحفظته لها إلى الأبد..

لقد مات الملك المسكين قبل أن يرى حسان المشرق.. وقبل أن يشم عطرهن... فلتطمئن الزوجة المسكينة!

وطالت صلوات هلكيون.. وكثرت قرابينها لسيدة الأولمب.. فلم تستطع حيرا إلا أن تضع حداً لآلام الفتاة المسكينة.. ولهذا دعت إليها وصيفتها ايريس، ورسولتها إلى أركان الأرض الأربعة، فأمرتها أن تذهب إلى سومنوس، رب النوم، وإله الاحلام، لترجوه في أن يرسل إلى هلكيون إحدى رؤاه الصادقة، وحلمًا من أحلامه التي ترسم الواقع، وتصور الحياة في صورتها التي تجري بها المقادير... لعل هلكيون تعرف ما أصاب سيكس، ولعلها تراه في مرقده من عالم الأشباح...

والتفعت ايريس بثوبها الموشى.. ذي الألوان المائة.. الثوب الخالد الذي لا

يزال يفتننا بقوس قزحه كلما أصابنا وابل، أو أصابنا طل... ثم انطلقت في فضاء المشرق تطوي إلى مثوى سومنوس الرحب.. ذلك المثوى السحيف في جبل الظلمات.. هناك.. هناك.. في مملكة السيماري.. حيث يقيم إله الأحلام في كهفه المظلم الموحش الذي تضرب فيه الأبخرة السوداء والحمراء والزرقاء، والضباب الخانق الكبريتي الذي يصدم الانوف ويثقل على الأرواح، ويزهق الأنفاس... المثوى الذي لا يجرؤ أبوللو على أن يرسل إليه أشعة شمسه، ولا يجسر القمر على أن يلقي عليه صفحة لألائه.. الكهف السحيق الذي لم يهوم عليه منذ آلاف السنين طائر، ولم يتنفس بالقرب منه كائن حي... ولا رفت عنده ورقة واحدة من أوراق الشجر، ولا نجم(*) واحد من الكلأ، إلا أزهار الخشخاش المنتشرة في كل فج.. المثوى المغنم المظلم الذي تضل في رحابه الجن، وتجفل من كرباته الشياطين...

وادي الصمت.. وتيه السكون.. القاع المفزع الذي ينبع من وهدته نهر ليث.. وتتدفق من حفافيه أمواج النسيان.. فتغري أعين الطبيعة بالنوم، وتختم على أجفانها بالسبات...

في هذا التيه المقبض.. حيث لا ترى العين قصراً ولا بوابة ولا حارساً.. يرى الإله سومنوس ممدداً فوق دكة غير عالية من الأبنوس الأسود، غير حالية ولا وثيرة، وإن رفت من حولها ريشات سوداء، وتدلت على جانبيها ستارتان من المخمل الأسود، أهداهما إليه بلوتو، رب الدار الآخرة، حينما زاره قبل مائة ألف من القرون الخوالي.

يرى سومنوس هنا ممدداً، مسترخياً، يغط في نوم عميق.. ومن حوله تميس الأحلام، وتميد الرؤى.. كما تميس سنابل القمح في الحقل الساكن، أو كما تتمايل أفنان الدوح على رفيف نسمة في الغابة النائمة.

إلى هذا الوادي تصل ايريس...

ولا تكاد تقف بباب سومنوس حتى تفرق الأحلام بيديها.. وتنشرها من حولها... وتلقي بما يسّاقط منها فوق كتفيها ورأسيها ذات اليمين وذات الشمال، ومن قدام، ومن خلف.. حتى تصل إلى الدكة.. وهناك تمسك بثوبها الموشى فتقذف به من حولها.. ثم تجعله حول عنقها وفوق صدرها.. وعند ذلك تنبعث منه أضواؤه وألوانه الزاهية، فتنير ظلمات الكهف، وترسل فيها بروقاً جميلة تداعب أجفان

(*) النجم ما لا ساق له من النبات كالحشيش.

سومنوس. . . فيتثاءب الإله، ويوصوص(*) بعينيه، ثم تتحرك لحيته الكثة الطويلة البيضاء فتسقط منها شعرات تلمس الأرض، فتكون فوقها كثلج الشتاء الأبيض إذا تشقق في بواكير الربيع. . .

وتبسم إله الأحلام. . وعرف في ايريس وصيفة ملكة الأولمب، ثم سألها عن مقدمها، فقالت:

«يا سومنوس البار، يا أرحم الرحماء، وألطف الآلهة بالمساكين الأشقياء. . يا نسمة الأمل في قلوب الحزانى، وبارقة الرجاء العذب، في نفوس المعذبين. . . إن حيرا العظيمة تأمرك بأن ترسل حلمًا إلى هلكيون، الثاوية بمدينة تراخين، تصور لها فيه ما ألم بزوجها سيكس، وغرق ملاحيه معه. . . ثم ما تلا ذلك كله، مما لا يخفى عليك. .».

ثم لم تطق ايريس على ابر البرد التي كانت تنفذ من كهف سومنوس في جميع كيانها. . . فاستأذنت، وعادت مسرعة، بعد أن وعد إله الأحلام بإرسال الرؤ يا إلى هلكيون. .

ونادى سومنوس أحد أبنائه الذين لا يحصيهم العد. . هذا الفتى الرشيق الأنيق مورفيوس. . الحول القلب. . الذي يستطيع التشبه بالنار وبالثلج في آن. . وبالسبع المكشر عن نابه. . وبأجمل عرائس الغاب. . الذي يقلد كل شيء. . وينطق بأصوات جميع الخلائق، بعد أن يعرف خصائصهم أجمعين. . إلا أنه مأمور الا يقلد غير البشر لأن تقليد غير البشر كان معهوداً به إلى اخوته الآخرين. .مثل ايكيلوس(**) مقلد الثعابين والطيور والوحوش، ومثل فانتازوس(***) الذي يسحر نفسه فيكون صخراً أو موجاً أو غاباً أو ريحاً أو نهراً أو غديراً أو ما يدب في هذه الأشياء جميعاً من الأحياء. . وكان هؤلاء الثلاثة موكلين بأحلام الملوك والأمراء، ومن في رتبتهم. . أما العامة، فكانوا من نصيب اخوتهم الآخرين.

وطار مورفيوس في الهواء سرياً. . دون أن يحرك نسمة، أو يحدث فيه ركزاً. . حتى أتى قصر هلكيون، التي كانت تتقلب في فراشها قلقة موزعة اللب، تذهب بها الوساوس كل مذهب. . فلما رآها كذلك أرسل عليها أمنة وسكينة. . فاستسلمت لسبات عميق.

(*) يفتحها قليلاً.

(**) Icilus

(***) Fantazus

وعندئذ سحر موفيوس نفسه، فكان في صورة زوجها المتوفى، وطبق سمته.. وقد وقف أمام وجهها وقطرات الماء تساقط من خصل لحيته، فتتدحرج فوق صدره المبلل، أو تغيض فيه، ثم انحنى فوق الوجه الجميل النائم، والدمع يترقرق في عينيه وطفق يقول:

««هلكيون.. يا زوجتي البائسة! أتعرفين من أنا؟ ها أنذا.. زوجك التعس الذي لا أحسب الموت قد غير من شكلي كثيراً.. ألا حدقي في هذا الطيف الماثل أمامك، الطيف.. أتسمعين..؟ إنه طيفي! أجل! جئتك بطيفي لا بشخصي، فأنا الآن من المغرقين.. إن صلواتك لم تجد فيّ نفعاً في أطباق الموت.. هناك.. في ظلمات بحر ايجه.. فلا تعودي تخدعين نفسك بكثرة الأماني.. فلن يعود إليك سيكس... لأنه غصّ بالماء، وشرق بأمواج البحر، وغاصت سفينته بملاحيها في أعماق اليم.. وهذا نبأ أليم لم تكوني لتعرفينه من رسول يأتيك فيثير فيك الشك، ويسلمك إلى الوسواس... فآثرت أن أحضر إليك بنفسي لأبلغك ما ختم به القضاء حياتي، ووضعت به المقادير حداً لسعادتنا.. فقومي يا زوجتي الحبيبة.. هبي من نومك واذرفي الدموع على زوجك المسكين، واندبي الرجل الذي أحبك وقدرك وقدسك... ولا تدعيه يمضي إلى تارتاروس دون أن يبكي عليه أحد، ودون أن يحزن لفقده أحد، أو أن يقدم أحد شيئاً من القرابين إلى روحه الشاردة التي تجوب الرحب، وتخبط في الهواء، بين الأرض والسماء، دون أن تهتدي إلى شفيع، من عمل صالح يبذله لها أخ أو حبيب أو صديق، فينير سبيلها إلى أبواب النعيم.. اليزيوم.. اليزيوم يا أعز الناس علي.. الفردوس.. الفردوس الذي أرجو أن نلتقي فيه، فنصل نعيمنا الذي انقطع، وسعادتنا التي توقفت، وحبنا الذي يبكي!

«هلمي يا هلكيون إذن.. واسقي أحزاننا دموعك الكريمة الرحيمة.. ثم قربي إلى إله هيدز ما يسعك من تقدمات واضحيات، حتى يفتح لنا أبوابه، ويمهد لنا السبيل إلى عالمه الفسيح الرهيب.. عسى أن تستقر هذه الروح الشقية المعذبة، وعسى أن يؤذن لها فتلج أبواب اليزيوم».

ثم سكت الطيف.. وتحرك ليعود أدراجه.. فمدت هلكيون ذراعيها لتعانقه، وهي تصرخ... وتستغيث.. لكنها ما عانقت إلا هواء.. فعادت تصرخ.. وتقول:

«قف.. قف يا حبيبي.. إلى أين؟ ماذا تقول؟ غرقت؟ وهذه روحك؟... واأسفاه! يا للرؤيا المزعجة! لا أصدق! إن كان هذا صحيحاً فانتظر حتى نذهب سوياً.. خذني معك.. خذني..»

ثم صرخت صرخة مدوية فاستيقظت على صوتها، ورأت نفسها لا تزال تمد ذراعيها لتعانق الطيف الذي كان يكلمها.. فهبت من فراشها مسرعة، وجعلت تنظر حواليها كأنما تبحث عن الطيف.

وكان صراخها قد أيقظ الخدم، فأقبلوا مسرعين وفي أيديهم المشاعل.. لكنهم وجدوا سيدتهم تخمش وجهها وتضرب صدرها وتشد شعرها فتقطع منه خصلاً تلقي بها هنا.. ثم تلقي بها هناك.. وهي تبكي تارة.. ثم تهذي تارة أخرى.. والخدم واقفون مذهولين مشدوهين لا يدرون ماذا يقولون.. حتى لم تجد وصيفتها المخلصة، وأقرب أهل القصر إلى ذات نفسها، بداً من أن تسألها عما هنالك.. فتجيبها هلكيون: «أتريدين أن تعرفي؟ إذن.. فالملك قد أودى، لقد غرق سيكس! ولقد زارني طيفه الساعة! مبللاً بماء البحر! وكان يبكي! أتسمعين؟ لقد كان يبكي، وطلب إلّي أن أبكيه، وأذرف عليه صيب دموعي، وقال إنه يحُزنه ألا يكون له بواكٍ، ويحزنه ألا يعلم بمصيبته أحد، فجاء ينبئني بها بنفسه.. ولكن.. في الحلم.. لقد كان هو الذي يكلمني.. ولقد حاولت أن أضمه إلى صدري.. لكنه كان طيفاً.. طيفاً عابساً تترقرق الدموع في عينيه.. ذهب عنه جماله.. وغاب عنه ريعانه.. وكان يقف هنا.. في هذا المكان.. وكان يكلمني مبتئساً.. حزيناً.. يطلب إلّي أن أبكيه وها أنذا أبكي.. فابكوا جميعاً معي.. وليبكِ معي كل أحبائه، والأوفياء له.. ابكوا.. ابكوا سيكس الجميل.. سيكس الملك الشاب البار الوفي.. حبيب الضعفاء.. وناصر العدالة...».

ثم أغمي على هلكيون لحظة، فلما أفاقت عادت إلى نحيبها ولهفتها، وطفقت تذكر ما كان من أمرها معه قبل أن يبحر، وطلبها آليه أن يأخذها معه لتلقى نفس المصير الذي لقي..

وأجهش الجميع بالبكاء.. وانهمرت العبرات من الأعين الحزينة المفجوعة.. ثم هبت نسمات الصبح.. فهبت هلكيون المسكينة، والتفعت شملة سوداء فضفاضة.. ثم يممت نحو شاطىء البحر.. نحو المرفأ الذي همت منه السفينة حاملة زوجها.. فلما بلغته، وقفت تنظر ولا تتكلم.. لقد كانت روحها هي التي تستعيد الذكريات، وكانت تستعيدها بلغة أفصح من تلك الكلمات التي تزخرفها الألسن، فتعطل ما يدور في النفس من معانٍ..

لقد كانت روحها تقول: «هنا.. منحني آخر قبلة.. وهنا.. كانت المقادير تخفي عن كلينا ذلك الرزء.. وكانت أعين الطبيعة كلها ترنو إلينا.. فيا ترى؟ هل كانت تعرف؟ وهل هي حزينة علينا الآن...».

ثم سكتت الروح الشقية قليلاً، وعادت تقول: «لكني أقف الآن وحدي... سيكس ليس معي.. لقد غرق.. ومات.. ليتني كنت معه! أو.. ليته يأتي الآن، ليشهد أحزاني».

ولم تكد هلكيون تتمنى تلك الأمنية، حتى شهدت شيئاً صغيراً يتأرجح على صفحة اليم في غبشة الصبح..

شيئاً صغيراً يطفو، ثم تأتي موجة صغيرة فتغسله.. وتجعله تحتها لحظة.. ثم تنساح عنه.. فيطفو مرة أخرى...

وتذهل الروح المحزونة، وتصرخ هذا الصراخ الصامت الساكت، وكأنها تقول:

«وي! هذا غريق آخر.. مسكين غرق كما غرق سيكس.. فهل كانت له حبيبة تفجع فيه كما فجعت هلكيون؟»

لكن الجسم الذي يتأرجح يستدير فتكون رأسه قِبَلَ الفتاة.. ثم هو يقدم نحوها.. كأنما تدفعه يد الغيب.. أو يد إله رحيم.

وتشعر هلكيون أن أصواتاً خافتة توسوس في أذنيها بكلام شفيق رقيق كأنه يقول:

«هلكيون.. إنه سيكس»

وتسري في جسمها رعدة خفيفة أول الأمر.. ثم تشتد الرعدة فتكاد تخلع قلبها... بل تكاد تنتزع روحها انتزاعاً...

إن الجسم يقترب، ثم يقترب...
وإنها لتتبين فيه معالم الزوج الحبيب...
ولقد اقترب الآن كثيراً...
إنه هو.. ولم يعد في ذلك شك!
«ويلاه! أهكذا تعود إليّ يا سيكس؟ أهذا هو ما وعدتني يا أحب الناس؟»

* * *

ما هذا؟...

لقد وثبت هلكيون فوق حاجز الماء وثبة شديدة، لتقذف بنفسها في الماء.. كي تستقبل الجثمان الحبيب.. لكنها ما كادت تفعل.. حتى رآها خدمها تتحول في الهواء فتكون طائراً أبيض طويل العنق.. يخفق الهواء بجناحيه، ثم يدوم حول جثمان

سيكس.. ثم يقترب منه.. ثم يهوي بمنقاره فوق الجبين الشاحب المبلل كأنه يقبله.. ثم يضم الجثمان بجناحيه العظيمين.. فتحدث المعجزة الثانية.. عجيبة العجائب!!

إن الجثمان ينتفض من الماء، فيكون طائراً أبيض يشبه هلكيون، ثم إذا هو يرف في الهواء بجناحيه.. ثم إذا هو يعانق هلكيون الحبيبة عناقاً طويلاً.. سعيداً... يعانقها بجناحيه وبعنقه.. ثم هو يقبلها قبلاً طويلة...

ثم يتجه الطائران نحو الخدم الواقفين فوق الشاطىء فيحييانهم.. تحية الوداع..

ثم يطيران فوق الشاطىء قليلاً...

ثم يتجهان نحو البحر.. ويطيران.. ويطيران.. حتى يغيبا في زرقة الأفق..

* * *

وهكذا شاءت الآلهة...

لقد ردت الروح إلى سيكس.. وهو إلى اليوم يعيش مع زوجه(*) في أعشاش سعيدة تسبح فوق صفحة اليم.. وحينما تسبح هكذا.. يسعد الملاحون.. ويفرح الناس.. ويكثر الخير.

(*) طائر الهالكيون، هو ما يطلق عليه العرب: الغطاس أو صائد السمك، أو القاوند.

الحب... فيلسوف أعمى!

رآها تتلألأ كنجمة الفجر في ساحة الألعاب الأولمبية، فجن بها غراماً.. واعتزم أن يخطبها إلى أبيها، إذا عرف من هو... وانتظر حتى يفرغ المتبارون من العابهم ليتقدم إلى والد تلك الفتاة فيجعلها ملكة كريت، ودرة أعظم العروش في البحر المتوسط، وكان قلبه يخفق، ويحدثه من حوله فلا يدري ماذا يقولون، ولا كيف يجاذبهم أطراف الحديث، لأنه كان عنهم في شغل، بهذا الحب الغامر المفاجىء، الذي جرى مع النظرة الأولى في كل قطرة من دمه...

لكن الألعاب تنتهي، وينظر مينوس العظيم، ملك كريت، فلا يرى أثراً للفتاة التي فتنته، ولا يدري أين ذهبت، وذهب أهلها في وسط هذا الزحام الذي كان أشبه بأمواج البحر المصطخب...

ويزيد في محنة الملك العاشق، مينوس، ملك كريت، أن اليوم كان آخر أيام الألعاب الأولمبية، فلا أمل في أن تعود الفتاة إلى ساحة الملعب، أو أن يعود أهلها... فيا لآلهة الأولمب من هذا الحب الذي لا يرحم، والذي يهاجم القلوب الغضة، ثم يمضي عنها ليصبح حلمًا من الأحلام، لا يملك المحبون له تأويلاً...

* * *

ثم تمضي الأيام.. ولا يبرح طيف الفتاة يداعب خيال الملك... بعد أن أصبح بينهما بعد ما بين السموات والأرض... لأنه بعد اليأس الذي لا رجاء فيه. وكان مينوس يتمنى لو أن حادثاً عظيمًا يقع، فيشغله عن حبه الذي انقلب فصار وسواساً يضطرب في قلبه، ويعربد بين جنبيه، حتى يدخل عليه وزيره فينبئه بأن ملك ميجارا قد أهان سفير مينوس، وأنه قد أمر بالقبض على جميع الكريتيين في بلاده والزج بهم ظلمًا وعتوا في غيابات السجون، ولماذا؟ لا يدري غير رب السموات!

وثار ثائر الملك.. وفشلت كل الوسائل السلمية في اعادة الصواب إلى رأس

ملك ميجارا فأخذ ملك كريت يستعد لحرب طاحنة طويلة الأمد، وراح يحشد من الأساطيل ما يكفي لحمل الدار الآخرة نفسها إلى ميجارا.

أما الملك نيزوس، ملك ميجارا، فقد كان رجلاً شجاعاً، جريء القلب، لكنه رأى فيما يرى النائم أن أفعى خبيثة تخرج من بيته، فيقدم الخراب في صورة رجل قاطع طريق من كريت، فيدخل البيت، ويعيث فيه، ويجعل عاليه سافله، فيذعر الملك نيزوس، ويهب من نومه ليدعو إليه الكهنة، ومؤولي الأحلام.. لكن أحداً منهم لا يستطيع أن يؤول هذا الحلم المزعج، فيهيج هائج الملك، ويأمر بما أمر به من القبض على أفراد الجالية الكريتية جميعاً، والزج بهم غيابات السجون، حتى لا يدخل قاطع طريق منهم القصر الملكي، ويتم تأويل الرؤيا المزعجة التي أقضت مضجع الملك.

على أن نيزوس لم يسكت عن هذه الرؤيا، ولا أيس من تأويلها، بل أرسل رسله إلى دلفي، وأرسل معهم الهدايا والقرابين، عسى أن يعبروها له.. ولكن الرسل عادوا بتفسير لم يستطع الملك أن يدرك كنهه.. فقد قالت لهم كاهنة أبوللو: «إن ميجارا لن يصيبها سوء، ولن تسقط في يدي عدو، ما دام الملك محتفظاً بتلك الخصلة الأرجوانية من الشعر في رأسه.. ألا فليحرص الملك على تلك الخصلة الأرجوانية.. فقد سطر في ألواح القضاء أن ميجارا تسقط إذا سقطت تلك الخصلة.. تكلم الإله، فلتسكت الألسن».

ولم يكن الملك نيزوس يدري أن المقادير تهزل إلى هذا الحد، فتربط بين مستقبل مدينة وبين خصلة من الشعر أرجوانية اللون تزين مفرق الملك البائس الذي يستوي على عرش تلك المدينة.. لكنه لم يسعه إلا أن يحرص عليها، بل أن يحرص على شعره كله من أجلها.. أما الأفعى التي خرجت من قصره في رؤياه العجيبة، فلم تتعرض لها كاهنة دلفي بخير أو شر، ولا قليل ولا كثير. ولذلك لم يعنِ الملك بشأنها.. ظناً منه أنها شر خرج من داره.. وصرفه عن التفكير في أمرها تلك الأنباء التي جاءته تترى بأن مينوس ملك كريت قد أقلع بأساطيله التي تحجب ثبج البحر، قاصداً شطآن ميجارا.. فلم يشك نيزوس في أن مينوس يقصده، فسارع إلى اختزان ما يستطيع بشر أن يختزنه من ميرة وذخيرة وعدة حرب، وعمد إلى أسوار المدينة فأعلى أبراجها، وضاعف جدرانها، وجعل حولها الخنادق الواسعة العميقة، ثم عمد إلى جيشه الباسل فدرب فرقه وكواكب فرسانه على الكر والفر، والصولان والجولان.

ثم وصلت أساطيل مينوس، ونزلت جيوشه الكثيفة الجرارة فناوشتها جيوش

نيزوس، وحدثت بين الفريقين مقتلة كبيرة لم يظهر فيها أحد الخصمين على الآخر.. ثم ظلت الحرب سجالاً هكذا حتى مرت أيام طويلة آثر نيزوس بعدها ألا يخوض جنوده الميدان، وأن يظل جيشه محتمياً وراء أسوار ميجارا، محاولاً بذلك أن يدب اليأس في قلب مينوس، وأن يطول عليه الأمد، فينسحب بجنوده خائباً مخذولاً.. إلا أن مينوس لم يقنط قط من أن تتم له الغلبة على عدوه، فظل يضرب أشد ألوان الحصار حول خصمه حتى مضت أشهر ستة. ذاق فيها الأمرين من قسوة الجو، وقلة المدد، ووشك تململ جنوده من طول ما اغتربوا عن أوطانهم، وابتعدوا عن أبنائهم، فأخذ الملك العنيد يفكر في الرحيل..

وكانت لنيزوس ابنة من الخفرات البيض، يترقرق الحسن في اهابها المورد الناعم، اسمها سكوللا، كانت تحب الخلوة، وتؤثر العزلة في هذا البرج الشاهق المنفرد من أبراج المدينة، تطلع منه على جيش مينوس اللجب، الذي تنتشر خيامه على مدى البصر حول المدينة.. وكان قلبها يتفطر في أول الحرب، كلما رأت جيوش أبيها تصطدم كالجن بجيوش الأعداء، فتجري الدماء أنهاراً من كلا الفريقين، وتصطبغ الساحة بهذا اللون الأحمر الكريه من الدم البريء.. منظر كان يثير في قلبها الأسى، ويشب بين جنبيها الفجيعة... وكان يزيد في أساها، ويضاعف أحزانها، أن أباها هو الذي أثار هذه الحرب، لما هجس في روعه من هذا المنام الغريب.. وقد سرها آخر الأمر أن تمتنع جيوش أبيها وراء الأسوار، فتقف رحى الحرب، وإنْ كانت آفات الحصار أشد فتكاً وأنكى، ثم أخذت تتسلى بعد ذلك بمنظر جنود مينوس وهم يتدربون على فنون القتال في الساحة الشاسعة، مزهوين بأسلحتهم اللامعة، ودروعهم البراقة، وخوذاتهم التي تخطف الأبصار بهذا السنا المنعكس عليها من شمس الضحى، وشمس الظهيرة، وشمس الأصيل، وكانت سكوللا، لطول اشرافها على الساحة، قد أخذت تتبين شخصيات كبار المقاتلين.. وكان أشدهم استحواذاً على اعجابها، هو مينوس نفسه، فقد كان يجيء ويروح في شكته العسكرية كأنه أبوللو نفسه، نزل من سمواته العلى ليقود هذا الجيش.. فاذا اعتلى صهوة جواد، فهو أرشق من أخيل حركة، وأسبى من أدونيس لفتة، وأشد جاذبية من جانيميد!

ثم استحال الاعجاب فصار ميلاً.. واستحال الميل.. فصار.. ماذا؟.. ثم لم تمضِ أيام حتى عرفت سكوللا أنه الحب.. قد تنفس في قلبها.. الحب العجيب الذي يجيء منسجماً في كل أحواله، ثم يأبى إلا أن يجيء متناقضاً حين يغزو قلب سكوللا.. فيجذبها في كل هذه القوة، وجميع ذلك العنف، إلى الرجل

الذي جاء بجيوشه ليذل أباها، ويغزو وطنها، ويجعل أنوف عشيرتها في الرغام.

ومضت الأيام.. وكان هذا الحب الخبيث المتناقض يزفر كريح الجحيم في قلب سكوللا... وكانت لا تبرح مجلسها من البرج المنيف الشاهق إلا لحاجة تقضيها من أكل أو نحوه... ثم تعود لتستملىء من منظر مينوس الحبيب يزجي عساكره، ويختال كالأسد بين الصفوف، ويمازح القادة ويسدي إليهم نصائحه.. وكان حبه يلفحها إذ ذاك، فتحسد الحربة التي يلاعبها بيمينه، وعنان جواده الأبيض الذي يداعبه بشماله...

ثم استبد بها حبها العنيف فكان يخيل إليها أنه لا ضير عليها من أن تقذف بنفسها من برجها الشاهق فتكون عند قدمي حبيبها كلما مرّ قريباً من مكانها، كي تلثم التراب الذي تثيره حوافر هذا الجواد الأبيض السعيد...

ثم يطغى الحب ويتجبر، فيخيل إليها أن تهبط إلى البوابة الكبرى فتفتحها في غفلة من أعين الرقباء، فتنطلق إلى حبيبها فتقبل الأرض بين قدميه.. لكنها كانت تشم ريح الخيانة... وريح الخيانة الكبرى.. في هذا الذي يخيل إليها أن تفعل، فتجفل، وترتعد فرائصها.. فتغطي عينيها بكلتا يديها، وتجهش، ثم تستسلم إلى بكاء شديد.

ثم يتمرد الحب، فيفقد عينيه، ويكون فيلسوفاً.. ويلقي في روع سكوللا بمنطقه السقيم الذي لا يستقيم.. فها هو ذا يقول للفتاة إن هذه الحرب عبث لا معنى له، واستبداد ملوك لا يفهمون، وطغاة مخرفين لا يبالون بهذه الأرواح، التي تستشهد، والمهج التي تذوب، والأطفال الذين يفقدون عائليهم، والأمهات اللآئي يثكلن أبناءهن والزوجات اللاتي يترملن في زهرة حياتهن.. وإنه لا بد من وضع حد لكل هذا.. وما دام أبوها يتمسك برأيه في المضي بهذه الحرب إلى نهايتها.. ونهايتها المحتومة.. وهي خضوع ميجارا حينما تفرغ أقواتها خضوعاً تاماً، فتستسلم لعدوها من غير قيد ولا شرط فيبيد القادرين من أهلها على حمل السلاح، ويأسر الأطفال، ويسبي النساء، ويذهب بالأسلاب، ثم يهدم المدينة على رؤوس الضعفاء والمرضى والعجزة، ويمضي عنها بعد أن يتركها أثراً بعد عين.. فلماذا لا تتدارك سكوللا كل هذا.. فتمضي إلى أبيها الذي يغط في نومه العميق بعد أن ينتصف الليل، فتقص تلك الخصلة الأرجوانية من شعره، والتي ترتبط بها مصائر ميجارا المحاصرة، كما زعمت كاهنة دلفي الحمقاء؟ ثم تمضي بعد ذلك فتفتح بوابة المدينة، وتذهب لتلقى مينوس، وتقدم إليه تلك الهدية الثمينة، فتكون عربون حبها له، وعنوان وفائها لشخصه الذي ملأ عينيها وقلبها وروحها، وتدفق بالحب في كل قطرة من دمها..؟

ولا تفكر سكوللا كثيراً، فقد أقنعها حبها.. هذا الفيلسوف الأعمى.. بتلك المغامرة، فأسرعت إلى غرفة والدها البائس، فقصت الخصلة، وهبطت إلى البوابة ففتحتها، في غفلة من حراسها النائمين، ثم دلفت وسط معسكر العدو حتى كانت عند الخيمة الكبرى.. وهناك لقيت رئيس الحرس، فأقنعته بضرورة لقاء الملك، لأنها جاءت لتسلمه المدينة.

وأمر الملك باحضار الفتاة.. وكان ساهراً يدرس خطة الانسحاب المر، في فيض من أضواء الشموع.. فلما رآها لم يكد يستقر في مقعده.. وشعر كأنه يستيقظ من حلم قديم.. ثم لم يملك إلا أن صرخ من أعماق قلبه: «أنت.. أجل.. هي أنت.. أنت حسناء الألعاب الأولمبية بنفسها.. وهذا هو وجهك.. وهذه هي ملابسك.. وهذا هو جمالك القديم لم يزدد إلا فتنة.. هلمي.. هلمي.. مرحباً بك يا...» ولم يستطع أن يكمل، لأنه لم يكن يعرف اسمها، فتبسمت وقالت: سكوللا.. ابنة نيزوس.. ملك ميجارا.. فهل كنت تعرفني.. وتحبني أيضاً؟» وأحس الملك كأن يداً باردة تمس جانب قلبه، فتساءل:

«سكوللا، ابنة نيزوس، ملك نيجارا؟ وماذا تريدين يا بنيتي؟»

وقالت سكوللا وهي تجيبه: «إن كنت قد أحببتني وأنا لا أعرفك.. فقد أحببتك وأنت لا تعرفني.. لقد رأيتك من فوق أسوار ميجارا فهمت بك.. وجئت لأسلمك مدينة أبي».

ثم قصت عليه قصة حبها وقصة الخصلة الأرجوانية.. فريع الملك.. وأحس كأن يد الخيانة الباردة كالثلج تمتد مرة أخرى فتكاد تنتزع قلبه.. فصاح بالفتاة:

«ويلك يا خائنة! تعست من حبيبة، وتعست أنا من محب!.. جئت لتسلميني أباك وأهلك ووطنك.. وظننت أن هذا يكون وفاء، ويكون أول ما أعرف منك؟.. أغربي.. أغربي يا شقية.. اقبضوا على المجرمة.. اقبضوا على الخائنة.. ويلاه!! لقد رأيت أمس في المنام أنني أتسلم ميجارا من يد أفعى فخفت.. وصممت على الانسحاب!!»

ورأى أحد قواد مينوس باب المدينة الكبير مفتوحاً فلم ينتظر أمر الملك، بل أمر هو بالهجوم.. واستيقظ نيزوس على أصوات الهرج في المدينة.. ولم يلبث أن كشف سر خصلة الشعر الأرجوانية فجن لساعته.. وراح يصيح ساعة وهو يقول:

«إذن فابنتي هي الأفعى.. اقتلوها.. اقتلوها»

ولكنهم لم يقتلوها.. فقد أرادت الآلهة الهازلة أن تضع حداً للمأساة.. فسحرت نيزوس نسراً كبيراً.. وسحرت سكوللا عصفورة بيضاء من عصافير البحر. لا يزال النسر إلى اليوم كلما رآها ينقض عليها.. ويمزقها ارباً..

أما ميجارا.. فقد سقطت.. ولكن بعد أن جن مينوس هو الآخر حزناً على سكوللا!

عذراء المعبد

كن ستاً من العذارى الجميلات.. النقيات كأوراق الورد.. يتبادلن الخدمة في معبد فستا ـ أو هستيا كما كانوا يدعونها قديماً ـ فتقف كل منهن شطراً من النهار، أو هزيعاً من الليل، تلقي في النار المقدسة سلسالاً من زيوت العطور المختلفة، ورقائق من أخشاب الند والعود والصندل، ليظل اللهب المبارك مشتعلاً ليلاً ونهاراً.. وإلى الأبد.. لا يخبو ولا ينطفىء والبخور العطري ينتشر في أجواء المعبد، ويمتزج بتسبيح الراهبات الجميلات، وأناشيد المصلين والمصليات، وموسيقى الأولمب المباركة، التي كانت تنسكب مع الدموع، من كل جفن، وتجري مع الدماء في كل قلب، تواسي ذوي الحاجات وتداوي أوجاع اليتامى والايامى والمحزونين.

وكانت التي تنتهي من نوبة العمل بالنهار، تنطلق في الأصيل إلى الحقول الخضر، والمروج المزهرة، لتنتقي بأناملها الجميلة الرقيقة ما تلقي به في نار فستا إذا جفّ، وما تظل به هذه النار المقدسة حية متأججة إذا يبس.

وكذلك كانت تفعل من تنتهي نوبة عملها بالليل.. فتنطلق في الصباح الباكر، لتنتقي بيديها رقائق العود والصندل لتطعم بها نار فستا.

وكان الناس يجتمعون حول المعبد ليسعدوا أنظارهم برؤية الراهبات الشابات وهن خارجات في الصباح أو المساء لجمع الأعواد العطرية، كما كان الآباء والامهات والعرائس يجتمعون ثمة التماساً لبركة الربة العظيمة فستا.. تلك المليحة التي هام بها أرباب الأولمب جميعاً، وذاقوا من حبها ألواناً، وحاول كل منهم أن تكون له زوجة وفية نقية، فكانت تعتذر دائماً.. ولا تنفك تصلي لأبيها كبير الآلهة، زيوس سيد الأولمب، لكي يتأذن فيأمر بأن تظل عذراء حياتها كلها، فاستجاب لها، وقضى بالا تتزوج وأن تبقى بتولاً.. فتكون للناس كلهم أما رؤوما، وأن تكون ربة للسعادة المنزلية، والهناء العائلي، وحامية لأواصر المحبة بين الأزواج والزوجات، والآباء والأمهات، فحمدته فستا وأثنت عليه، واتخذت لنفسها منذ ذلك اليوم رمزاً هو تلك المدفأة السعيدة التي تجمع حولها الاسر المباركة لتصطلي في

الشتاء، وتنعم بأزج بخورها المعطر في غيره من الفصول. . . وفستا منذ ذلك اليوم تدخل كل بيت غير مستأذنة، وإن لم يرها أحد، فترف بكل قلب، وتخطر بكل جانحة. . تجمع الشمل، وتضم الألف، وتحفظ علائق المحبة، وترأب صدوع التفرقة بين الزوجة والزوج، وتربط أسباب المودة بين الآباء والبنين. . ولذلك أحبها الناس، وعرفوا لها قدرها، ولذلك كانوا يبكرون فيذهبون إلى معبدها لرؤية راهباتها العذارى الست تفاؤلاً بذلك واستبشاراً.

أما أولئك العذارى الست فكن يخترن منذ الصغر من أجمل جميلات البشر، ومن خلاصة الخلاصة من أرقى الأسر، ثم يرسلن إلى المعبد في سن السادسة ليؤدبن ويهذبن، ويلقن دروس الرهبنة في عشر سنوات. . ثم يخدمن الربة ويسهرن على نارها عشر سنوات أخر. . فإذا فرغن من ذلك بقين عشر سنوات ثالثة ليعلمن الراهبات الصغيرات. . . فإذا انتهت هذه السنون الثلاثون، وبلغت كل منهن ستة وثلاثين عاماً، عادت إليهن حريتهن. . وأصبح لهن الخيار، فإما تركن المعبد، واما أقمن به ليصلن هذه الحياة الخالصة لوجه فستا.

* * *

وكانت توسيا، إحدى الراهبات الست، ذات جمال غرير باسم، ضوأت به يد القدرة وجهها، ووردت بمائه خديها، وسكبت منه في كل جارحة من جسمها ألواناً من المفاتن. . وكان في عينيها العميقتين المترعتين بالسحر صفاء يشبه صفاء هذا اللهب المنبعث من نار فستا المقدسة. . ولذلك كانت تحاول دائماً ألا تنظر إلى ذلك الشاب الجميل الفاره، الذي كان أسبق الناس جميعاً، بكرة كل يوم، وقوفاً في سبيلها، واعتراضاً لطريقها، كلما ذهبت إلى المروج الخضر لتجمع رقائق العود، وأعواد الصندل التي تلقي بها في نار فستا. . لقد كان هذا الشاب آريو يهواها. . وكان يعرف أنه لا ذنب له في هذا الهوى، لأن السحر في عيني توسيا، وليس السحر في عينيه هو. . وكان يعرف أيضاً أنه ربما ألقى بحبيبته إلى الهلاك الذي ليس مثله هلاك إذا هو باح بحبه، أو قال لأحد من الناس أنها تهواه، فعند ذلك يقضي على توسيا. . لأنها تكون قد نقضت مواثيقها لفستا ربة المدفأة، وربة كل حرارة تسري في قلب إنسان. . ذلك أن من أقسى المواثيق لفستا أن تظل أرواح راهباتها وقلوبهن طاهرات نقيات، لا تعرف الحب إلا لفستا حتى لا يصرف هذه القلوب شيء عن محبتها والاخلاص لها والفناء فيها، حتى يبلغن السادسة والثلاثين فتعود إليهن حريتهن. . يحببن من شئن، ويتزوجن إذا أردن. . فماذا تصنع توسيا؟ وهذا الفتى آريو يلقاها كل صباح فيبكي، ويذري بمرآها أدمعه، وهي كلما لقيته

ألقت عليه نظرة خاطفة، ثم تشيح عنه، وتستخفي منه خوفاً من المصير المحتوم الذي لا بد منه لمن تحنث في مواثيق فستا.. لقد كان يلقى بها في قبو موحش لتموت فيه ظمأ وجوعاً.

وكانت توسيا، بالرغم من كل هذا الاستخفاء من آريو، تسمع لحبه وسوسة في قلبها.. وكان أشد ما يخيفها أن يبدو في عينيها ما تنطوي عليه جوانحها من أوليات هذا الحب.. فلم تكن تملك كلما كلمت أحداً، أو كلمها أحد، إلا أن تغضي، ولا تنظر بعينيها في عيني أحد، حتى لا ينكشف أمرها إذا لمح أحد في عينيها امارات هذا الحب.. لقد كان من المحتمل إذا أمعن أحد النظر في عينيها أن يرى صورة آريو، وهذه هي معجزة هاتين العينين الساحرتين.. أو المسحورتين ولا يعلم إلا خالق المعجزات لماذا جعل لهاتين العينين تلك المعجزة؟ ترى! هل جعلها لتلك الراهبة الجميلة التي لم يكن أحد يملك إلا أن يتعشقها بل يتعبدها، إذا وقعت عيناه على عينيها لكي يعذبها بها، ولكي يعذب كل من يهواها بحبه لها.

كان آريو يعرف ذلك إذن.. وكانت توسيا ترثي له، وتتوجع من أجله.. لكنها لم تكن تملك إلا هذا الرثاء وذلك التوجع.. ومن هنا كان شقاء هذا الحب الذي جعلته المقادير حباً شائكاً لا شبيه له، لأنه حب يلقي بالحبيبة في مهاوي الهلاك، إذا هو بدا في عينيها، في نظرة أو في وجهها، في إشراقه.. أو في شفتيها، في ابتسامة تفضح ما في القلب، وتعلن عما في الجوارح.

فيا للسماوات ما أشد شقاء توسيا.. ويا للسموات ما أحر تلك الجحيم التي تتلظى في فؤاد آريو.

لقد كانت توسيا تحاول دائماً ألا تفكر في آريو فكانت محاولتها تضاعف تفكيرها فيه.. وكان هو يحاول ألا يعترض سبيلها، وأن يكتفي بأن يراها على بعد، لكنه كان إذا لاحت له رأى نفسه ينجذب إليها فيكون عندها في غير قصد، وقريباً منها في غير وعي..

لهذا كانت توسيا كلما بدأت نوبتها في خدمة النار المقدسة لا تفتأ تبتهل إلى فستا المباركة وتصلي لها، وتضرع إليها أن تحفظ روحها من الرجس، وتصون نفسها من الدنس، وألا تحبط أعمالها الصالحة، وجهادها الطويل، من أجل هذه الاشراقة الهينة من فجر الحب الوردي الذي أشرق في جنبات قلبها، وتنفس فيها أنفاسه المعطرة فملأه بالأحلام العذرية السعيدة.. وكان اللهب المقدس يرسل شرراً خفيفاً لطيفاً أثر كل صلاة فتعرف توسيا أن الربة المباركة قد لبت دعاءها واستجابت

لرجائها، فتبتهج، وتطرب طرباً شديداً ثم لا تملك إلا أن تسكب لآلىء دموعها حمداً وشكراناً.

وكان آريو.. وما أطول عذاب آريو.. قد لقي من حب توسيا ما لقي.. حتى جن عقله وضاع صوابه، وخف حلمه.. وكان ذلك في السنة الأخيرة الباقية لتوسيا في خدمة الدير.. وكان لسانه قد انطلق فلم يعد يلهج إلا باسمها ولا يهتف إلا بالشعر الرقيق الحلو ينفس به عن حبه، ويبرد به عن حشاه.. وكأنه قد نسي ما عرف به من قبل من ارتباط حبيبته بتلك المواثيق الصارمة التي يجب عليها أن ترعاها وإلا هلكت، وهلك هو معها، كأنه نسي ذلك. فكان يؤلمه أشد الألم ألا تكلمه، وألا تنظر إليه، بالرغم من كثرة الفرص التي كانا ينفردان فيها فلا يراهما أحد، ولا يشعر بوجودهما ديار.. وكان كل ما يتمناه آريو أن تكلمه ولو كلمة واحدة يعرف بها إذا كانت تبادله حباً بحب. وعبادة بعبادة.. لكنها كانت تصمت صمتاً شديداً جامداً.. وإن كانت كل جوارحها تقول له بعد ذلك إنها تحبه..

وكان آريو يعرف كاهناً جليل الشأن موفور الوقار من كهنة المعابد القريبة، وكان يخلو إليه فينشده بعض ما ينظم من أشعاره في حب توسيا.. وإن لم يصرح باسمها فيما ينظم.. حتى كان هذا العام الأخير الذي تبقى لتوسيا في خدمة المعبد.. فخلا آريو إلى الكاهن يوماً.. في ظل شجرة فينانة من أشجار الوادي المبارك الذي يقوم معبد فستا على أحد جانبيه، لينشده قصيدة جديدة نفث فيها مواجع فؤاده، وبثها آلام قلبه وتباريح حشاشته، وذكر فيها اسم توسيا.. وذكره صريحاً في غير تورية.. وهنا استوقفه الكاهن ليسأله عما إذا كانت توسيا هذه هي تلك الراهبة النقية التقية البريئة من راهبات فستا؟ فلما اعترف آريو بأنها هي، أخذ الكاهن ينصحه بألا يلهج باسمها أمام أحد حتى لا يكون مصيرها الموت صبراً.. ولكن آريو ينتفض انتفاضة شديدة، ثم يشرع في قص قصة غرامه على الكاهن الطيب الذي يرحمه ويرق له، ولا سيما بعد أن يعلم أن توسيا النقية التقية الطاهرة لم تكلم الشاب الشقي ولم تشجعه بنظرة أو ابتسامة أو حتى اشارة تؤكد له بها أنها تحبه.. وكان الكاهن يعرف سبب صمتها، فأخذ يشرحه لآريو. آريو الذي لم يكن يجهل أسباب هذا الصمت قبل أن يبرح به غرامه في هذا العام الأخير.

ثم قال الكاهن لآريو إنه سيحاول أن يعينه في محنة هذا الحب، وإنه لهذا سيعطيه ماء مسحوراً ليغسل عينيه بقطرات منه قبل أن يأوي إلى فراشه ليلاً.. فإذا أسلم جفنية للكرى، فسيزوره طيف توسيا في منامه.. فيكلمه بما شاء..

ثم أوصاه الكاهن بأن يترك باب مسكنه مفتوحاً تلك الليلة، فلا يغلقه بمفتاح أو مزلاج، ولم يدرِ آريو لماذا أوصاه الكاهن بترك بابه مفتوحاً.. لكنه غسل عينيه بقطرات من ذلك الماء قبل أن ينام ثم استسلم لنوم عميق لذيذ، لم ينعم بمثله منذ أعوام.

ثم زاره طيف توسيا.. وأخذ آريو يعاتبه أول الأمر.. فراح يحدثه عن ذلك الصمت، فشرحت له توسيا سببه، وما يجب أن يتوفر في راهبات فستا من صفات، وما يشترط أن يتخلقن به من خلائق ومآل من تزل بها قدمها طوال خدمتها في معبد فستا، ثم أخذت تبشره بأنه لم يبق لها سوى ثلاثة أيام.. ثلاثة أيام فقط.. في خدمة المعبد.. ثم تخرج منه إلى نعيم الحرية وجنة الحب، وأخذت بعد ذلك تسائله:

لماذا لم تصبر؟ لماذا لم تصبر تلك الأيام الثلاثة أيضاً، بعد أن صبرت عشرين عاماً؟ هلْ تذكر يا آريو يوم أن تلاقينا في المرج، وأنا أجمع أعواد الند والصندل، وأصنع من الورود والرياحين باقات لمذبح فستا ومدفأتها؟ لقد كان ذلك في صبيحة يوم من أيام ربيع سعيد مبارك لن أنساه ولقد مضى على ذلك عشرون عاماً.. إلا ثلاثة أيام.. فهل رأيت كيف كنت أنا الأخرى أعد الأيام والليالي.. يوماً فيوماً.. وليلة فليلة؟ إنك لم تكن أنت وحدك الذي تسهر.. ولم تكن أنت وحدك الذي تشقى بهذا البعد وتتعذب؟ لقد كنت أعد الأيام وأحصي الليالي.. وكنت أعرف حسابها بعلامات كنت أحدثها بهذه السكين في جذع شجرة كبيرة تطل على غدير أمور، إله الحب، وتستطيع أن ترى هذه العلامات إذا وقفت عند هذه الشجرة مما يلي الغدير، وكل منها يشير إلى يوم أو أسبوع أو شهر أو عام، وستجدها جميلة منسقة بحسب حجومها.. وستجدها تنقص ثلاثة أيام لتتم عشرين عاماً.. فلماذا لم تصبر هذه الأيام الثلاثة، بعد أن صبرت كل هذا الصبر الجميل يا آريو؟ كان ينبغي أن تصبر!!

ولم يفهم آريو ما وراء هذا السؤال.. بل راح يتحرك حركة الذي يوشك أن يهب من نومه مستيقظاً.. لكن الطيف انثنى.. وعاد من حيث أتى.. دون أن يسلم على آريو.. ودون أن يبتسم ولو ابتسامة واحدة له.. فلما زالت عن آريو استرخاءة المستيقظ، أخذ يفرك عينيه ليرى إن كان ما حلم به حقاً؟... بيد أنه لم يرَ شيئاً!

وعلى كل.. فقد شكر للكاهن الذي أعطاه الماء هذه الليلة.. فقد زارته توسيا في منامه لأول مرة.. وكلمته لأول مرة.. وعرف لأول مرة أنها تشقى بالبعد

كالذي يشقى.. وتطوي جوانحها على أضعاف ما يطوي عليه جوانحه.. وعرف هذا كله لأول مرة بعد غرام تأجج بين جوانحه عشرين عاماً.

ولما كان الصباح.. أسرع آريو إلى الشجرة الحانية على غدير أمور، فهاله أن يجد الحلم صحيحاً.. فهذه هي العلامات التي حدثته عنها توسيا.. وهذه هي لا ينقصها إلا علامات ثلاث لتتم حساب عشرين عاماً..

وجلس آريو عند ذلك يضحك ويبكي.. ويشقى ويسعد.. وهو لا يدري من هذه الأسرار كلها شيئاً.. بل لا يدري ماذا ينتظره وينتظر توسيا من الهم من جراء هذا الحلم العجيب.

* * *

ففي هذه الليلة انطفأ اللهب المقدس لأول مرة منذ اشتعل في المعبد من مئات السنين... وكان انطفاؤه في نوبة توسيا.. توسيا المسكينة التي استدعاها الكاهن الأكبر ليحقق معها في الصباح الباكر، وليسألها عما قررته زميلاتها الراهبات الخمس، من أنهن شهدنها تهب من نومها في منتصف الليل، وتخرج من المعبد وهي مغمضة العينين، فتتجه نحو المدينة، حتى تكون عند بيت من بيوتها المواجهة للمعبد، فتظل فيه ساعة أو ساعتين، ثم تخرج منه مغمضة العينين كذلك، دون أن تبدو عليها أية علامة من علامات الشعور، فتظل تطوي الطريق جامدة، مغمضة العينين حتى تدخل المعبد.. وحتى تنتهي إلى مخدعها فتستلقي فيه.. فإذا دنا ميعاد نوبتها ذهبن إليها لايقاظها.. لكنها تهب من نومها مفزوعة مروعة، ثم تعود إلى فراشها وهي تنتحب انتحاباً شديداً ويلحفن عليها في السؤال عما بها.. فلا تتكلم ولا تجيب.. بل تصل بكاءها المر ونحيبها الشديد.

وتقول بعض الراهبات إنها حاولت أن تمد النار المقدسة بالطيب والزيت ورقائق الأخشاب العطرية بدلاً من توسيا، لكن النار كانت ترفض ذلك جميعاً وتقذف به بعيداً، حتى خبا اللهب، وأخذ دخان الجذوة ينعقد في كل مكان..

وهنا.. يصيح الكاهن الأكبر، بعد أن تعييه الحيل في استدراج توسيا إلى الاعتراف بما وقعت فيه من الاثم، والمخالفة عن مواثيق الربة المباركة، والمعبد المطهر، ويأخذ في التهديد والوعيد، لكن توسيا تصمت ولا تزيد على قولها إن هذا كله كان حلماً في حلم.. فإذا طلب إليها أن تروي له هذا الحلم لاذت بالصمت فيهب الكاهن من مقامه وهو يقول:

إذن.. دعيني أنظر في عينيك.. يا.. يا.. راهبة!

وينظر الكاهن إلى العينين العميقتين الساجيتين كظلال الفردوس.. فيرى صورة آريو.. آريو العاشق الوامق بكل ما في قلبه من لواعج، وجميع ما في عينيه من دموع.. فيعود إلى مقعده ثم يسأل توسيا: وبعد.. ألم ترتكبا إثماً يا راهبة؟

وتهز توسيا رأسها بإيماءة النفي.. ثم تنهمر الدموع من عينيها، ولكن الكاهن القاسي الغليظ القلب لا يهتم بدموعها، بل يقول وهو عابس متجهم:

لن تثبت هذه الدموع براءتك يا راهبة.. ولكن تثبتها التجربة الهائلة، فهل تعرفينها؟ وتهز توسيا رأسها الحزين بعلامة النفي مرة ثانية، فيقول الكاهن:
تنزحين ماء الغدير المقدس بهذا الغربال.

ويشير إلى الغربال المعلق على الحائط على يمينه.. وتنظر توسيا إلى الغربال العجيب ثم تتمتم قائلة:
كل هذا ولم يبق من نهاية خدمتي إلا يومان.. فلا بأس!! وتباركت يا فستا العذراء... يا من وهبتك جميع صلواتي ويا أعلم من هؤلاء الناس بنقاء قلبي وطهر نفسي.. وبراءة أفكاري.

* * *

ويشيع في المدينة أن توسيا، عذراء المعبد قد ضلت، وأنها ستنزح في الغد ماء الغدير المقدس بغربال الكهنوت الذي لا يكذب.

ولا تكاد الاشاعة تطير حتى يجتمع الناس من كل صوب، وتحتشد راهبات المعبد وتلميذاته لشهود التجربة الهائلة.

ويقدم الكاهن الأكبر ومن ورائه راهب صغير يحمل الغربال.. فتخرس الألسنة.. وتزيغ الأبصار وتعلق القلوب بالحناجر ثم يتكلم الكاهن فيثني على فستا ربة الطهر وحامية الأسر ويأخذ بعد ذلك في شرح المأساة للجمهور المحتشد.

ولا تكون هناك حركة، إلا المناديل البيضاء ترفعها الراهبات والتلميذات إلى عيونهن يكفكفن دموعهن، ضارعات إلى فستا أن تنقذ توسيا، توسيا الطاهرة النقية التي لم يعلمن عنها إلا النقاء والتقوى والطهر.

ثم يعطي الكاهن اشارته لتوسيا ببدء العمل ونزح مياه الغدير وهنا تتقدم الراهبة العذراء إلى الغدير وتقف أمام الماء لحظة خائفة واجمة، ترتعش وترتجف، لكن تسمع صوتاً عجيباً حنوناً يناديها من أعماق الغدير يقول لها، وكأنه يخاطبها وحدها:

تقدمي لا تخافي ولا تحزني إنني أنا.. فستا.. ربة المعبد.. وأعلم الآلهة والناس بطهرك تقدمي، لا تخافي.. إن الماء سيجمد في غربالك، وستنزحين الغدير كله في غرفة واحدة!

ولا تكاد توسيا تسمع هذا الصوت الحبيب حتى تركع ركعة خفيفة.. ثم تنهض وهي تبتسم وتجفف عينيها العميقتين الساجيتين كظلال الفردوس، ثم تتناول الغربال وتنحني لتنزح مياه الغدير.. ولا يكاد الغربال يمتلىء حتى يفيض الغدير كله.. ثم يجمد الماء في الغربال، وتذهب توسيا لتلقي به في النهر القريب.

وهنا... يدوي في الهواء صوت إلهي عجيب فيقول:

أيها الناس: إنني فستا.. فاسجدوا لتوسيا العذراء، توسيا الطاهرة التقية النقية كالثلج وانشدوا لها الأناشيد.

ويسجد الناس جميعاً.. ومن بينهم الكاهن الأكبر والراهبات والتلميذات، التلميذات اللائي استمعت فستا لدعائهن واستجابت لصلواتهن. ثم تأمرهم فستا فيعتدلون ثم تقول لهم:

لقد جئت لا لأشهدكم على براءة توسيا فقط، ولكن لأزوجها من حبيبها آريو ولأرعى علائق المحبة بينهما، كما أرعى علائق الود بين العائلات جميعاً، إن هذا هو آخر يوم لخدمة توسيا في هيكلي.. فاشهدوا معي أيها الناس أنها صانت مواثيقي كما صانت حبها طوال عشرين عاماً.. إن هذا شيء عجيب يشبه المعجزة، بل هو أعجب من المعجزة فهلموا بنا إلى شجرة الدردار الحانية على غدير أمور، لتتأكدوا من تاريخ هذا الغرام الطويل الذي سجلته توسيا فوقها.. وتشير فستا إلى آريو، فيبرز من بين الجمع المحتشد، وهو لا يراها، ثم يتقدم إلى حبيبته.. وزوجته فيعانقها وهو يبكي.. وتعانقه وهي تبكي..

ثم يهرع الناس إلى شجرة الدردار.. ليقرأوا التاريخ العجيب.. وليحتفلوا بأطهر حب في التاريخ.

الهاربة

ذهبت دريوب، وأختها ايولا، ترتعان فوق الكلأ، وليس في الدنيا كلها أسعد منهما. . . فلقد كانت شمس مايو تفتر عن قبلة كبيرة في الأفق الشرقي، والسحب التي يضرب فيها الذهب على خميلة من البنفسج تظلل بالسعادة شاطىء البحر، الذي امتد من الشمال إلى الجنوب يهتز نشواناً بلحظة الشروق القدسية، التي ازدادت جمالاً وفتنة بخروج الاختين الحسناوين، تخطران مع نسيم الصبح فوق الشاطىء، وتستقبلان يوماً سعيداً مباركاً، في حياتهما السعيدة المباركة، وقد حملت دريوب صغيرها الرضيع المبكر، الذي ألقمته ثديها، ليفطر مع العصافير المسقسقة في الروضة الضاحكة القريبة.

وذهبت الاختان ترتعان فوق الكلأ ثم يممتا نحو الروضة الخالية لتجمعا باقات من الزهور تزينان بها مذابح الربات العرائس على ما أسدين من خير، ووهبن من معروف، وأفأن على دريوب وولدها من رعاية . .

وكانت الأم الصغيرة الجميلة الشابة تنتقي أحسن الأزهار وأكبرها وأنضرها لكي يتناسب قربانها وما للربيع من قداسته عند الربات العرائس. . وكانت تؤثر لو تستطيع فتجعل من قلبها وسواد عينيها زهرات لهن، لما كانت تشعر به في هذه البكرة السعيدة من الصباح المبارك من بهجة ومسرة واغتباط.

ثم رأت دريوب، بالقرب من ماء غيضة قريبة في شجرة نامية من نبات اللوتس، حالية بزهرات نضرات متفتحة، ينفحن الهواء بالعطر، ويغازلن السماء بالبسمات. . فهرولت نحوها. . وراحت تقطف من زهراتها ثم تسوي منهن باقة صغيرة جعلتها في يد غلامها الرضيع.

وجاءت أختها ايولا. . . يجذبها جمال اللوتس ونشره. . فمدت يدها لتقطف من أزهاره، لكنها لاحظت شيئاً عجيباً لقد رأت قطرات دافئة من الدم القاني، تتصبب من عند مقاطع الزهر الذي قطفته دريوب. . وعند ذلك وقفت الفتاة ذاهلة

شاردة مفغورة الفم.. تتوقع شراً مستطيراً، وتنتظر حلول داهية دهياء..

ثم هال الفتاة أن ترى أختها دريوب تجمد مكانها ولا تستطيع أن تتحرك، فإذا كلمتها نظرت دريوب إلى قدميها، فلم تجدهما.. لقد غارتا في الأرض، ولصقتا بها وتحولتا نباتاً، نباتاً أخضر كجذع الشجرة.

وتذعر الفتاتان.. وتحاول دريوب أن تنتزع نفسها من الأرض فلا تستطيع.. بل تلاحظ أن النبات الأخضر آخذ في الانتشار فيها، فهو يعلو حتى يصل إلى الركبتين، ثم يعلو حتى يدب في الفخذين، ثم تنظر فترى عدداً من الفروع الصغيرة قد طفقت تنبت في جوانب الجذع، وتكبر.. ثم تكون لها أوراق خضراء رطبة.. ثم تحس في الوقت نفسه أن جذوراً لها وشعيرات تمتد وتتحسس طريقها في التربة التي تحتها.. وتربطها ببطن الأرض، وتمتص منها الماء وما في الماء من مواد ليس بينها وبين الدم الانساني الحار الجياش بالحياة نسب.

وتوشك دريوب أن تقع في غيبوبة.. لولا هذه الأصوات التي أخذت تشق الفضاء من بعد.. وتنظر ايولا في متجه الصوت، فترى فتيات من بنات الريف مقبلات، وهن يجرين جرياً شديداً نحو الاختين، حتى إذا كن عندهن أخذن يحذرن من قطف زهرات اللوتس ويقلن:

«أوه! ما هذا؟ كيف جرأت صاحبتك على هذا الذي صنعت؟ إن هذه ليست شجرة إنها عروس الغاب لوتيس.. ضاقت عليها الأرض بما رحبت، وهي تجد في الهرب من ذلك العاشق الدنف الذي كان يقص آثارها، ويجري وراءها، ويلاحقها في كل مكان.. وهي لا توده ولا تميل إليه ولا تريد أن تراه، ولقد كنا نراهما منذ ساعة.. إذ كانت تجري ويجري هو وراءها باكياً متصدعاً راجياً أن تتقبله زوجاً لها، لكنها كانت تشيح عنه، وتضيق به وتجري كأنها الريح ويجري هو في أثرها كأنه البرق، ثم انتهزت مرورها بهذا المنعطف فغرست نفسها في تربة الأرض الرطبة، ثم تحولت في لمح البصر فكانت هذه الشجرة من نبات اللوتس، تريد أن تستخفي عنه.. وقد مر بها بالفعل فلم يعرفها.. وجازت عليه الحيلة.. لكنها كان يجب أن تنتظر هنا حتى تغرب الشمس ليباركها أبوللو نهاراً بأكمله، قبل أن تستطيع العودة إلى صورة العرائس، والآن.. فلن تعود إلى صورتها تلك أبداً..

فماذا فعلتما بالربة يا فتاتين؟ مَنْ أذن لكما بقطف هذه الزهرات المقدسة من ربة الغابة وعروس اللوتس؟ يا لكما من شقيتين! ما هذا؟ هل تريان؟ لقد ساخت قدما إحداكما في التربة وسرى النبات فيها وفي برهة وجيزة تتم المأساة..

ثم اتجهت الفتيات الريفيات نحو لوتيس الدامية، وركعن وأخذن في صلاة عميقة خاشعة.. أما دريوب، فقد كان سائل النبات يتدفق في كيانها، وكلما تحول جزء من جسمها البائس نباتاً، نجمت فيه الفروع والغصون الخضر، واكتست أوراقاً رطبة لا تلبث أن تغطي الفروع كلها.

وشوهد من بعيد رجلان، لم يلبثا أن كانا أمام الفتاتين، أما أحدهما فكان آندريمون... زوج دريوب، وأما الآخر فكان أباها وأبا ايولا!!

لقد جاءا بدورهما يجمعان شيئاً من أزاهير البرية ليقدماها تحية لعرائس الغاب.. لكنهما لمحا سحابة قاتمة تجلل المكان الذي كان مسرحاً لتلك المأساة.. التي تمثل الآن، ووجدا نفسيهما تنساقان نحوه انسياقاً فقدما مهرولين، ليستطلعا طلع ما يظل السحابة وما تقل تلك القطعة التي تحتها من الأرض..

ماذا؟ إنها ايولا، وهذه دريوب إلى جانبها، وعلى صدرها ابنها لا يزال يرضع لبان أمه، ولكن.. ما بال دريوب مستخفية في جذع هذه الشجرة وما بالها لا تكاد تتحرك: «ايولا.. ايولا»،ولكن ايولا لا تجيب، بل تنظر إلى أختها مرة.. ثم إلى أبيها مرة أخرى..

ويقف الرجلان مشدوهين! لقد كانت دريوب في شبه غيبوبة، ولهذا لم تفطن إلى وجود زوجها بالقرب منها.. حتى ناداها بعد قليل: «دريوب.. دريوب.. ماذا هناك؟» وعلى هذا الصوت الحبيب الملهوف يستدير وجه دريوب، وتنجاب الغشاوة الكثيفة التي كانت تجلل عينيها، فاذا رأت زوجها قالت: «آندريمون.. آندريمون.. إليّ.. إليّ اقترب.. إني أحب أن أكلمك فهذا آخر حديث لنا يا زوجي الحبيب، وقبل أن أتكلم.. أرجو أن تلقي بالك إلى ولدنا.. هذا الصغير الرضيع، مخافة أن يسقط فيصيبه أذى.. إنك تنظر إليّ ذاهلاً.. تكاد تغيب عن رشدك لا.. أرجو أن تملك أعصابك.. لأن هذه ساعة وداع.. أقسى من كل ساعة وداع مرت بين حبيبين، فأنا أودعك.. وأنا لا أموت بل أتحول.. أتحول لأكون شجرة.. إن النبات ينتقم مني.. فلقد قطفت زهرات من شجيرة جميلة مباركة الشذى.. لم أكن أحسبها ربة قط، حتى جاءت بنات الريف فقلن أنها لوتيس..» واأسفاه لشد ما كنت أحب عروس الغاب لوتيس لقد كنت أهيم بها، وكانت هي ترعاني كلما مشيت في الغابة، وكم من مرة باركت حبنا يا آندريمون! لكنها كانت قاسية شديدة القسوة هذه المرة، فلقد سحرت نفسها هكذا كما ذكرت الفتيات، لأن حبيباً كان يلاحقها، وقد قطفت منها زهرات لصغيرنا لا يزال قابضاً عليهن انظر يا

آندريمون.. إنهن أجمل ما في هذه الروضة من زهر.. إن أصابعة الصغيرة تقبض عليهن كما تقبض كف العذراء على مفتاح السعادة..

ولكني لم أكد أفعل، حتى شعرت بقدمي تسوخان في التربة.. وقد أخذ النبات يسري فيهما.. ولم أستطع قط أن أنزعهما من الأرض.. لأن النبات كان يتدفق في ساقي ثم في فخذي وها أنذا أتحول رويداً رويداً فأكون شجرة.. ولن يمضي طويلاً حتى أكون دوحة.. وقد لا تمضي برهة حتى أسكت إلى الأبد.. ولن أستطيع أن أكلمك.. ولا أن أناغي ابني هذا.. الذي شاء سوء حظه أن أقطف له هذه الزهرات.. «آندريمون أيها الحبيب.. أحس أن النبات يسري في ذراعي.. فتقدم يا حبيبي واحمل الطفل، مخافة أن يقع.. لأشكرك.. ارعه يا آندريمون واسهر عليه.. ولكن.. كيف أوصيك وهو ولدنا معاً؟ بل ارفعه إلى فمي.. كي أقبله.. قبل أن يسري النبات إلى رأسي.. وقبل أن ينتهي كل شيء.. يا لها من قبلة يا ولدي! قبلة هي أشجى القبل جميعاً، وانضحهن بدموع الروح! آندريمون زوجي لا تنسَ يا أعز الناس أن تحضر إليّ ولدي ليلعب في ظلي ويرتع.. وليتحسس بيديه الحبيبتين جذعي فستكون هذه سلوتي الوحيدة وعزائي عن البعد عنه.. وصمتي عما يكلمني به..

«قل له إن هذه الشجرة هي أمك.. وهذه الأصوات التي تخرجها أفنانها رفيقاً وحفيفاً هي كلامها ينبعث إليك من أعمق أعماقها.. من قلبها الذي يذوب شوقاً إليك.. وينزع إلى لقياك.. حدثه عن مأساتي.. ولكن.. لا تبكه ولست أدري كيف تستطيع هذا.. ولكن فكر فيه على كل حال! قل له يحمني من عبث الرعاة.. فلا يدع شاة تقضم لحائي.. ولا يسمح لطفل عابث بتسلقي.. ليكسر بعض أفرعي.. كي يطعمها شاءه فكل هذا سيؤلمني.. ومن يدري فربما أصاب من يفعل بي ذلك بعض ما أصابني!» أما أنت يا آندري.. فما أشد ما آلم لك يا حبيبي! إنك سوف تبكي.. سوف تبكي حزناً لما أصابني وحزناً عليّ.. ولكن.. لا تنسَ أنه ينبغي لك أن تعيش.. ولو من أجل ولدنا.. لا من أجلي.. بل.. ومن أجلي أنا كذلك.. فإني لن أنفك أحن إليك.. وستجد كل ورقة من أوراقي مملوءة بسطور منمنمة من ذكرياتنا.. يا حبيبي!

ما كان أحب إلى نفسي أن أعيش في ظلك إلى الأبد.. فتعال أنت كل يوم.. واجلس في ظلي ثم مد يدك وامسح بها هذا اللحاء.. الذي أخذ يجمد ويشتد.. ويتصلب.. ولكن ارفع إليّ ولدي لأقبله قبلة أخرى.. قبل أن تجمد شفتاي «يا للسموات ما أشهاها قبلة يا صغيري! أواه كدت أنسى أن أكلمك يا

أعز الآباء! ها هي ذي ابنتك.. لا تبك ليس في الوقت فسحة للبكاء الآن دع هذه اللحظات تمر في سلام.. ها هي ذي دريوب التي كنت أبر الناس بها وأحنى القلوب عليها.. تنتهي.. وتوشك أن تصمت.. فلا تكلمك.. ولا تجيب نداءك يا أعز الآباء! لا تبك.. أرجوك.. بل اسمع عني.. واصغ إلَيّ.. وتذكر صوتي ولا تنسَ أن تزورني.. وادفع أذى الطير عني.. إلا البلابل والعصافير فكل بلبل منها سيذكرني بابني.. بصغيري الذي ما جنيت شيئاً لاحرم منه هكذا.. وشيكاً وقبل أن أتم رضاعه!!

احضر إلَيّ يا أعز الآباء.. ولتحضر معك ايولا.. أختي.. التي شهدت كارثتي وليحضر معكما صغيري.. وأوصه ألا يقطع غصناً من شجرة أبداً.. فقد تكون تلك الشجرة ربة كهذه الشجرة.. من يدري؟ أتسمع يا آندري؟ لا تدع ولدنا يمس نباتاً بسوء..

أوه.. أشعر بالنبات يشيع في شفتي.. وداعاً يا آندري.. وداعاً يا أبي وأنت يا ايولا إلَيّ يا أيولا إلَيّ بولدي أقبله آخر قبلاتي.. أشكركم.. إذا سكت فلا تذهبوا.. بل قفوا حولي وكلموني.. فأنا اسمع.. أوه وداعاً.. وداعاً.. ودا...»

لكن دريوب لم تستطع أن تكمل وداعها الأخير.. بل صمتت.. وصمتت إلى الأبد..

وهنا صرخ إندريمون صرخة طاش لها صواب المساء.. فقد أرعدت الدنيا كلها وأبرقت.. ثم أخذت تهمي بماء منهمر.. كأنها تبكي على دريوب..

وأخذ الطفل يبكي هو الآخر وحملته ايولا وراحت تهزه لتسكته.. لكنها كانت تبكي.. وكان قلبها يتفطر..

وأخذ الوالد المفجوع يبكي.. وأخذ آندريمون يبكي.. لكن ايولا تقدمت نحو الشجرة التي لم يعد فيها جزء واحد آدمي، وراحت تطوقها، وتقبل منها كل مكان، كل غصن.. وكل ورقة!

ولم يطق آندريمون أن يبعد عن الشجرة.. فجعل حولها سياجاً كبيراً من أشجار الحور، وربط بينها بأشجار اللبلاب.. ثم اتخذ له مسكناً داخل ذلك كله.. وكان يقوم في كل بكرة فيقبل الشجرة الحزينة.. ويصلي عندها صلاة خاشعة.. وكذلك كان يفعل ابنه.. الذي كان يهيج به الحزن فيبكي ويهتف من سويدائه قائلاً:

«آه يا أمي!..» فيسمع وسوسة صادرة من أعماق الشجرة تقول له:
«آه.. يا ولدي!
وعند ذلك يبكي الطفل.. ويبكي أبوه.. ويبكي جده.. ثم تبكي أيولا!

سباق إلى قلب

كانا يجلسان فوق شاطىء البحر المحيط كوردتين من ورود الربيع الطلق الذي يبتسم للحياة كلها. . وكانا يلعبان فوق رماله في رعاية هذا الإله الكريم الرحيم، نبتيون، رب البحار السبعة الذي كان ينظر إليهما ويبتسم، كما يبتسم هذا الربيع الطلق، لأنهما كانا يذكرانه بأيام صبواته الأولى، وزمان غرامه القديم، فيسعد في ظلال ذكرياته، ويتنهد من أعماق قلبه الكبير الذي هذبه الحب، وأثار ظلماته، وفجر في سويدائه ينابيع الرحمة وألهمه الرقة، ورزقه العطف والحنان.

وكانا يشعران دائماً أنهما في رحاب إله كريم رحيم يبارك حبهما، وكان ايداس، العاشق الشاب، لا يشك مطلقاً في أن نبتيون هو هذا الإله الكبير الرحيم، وكانت ماريسا تشاطر حبيبها هذا الرأي، لأنها كانت كلما نزلت إلى البحر المحيط لتستنقع فيه، ولم تكن تجيد السباحة، بل لا تعرفها، تشعر كأن مهداً من الديباج قد بُث تحتها، فتظل فوقه ساعات، وهو يروح بها ويجيء فوق أعماق اليم، وأعراف الموج، في غير خشية ولا فزع. . فمن من آلهة الماء غير نبتيون يستطيع أن يأتي تلك المعجزة.

وكثيراً ما كان نبتيون يستخفي في صورة شيخ عجوز، ثم يأتي من آخر الشاطىء ليقرىء الحبيبين الشابين السلام، وليقدم لهما تلك الهدايا العجيبة من لآلىء البحر ومرجانه، وليجلس معهما لحظات يجتر فيها ذكريات حبه، ولينصرف بعد ذلك قرير العين طيب النفس، ليفسح للحبيبين في نجوى غرامهما. . .

وكان إله آخر، هو أبوللو رب الشمس، ورب الفنون التسعة، يرعى الحبيبين الشابين ولكن لا كما يرعاهما نبتيون. . لأن أبوللو، هذا الإله العاشق الذي لم يفلح مرة في إحدى مغامراته الغرامية. . كان يهوى الفتاة ماريسا. . فقد رآها مرة تستحم في ذلك المكان من الشاطىء، وقد جعل الموج يؤرجحها فوق هذا المهد الحريري الذي كان نبتيون يبثه تحتها. . فجن بها غراماً، وكادت أن تشغله عن نفسه، وعن مركبه الشمسي التي كان يسوقها وقت الضحى، فأوشك الكون أن يميد ويختل

نظامه، وأوشكت الأفلاك أن تختلط، والبروج أن تنقضي، لولا أن فاء أبوللو إلى رشده، فترك المركبة تسير وحدها في فلكها القديم، وقفز هو ليكون قريباً من ماريسا، يشهد جمالها السابغ وهو يبترد في ماء الشاطىء فيملأه فتنة، ويذيب فيه لألائه حسناً.

وانتظر أبوللو.. وانتظر طويلاً.. وكان يرجو أن تخرج ماريسا من الماء ليخلو إليها، وليبثها غرامه، ويعرض عليها حبه.. لكن ماريسا لمحته.. فاستحيت أن تبرز من الماء، فطال مكثها فيه.. فلما أدرك الإله ذلك لجأ إلى الحيلة، فاستخفى في روضة قريبة ليترك لماريسا فرصة الخروج من البحر، وارتداء ثيابها البيض الحريرية.

ولم تضع ماريسا فرصتها.. فقد أسرعت إلى البر، ووقفت تحت تلك الدوحة الحانية، فجففت قطرات الماء السعيدة من فوق جسمها المتلألىء الناصع، ثم التفعت ثوبها المخمل الأبيض الناعم، وأخذت تسوي شعرها الأسود الفاحم بأطراف بنانها الوردية.

ثم برز أبوللو.. لكنه لم يبرز وحده.. فقد برز معه.. ومن الروضة نفسها.. ايداس حبيب ماريسا.. وحبيبها من هذا العالم المتواضع.. الذي يمضي فيه كل شيء إلى أجل وتمضي فيه كل نفس إلى كتاب!

وكأنما كان يعلم ايداس أن هذا الغريم قد جاء ليزاحمه في قلب ماريسا.. ولم يكن يعلم قط أن غريمه هو أبوللو.. وأبوللو كله.. رب الشمس والفنون التسعة.. الخالد الذي لا يموت.. وأبهى آلهة الأولمب طلعة، وأشرفهم غرة، وأرشقهم جسماً.. وأفتنهم نضرة شباب، وريعان صبى..

لم يكن ايداس يعرف هذا.. وإنْ بهره جمال غريمه، فأوجس في نفسه خيفة... ومرق كالسهم إلى حبيبته.. فحيته بابتسامتها المعهودة، التي هي سر الجمال في أكمام الورد.. والحمرة المشتعلة في ثغور الأقاح، والسحر الذائب في شفاه الشقائق.

وعجب أبوللو أن تؤثر عليه هذه الفتاة ذاك الفتى.. فأسرها في نفسه، وعرف أنه سيتعب كثيراً حتى يصل إلى قلبها.

ولم يضع أبوللو وقته سدى... فقد عرف والد الفتاة.. وأخذ يغريه بالأماني.. ويغازل أحلامه بالآمال، ويغدق عليه كل يوم من هدايا الأولمب، ما خلب به لبّ الرجل.. ثم طلب يد ماريسا، بعد أن وعده بأن يرفعه إلى صفوف الآلهة المخلدين، بالتوسط له عند عمه نبتيون، رب البحار، فيجعله أحد أرباب الأنهار...

واستطاع أبوللو أن يملأ صدر الرجل غروراً. . . فوعده هذا بيد ابنته، على أن تكون له زوجة، لا خليلة كما هو دأب أبوللو من قديم الزمان.

وطرب أبوللو. وأخذ بهذا الجمال الناضج المتفتح، الذي لا نظير له في الأولمب، وذهب إلى أخته ديانا، ربة القمر، يستنجد بها ويستصرخها كي تعاونه في هذا الغرام الجديد، وذلك بأن تزور ماريسا في أحد أحلامها. . فتزين لها الزواج من أبوللو. . . وما سوف تنعم به في جنه هذا الزواج. . . ولكن ديانا التي كانت قد سمعت أخاها العاشق يهذي بجمال ماريسا، ويفضله على جمال كل عذراء. . حتى أخته ديانا نفسها أخذت تسخر من أخيها، وتستهزىء بحبه، وتقول له: إن حبيبتك ما دامت جميلة إلى هذا الحد وما دامت أجمل من ربات الأولمب نفسه. . فمن الظلم أن يضطرها أحد من الزواج منك، وقد يكون لها حبيب آخر. . بل إن لها لحبيباً آخر. . وطالما شهدتها وأنا أسبح في السموات، فوق قمري الحبيب الفضي. . . يسمران في هدوء الليل، ويتشاركان ويتناجيان. ثم كيف تستعين بي يا أخي، وأولئك عرائس فنونك التسع وفيهن عروس للغناء، وعروس للشعر وعروس للمآسي وللرقص. . وعروس للبيان وعروس لا أدري لأي شيء. . فلماذا لا ترسلهن إلى حبيبتك كي يفتحن قلبها لك، ويدنين ما بعد من الفوز بها عليك؟ اذهب. . اذهب. . اذهب يا أخي إلى عرائس فنونك، فورأس أبي، سيد الأولمب، إني لمشوقة إلى مشاهدة هذا السباق. . بينك وبين ايداس. . .

* * *

أما ماريسا، فقد دهشت، واستحوذ عليها العجب، حينما عرفت أن هذا الشاب الجميل الفتان، الذي كان يرقبها عند شاطىء البحر. . . هو أبوللو. . . وانه قد خطبها إلى أبيها. . وقد كان لهذا كله أثره الذي يشبه حميا الخمر في نفسها، وإن كانت لا تزال أوفى من الوفاء نفسه لحبيبها ايداس. . وقد هالها يوم، وهي تنتظر هذا الحبيب، أن ترى الهواء يلطف ثم يلطف. . ثم يلطف. . ثم ينشق عن تسع فتيات حسان أرق من النسيم، وألطف من الرحيق، وأسنى من لألاء الشمس في صفحة اليم، فلا يلبثن أن يتقدمن إليها ضاحكات مؤانسات، ثم لا تمضي لحظات حتى يستحوذن على نفسها بتلك الموسيقى الحلوة والغناء العذب، والقصص الجميل الممتع، والرقص الذي يكاد يخلب الألباب ويكاد يجذب إليه حدق العيون، وحب القلوب. . فتعجب ماريسا. . وتصغي وتنظر وتستمع في غير ما فزع، ولا يزيد من عجبها إلا خفة العرائس التسع، ورفيفهن من غير أجنحة في الهواء، ثم مشيهن فيه دون أن تمس أقدامهن أديم الأرض، ثم انشادهن

فيه أناشيد الحب على نغم الموسيقى الكريمة العلوية، التي كانت تنطلق من آلات يحملها بعضهن فتملأ الدنيا كلها غناء وألحاناً. . ثم يأخذن أيديهن بأطراف بنانهن، فيتحلقن حول ماريسا حلقة كبيرة كطاقة الورد، ثم يأخذن في دوران سريع يخطف البصر، فتنتشر حولهن أضواء كأضواء الطيف المنبعث من بلورة صاغها رب الشمس لهذه اللحظة. . . فهذا ضوء أحمر فوردي فأصفر فبرتقالي فأزرق فبنفسجي فسماويّ. . فأضواء غير هذه تنتشر حول ماريسا، فتسحرها عن نفسها، وتنقلها من هذه الدنيا إلى عالم من الخيال والشعر والجمال، لا تملك الفتاة إلا أن تجول فيه بكل مشاعر الغبطة التي لا تخلو من ذهول، والعرائس فيما بين ذلك يبسمن لها ويسرين عنها. . حتى تأنس إليهن آخر الأمر. . بل توشك أن تنهض فتشترك معهن في هذا الرقص، وذلك الإنشاد. . لولا أنها تذكر أنها لا تستطيع أن ترف في الهواء مثلهن، فتستحي، وتستقر مكانها. . . فإذا عرفن منها ذلك تضاحكن وأقبلن نحوها يعابثنها حتى تضحك ملء فمها، وتنهض فتراقصهن على الكلأ الأخضر. . ولا تكاد تفعل حتى تغني بوتريه أغنية يطرب لها كل شيء. . حتى الشمس نفسها، فتقف عن الدوران لتسمع وتتزود من سحر الغناء، لرحلتها الأبدية التي لا تنتهي، ثم تسكت بوتريه عن الغناء لكنها تتناول نايها فتنفخ فيه نفخات فيكون الوجود كله موسيقى. . فلا تلبث ماريسا أن تثب في الهواء ترقص فيه خفيفة لطيفة كأنها إحدى عرائس الفنون التسع هذه. . .

ثم ينتهي الرقص. . وتصمت الموسيقى إلا من أصداء النغم الذي يغمر الكون، ويغمر النفوس، فتسير الشمس، ويصحو الزهر، ويفيق الوجود، وتجلس ماريسا، ويجلس عرائس الفنون حولها، فتتكون منهن جميعاً باقة من الورود، أو اكليل من الرياحين، لا شك أن ماريسا هي أنضر زهرة فيه.

ثم يصمت الجميع. . وتتكلم بوليهمنيا. . عروس البيان. . ذات اللسان الرقيق العذب، والجنان المتدفق الاسنى، فتثني على جمال ماريسا، وتحمد الآلهة على ما أودعن فيها من مباهج ومفاتن، وما يجدر بها أن تكون زوجة لأحد الآلهة. . لا لمخلوق من البشر حتى يؤتي هذا الجمال أكله. . وينجب ذرية صالحة. . حرية بهذا الجمال. . ثم تتناول عروس البيان وصف محاسن ماريسا. . فتقول إن شعرها الأسود الفاحم منسوج ولا شك من سويداء قلب أبوللو نفسه. . وأن جبينها الوضاء الذي يتبلج نوره كما يتبلج نور الضحى، لا يعدله في إشراقه إلا جبين أبوللو. . وأن نضوج السحر في عينيها، وتلك الجاذبية التي تصبغ أهدابها بأثمد (كحل) من صنع يدي فينوس. . لا نظير لهما إلا سحر عيني أبوللو، وجاذبية اهدابه.

فإذا أرادت العروس أن تمضي في المقارنة وراء هـذا، ضحكت ماريسا وتساءلت عن هذا الإله العجيب الذي يوشك أن يكون جماله في روع عروس البيان، جمال فتاة كاعب من حسان البشر. . . فتقول العروس: لأنه مقدور في ألواح القضاء أن تكون له زوجة. . أو حبيبة. . . وأنهن عرائس فنونه التسع، قد أرسلهن الإله نفسه لإيناسها، وخطبتها. . كما خطبها من أبيها. . .

وعند ذلك تنفر ماريسا فجأة، وتقلق قلقاً شديداً. . وتستأذن في الانصراف من حضرتهن. . ولا يكدن يمانعن في ذلك حتى يقبل ايداس لموعده. . فينشق الهواء، وتختفي عرائس الفنون، حتى لا يقع عليهن بصر انسان من غير أن يأذن أبوللو، فإذا عرف ايداس قصة العرائس، ناله من الهم ما لا يستطيع جبل الأولمب نفسه أن يحمله. . لكنه ينظر حوله فيرى صاحبه الشيخ العجوز مقبلاً. . فيطمئن. . ويسرع هو وماريسا للقائه.

ولا يكاد الشيخ يعرف ما يهدد حب صاحبيه من أهوال حتى يفتر فمه عن ابتسامة عريضة، ثم يقول: «لا عليكما يا صديقيّ الصغيرين. . اطمئنا. . ولا يفزعكما أن تعلما انني أنا نبتيون، نبتيون الذي يحملك كل يوم فوق صفحة اليم يا ماريسا، اطمئنا يا ولدي. . ورأسي لأخبرن أخي زيوس سيد الأولمب، بما يحاول ابنه أبوللو من التفريق بينكما. . . وإلى أن أفعل. . فإني مشير عليكما بالهرب من وجه أبيك يا ماريسا. . وإليكما عربتي المطهمة التي تجرها خيولي البحرية، فاركباها، واذهبا بها إلى أقصى أطراف الأرض، أو أبعد أصقاع المحيط. . هيا. . هيا. . لا تفكرا في شيء غير ما أشرت به عليكما. . هيا. . إنكما في رعايتي. . ولن يمسّكما سوء باذني».

ولكن ماريسا تجمد مكانها. . ثم تسأل رب البحار الكريم عن سبب هذا الهرب من وجه أبيها، وهو لا يليق بما نشأها عليه والدها من طاعته ومحبته. . فيربد وجه نبتيون، ثم يعود فينفرج عن ابتسامة هادئة ويقول: إن أبوللو قد لقي أباك يا بنيتي، وجعل يزخرف له الوعود، إذا هو وافق على زواجك منه. . وأخشى أن يتم هذا الزواج بالرغم منك فلا تكون نهايته إلا نكداً. . ثم لا تكون حياتك وحياة ايداس إلا غمّاً شديداً وحسرة. . ولست أخشى من أسرار الأولمب شيئاً إذا حدثتك عن أبوللو ــ ابن أخي ــ فأقول لك إنه إذا أحب، أسرف في حبه، وظل يتقلب على لظى الجمر حتى ينال ممن يحبها أربه، ثم ينصرف عنها فجأة إلى فتاة سواها، غير راحم فتاته الأولى، ولا مبالٍ بما تكنه له من محبة وجميل ود. . صنع هذا مع كثيرات من عرائس الغاب والماء والمروج. . فاحذري أن يرغمك أبوك على الزواج منه».

ويصمت رب البحار.. لأن ايداس يكون قد وقف ساهم الوجه زائغ العينين، عندما صكت أذنيه قصة زواج ماريسا من أبوللو.. إلا أن نبتيون يترفق به، ويهمس له، ثم يبشره بأن هذا الزواج لن يتم.. فتعود أنفاس الفتى إلى سابق اتصالها.. ويمد يده إلى ماريسا.. ثم يحملها كنفحة العطر إلى عربة نبتيون، بعد أن يشكرا لرب البحار ويصليا له.

ثم تنطلق العربة بهما كما ينطلق البرق في ثنايا السحاب.. ويمران على دار ايفنوس، والد ماريسا.. فلا يعلم إلا آلهة الأولمب، لماذا تبطىء الخيل عند داره، ذلك الابطاء الشديد الذي جعل ايفنوس يرى العربة العجيبة ويتبين من فيها.. فيصرخ المسكين صرخة مدوية.. ثم يشد شعر رأسه ولحيته شداً عنيفاً.. ثم يخرج من داره ليجري في اثر العربة، ويجد في جريه حتى تكاد أنفاسه أن تتقطع.. ولكن.. هيهات! لقد كان المسكين يجري وراءها كالمحموم.. وظل يجري حتى مرت العربة فوق نهر عظيم وهو لا يدري، لأن بصره كان عالقاً بها إلى أعلى، فزلت قدمه فوق صخور الشاطىء، وتردى في ماء النهر.. وغاص إلى القاع.. ولم يعد له أثر.

وقهقه نبتيون الواقف عند العدوة الأخرى يشهد أول المأساة.. وفيما هو واقف ينظر إلى جثة ايفنوس في قاع اليم، إذ يقبل أبوللو من بعيد.. فيسلم على عمه رب البحار، ويرجوه أن يتفضل على ايفنوس، صهره المنتظر، فيجعله رباً من أرباب الانهار.. لأنه وعده بذلك، ولأنه سيتزوج ابنته الجميلة ماريسا.

ولكن نبتيون يقهقه مرة أخرى.. ويشير إلى جثة ايفنوس فتطفو مرة أخرى فوق سطح الماء، ثمّ يقول: «ومن ايفنوس يا ابن أخي؟ أتقصد هذا الرجل الذي غرق الآن في ذاك النهر؟ إن كان هذا فلا بأس! إني انقذ روحه فحسب، واجعله رباً لهذا النهر الذي غرق فيه.. على ألا يكون له شأن بأهل هذه الدار الفانية.. لقد كان يريد أن يزوج ابنته ــ ولعل اسمها ماريسا ــ ممن لا ترضى.. وقد هربت الآن مع حبيبها ايداس.. في عربتي.. انظر! إن خيلي البحرية تثب فوق البحر ثم تخوض اللج بهما.. هناك.. هناك في الأفق الشمالي..

ونظر أبوللو حوله، فرأى العربة العجيبة تطوي الأفق الشمالي بالفعل، فمرق وراءها غير مستأذن، وأدركها بعد لحظات.. ثم وثب إليها.. وأخذ بتلابيب ايداس فانزله إلى الشاطىء.. وطلب إليه أن يبارزه.. وماريسا لمن غلب!!

ولم يفزع ايداس.. فقد كان هو الآخر مقاتلاً جريء القلب غلاب البطش،

لا يبالي أن ينازل جيشاً بأكمله.. بل الأولمب جميعاً.. لكنه قبل أن يبدأ المعركة أراد أن يدرس خصمه، فراح يحتال له، ويجره إلى حجاج طويل لا نهاية له في قضية غرامها، وراح أبوللو يرد عليه في عنف وفي زراية، مستكثراً عليه أن تكون ماريسا من نصيبه، وقد أحبها إله مثله...

ثم مضت ساعة في هذا اللجاج الذي لا طائل وراءه، وانقض أبوللو على ايداس الشجاع يحاول أن يفتك به، ولو أوتي ذرة من حكمة الآلهة، وما ينبغي لهم من الترفع عن الدنايا، لربأ بنفسه عن أن يبارز بشراً إذا نفذ فيه سنان السيف خر صريعاً ولم يعقب.. أما هو.. فإله لا يمكن أن يقتل.. بل لا يمكن أن يجرح.. ولكن هكذا شاء لأبوللو نزقه أن يزاحم البشر في كل شيء.. حتى ميدان القتال، فكأنما ليس يكفيه ميدان الحب!

ثم مضت ساعة أخرى.. طويلة كأنها دهر بأكمله.. كان ايداس فيها يذود عن نفسه، ولا يدري، وقد شك أبوللو ألف مرة، لماذا لا يموت بل لماذا لا يدمى! حتى ذكر أنه إله.. فأخذ يرتجف، لأنه عرف نتيجة النضال، ومآل المعركة...

وكانت ماريسا تنظر إلى عاشقيها المقتتلين بعينين دهشتين.. ونفس واجفة، وقلب يكاد يثب من طول الفزع.. وأوشكت مرة أن تصرخ حينما سدد ايداس إلى قلب غريمه ضربة لو أصابت جبلاً لشقته.. وقد عجب ايداس لماذا تصرخ ماريسا وكان الأجدر أن تبتهج، لأن أبوللو لم يستطع طوال النزال تسديد ضربة مثلها، ولا أية ضربة أخرى، إلى أي مكان من جسم ايداس!! فيا ترى؟ لماذا صرخت ماريسا؟ هل خشيت أن يقتل أبوللو، وهو فيما يظن ايداس عدوهما الألد؟

وأخذت هذه الوساوس تضطرب في قلب ايداس، فزادته ارتجافاً، لكنه مضى في منازلة غريمه بكل ما بقي فيه من قوة، وأمره إلى رب البحر نبتيون، الذي طمأنه، ووعده خيراً.

ولما بلغ القتال أشده، واستعر بين الفتى والإله حتى أصبح جحيماً أو شبه بالجحيم، فوجىء المتحاربان بوابل من الصواعق ينهمر نحوهما، بل يحول بينهما، فلا يستطيع أحدهما أن يقترب من الآخر.. فلما نظر أبوللو ناحية المشرق، إلى الجهة التي يأتي منها سيل الشهب، رأى والده زيوس، سيد الأولمب، ينظر إليه، والغضب يتفجر من عينيه، وإلى جانبه عمه نبتيون.. فعرف أنه قد انطلق إلى هناك، وشكاه إلى أبيه، فأرسل أبوه الصواعق لتحول بينه وبين خصمه!!

وكان ايداس ينظر إلى الصواعق ولا يعرف سرها.. وينظر إلى أبوللو فيراه

يقلب عينيه ناحية المشرق، فينظر هو الآخر صوبه، فلا يـرى شيئاً.. وكيف يستطيع أن يرى الأولمب وإن بينه وبينه لمسيرة أيام وأيام.. وكيف يستطيع أن يرى الآلهة فيه وهو بشر من تراب!

إذن.. فقد ذهب نبتيون إلى أخيه زيوس، رب الأرباب فشكا له ما كان من تهافت أبوللو على ماريسا.. ومحاولته أن يحرم حبيبين من البشر، من ثمرة حبهما..

ولقد تلقاه أخوه بالبشر، وما كاد نبتيون يقص عليه نبأ ذلك حتى تضاحك كبير الآلهة وراح يعابث نبتيون، ويسأله عما حدا به إلى حماية هذين الحبيبين من صبوة وقع بها ولده سيد الشمس، في غرام ماريسا.. ولم يكد نبتيون يقسم أن الذي دفعه إلى ذلك هو مجرد العطف...

ـ مجرد العطف؟ آه يا شقيقي الخبيث؟

ـ أقسم لك يا أخي..

ـ لا تقسم! لقد كنت أراك وأنت تبث تحتها مداً من الديباج وهي تستحم، وتأخذ في هدهدتها في رفق.. فكنت، أرثي لك!

ـ لا وحقك.. لقد كان العطف وحده هو الذي يدفعني إلى ذلك!

ـ لا تقسم.. فلقد كنت عاشقاً وذا صبوات.. هل تذكر زمان أن أحببت سيريز وأخذت تزحم عليها الدنيا بحبك حتى ضاقت بك، فسحرت نفسها فرساً لكي تستخفي منك... فلم ينطلِ ذلك عليك، وسحرت نفسك جواداً.. ولم تزل بها تتبعها في كل صوب.. وتهاجمها في كل حدب.. حتى اضطرت آخر الأمر أن ترضى بك بعلاً.. ورزقتكما من هذا الزواج ولدك الحبيب المهر آريون؟

ـ ...؟

ـ وهل تذكر زمان أن أحببت تلك العروس الحسناء تيوفانيه، فلما ضاقت بك وبغرامك، سحرت نفسها شاة.. فسحرت نفسك كبشاً.. ولم تزل بها حتى رضيت بك بعلاً.. ورزقتك منها بولدك الخروف الحبيب صاحب الفروة الذهبية؟

ـ ....؟

ـ وهل تذكر...

ـ أذكر.. أذكر.. أذكر كل شيء.. وأذكر يوم أن سحرت نفسك عجلاً لتهرب بحبيبتك أوديا.. ويوم أن سحرت نفسك ذكراً من ذكران البجع لتنسرق من زوجتك حيرا إلى حبيبتك ليدا.. ويوم أن...

ـ حسبك.. حسبك.. حسبك يا نبتيون.. فماذا ترى؟

ـ أرى أن ترسل صواعقك لتحول بين هذين المتحاربين.

ـ سأفعل.. سأفعل..

* * *

وهكذا حالت صواعق زيوس بين أبوللو وايداس..
وقال سيد الآلهة.. وكان صوته من ناحية الأولمب رناناً قاصفاً:
ـ «اسمع يا أبوللو.. اصغ إليّ يا ايداس.. ليغمد كل منكما سيفه.. ولتتكلم ماريسا.. ولتختر لنفسها.. بهذا قضيت.. والويل لمن عصاني»

وأغمد العاشقان سيفيهما.. ونظرا نحو ماريسا.. ماريسا المسكينة التي لم تكن تشك في حب أبوللو.. ولا تكفر بجماله.. والتي بهرتها مقدرته، وخدعها جماله، وغازل أحلامها أنه إله فأوشكت أن تختاره.. زوجاً خالداً من أرباب الأولمب.. لولا أن سمعت الذي يهتف في أذنها يقول:
ـ أبوللو؟ تختارين أبوللو الخالد.. الذي لا يهرم.. بينما أنت تهرمين وتشيخين ويدركك الكبر.. فيكرهك أبوللو.. ويمضي إلى سواك!!!

ولم يكد هذا النذير يصك أذني ماريسا، حتى تخاذلت، وأدركت هذا الحق الذي تكلم به في أذنها نبتيون.. حتى توجهت من فورها إلى ايداس فوضعت يدها في يده، وطوقت بذراعها الأخرى كاهله.. وهي لا تزال تنظر إلى أبوللو...

واختارت ماريسا ايداس... لأنه مثلها... إذا فاته الشباب.. أدركته الكهولة.. وأصابه الهرم.. مثلها.. مثلها تماماً.

وضحكت السماء.. وقهقه زيوس.. وفرح نبتيون.. وشمتت ديانا..
وبكى أبوللو وحده!!

ملك فقد قلبه!

كان رجلاً بلا قلب...

كان تانتالوس، ملك فريجيا، رجلاً جباراً لا قلب له ولا عاطفة.. إذا سار سار مختالاً كأن البرايا جميعاً عبيده، وإذا نظر دائماً من فوق.. لأنه لم يكن يرى شيئاً فوقه قط...

وكان يسوم قومه الخسف، ويكلفهم ما لا طاقة لهم به، ثم هو مع ذاك كان فاجراً كفاراً، لا يعترف بسلطان فوق سلطانه في الأرض، ولا يؤمن بإله غير هواه في السماء... وكان كلما رأى الناس يهتفون باسماء الآلهة، أو يسبحون بحمد الأرباب، أنكر عليهم وسخر بهم... وسلط عليهم عماله وشرطه يهدمون عليهم هياكلهم، ويقطعون عليهم صلواتهم، ويذيقونهم كل غصة وكل نكال.

وكان لا يستحي أن ينهب أحباس الهياكل، ويحتجز ما نذره رعاياه على منشآت الخير، ثم يبعثر هذا وذاك على أهوائه العابثة المعربدة، وشهواته التي كانت تطمس في نفسه كل معالم الانسانية، وتجعله ضبعاً من ضباع البرية، لا يحسن إلا أن يسطو على الرمم، وينوش الجيف، ويقطع الطريق، ويروع السابلة...

ولم تعدم رعيته رجلاً صالحاً ينصح إليه، ويحذره سخط الآلهة، ويبصره عاقبة هذا الغي الطويل الذي سدر فيه، وتردى في ظلماته... لكن الملك كان يلهو أشد اللهو بهذا الرجل الصالح، ويغلو في السخرية منه.. حتى لقد قال له، بعد نصيحة طويلة أسداها إليه، فأصم أذنيه دونها، إنه يشتهي أن يحلق لـه لحيته الطويلة الجثلة تلك، وأن يعهد إليه بذبح العجول في المذبح، ليريحه من وعظ الشعب في الهيكل، فالشعب في رأيه، إذا طعم، استغنى عن عظات الكهان وعبادة الآلهة، واستعاذ الكاهن من الملك الفاسق بأربابه.. وهاله أن يحضر الملك الحلاق فعلاً، فيأخذ هذا في حلق اللحية الكبيرة.. الصالحة!

ولكن.. يا للهول!.. إن ما يحلقه الحلاق منها ينبت من فوره ويطول، حتى

يكون أطول من الأجزاء التي لم تحْلق وأسبل.. بله الرائحة الزكية، واللمعة الناعمة الآلهية...

وتوقف الحلاق فجأة.. وضرب بأمر الملك عرض الأفق..

وسأله صاحب الجلالة فقال إن السماء تتدخل.. فلما لم يفهم الملك أشار الحلاق إلى الهواء وقال إن وجوهاً نورانية تنظر إليه «من هنا.. من هنا».

وسخر الملك وصرف الحلاق، وصرف الكاهن..

ووقف الكاهن في هيكله أمام المذبح، وأخذ في صلاة هادئة ضارعة، بللها بقطرات من دموعه.. فلم يمضِ وقت طويل حتى رأى الهواء ينشق من حوله عن طيف الإله اللطيف، خفيف الروح «هرمز» رسول السماء، وحبيب سيد الأولمب.

وسجد الكاهن بين يدي الإله الكريم، فتقدم هرمز وربت فوق كتفه، ثم أذن له بالوقوف وهو يكاد يتصدع من الهم، لكن هرمز طمأنه، لأن السماء بسبيل تجربتها مع تانتالوس الجبار.

لقد أرسلني أبي ـ زيوس المتعال ـ لأطمئنك، ولأخبرك أن عين السماء ترعاك، فلا تجزع.. واذهب إلى تانتالوس فقل له إن آلهة الأولمب، وربات سيزورونك من الغد، فأوْلِمْ لهم بما هم له أهل».

وتبسم هرمز، ثم غاب في هواء الهيكل.. وصدحت أصوات لا يعرف أحد مصدرها تحيي ابن السماء.. وتنشد باسمه الأناشيد..

وسجد الكاهن.. وأخذ يتمتم بصلاة خافتة.. ثم نهض.. وانطلق إلى قصر الملك وطلب لقاءه.. لكن الرسول عاد يقول إن الملك لا يريد لقاءه، لأنه يكره السحر والسحراء.

السحر والسحراء! آه! لقد ظن صاحب الجلالة أن نبات الشعر في لحية الكاهن كان سحراً...

لكن الكاهن أخذ يلحّ في وجوب لقاء الملك.. ثم شرع يصيح بصوت عريض: «إن السماء هي التي أرسلتني للقاء الملك، ولن أبرح القصر حتى ألقاه.. قولوا له هذا.. يجب أن أرى الملك.. يجب أن أرى الملك».

وسمع الملك ما تصايح به الكاهن، فأقبل مغيظاً محنقاً.. ثم هجم على الرجل الشيخ، وراح يكيل له اللكمات مرة، ويصفعه فوق قذاله وخديه وصدغيه مرة أخرى.

لكن الكاهن لم يبالِ ولم يتزحزح بل راح يقول:

«أيها الملك.. لدي رسالة من السماء يجب أن أبلغها إليك.. إن آلهة الأولمب وربانه سيزورونك في الغد، وهم يأمرونك أن تولـم لهم بما هم له أهل»

ولم يزد الكاهن على ما أمره هرمز أن يقول حرفاً.. ثم انكفأ على عقبيه ليعود أدراجه إلى الهيكل.. لكن الملك، الذي أخذ يقهقه فجأة، أمره أن يعود.. فعاد الرجل الصالح.. ووقف ليسمع من الملك سخرية ثقيلة، وكفراً مهلكاً.. إن الملك يسأل الكاهن عن آلهته هؤلاء، الذين سيزورونه في الغد.. من هم؟ وما عددهم؟ وما شأنهم؟ وهل سيزورونه في صورة إلهية؟ أو في هيئة بشر لهم أعين وآذان وأيدٍ وأرجل؟ أو أنهم سيزورونه في هيئة الطير، ذوي أجنحة مثنى وثلاث ورباع؟ ثم ماذا يولم لآلهة لا يعرف ماذا تأكل.. ولا ما تشرب؟ وإذا كانت تأكل وتشرب، فأي الأطعمة تفضل، وأي الأشربة لا تذوق؟.. وفي أي الآنية يقدم لها من ذاك الحلو.. ويفعهم لها من ذلك الأحمر الصافي، أو هذا الأصفر الحريف؟ وما ترى؟ أتحب أن يزاد لها في ملح ذاك اللون؟ أم هي تميل إلى الإقلال منه فيه؟

ثم يقهقه الملك إمعاناً في الزراية بالكاهن الصالح، والاستهزاء بآلهته، لكن الكاهن الصالح لا يثور، ولا يخرج عن طوره.. بل يثبت ثبات اليقين الراسخ الذي يعمر قلبه، وينصح للملك في عبارة لينة، وكلمات نيرة مؤمنة، أن يفيء إلى أمره، ولا يتبع هواه، وأن يذكر أن الآلهة لم تخلقه ليكفر بها، وليسوم كهنتها هذا الخسف، ولينزل بعبادها ذاك العذاب.. وأنها إن تكن قد أمهلته إلى اليوم فلأنها تفسح له في مجال التوبة، وعسى أن تنفع به رعاياه.

ثم يدخل فتى غض الأهاب فارع الشباب، فيتقدم إلى الملك، ثم يسجد بين يديه، ويبلل مرمر البهو بماء مقلتيه..

من؟ أوه إنه ولي العهد! إنه بيلوب الجميل الصالح.. المؤمن الذي تحبه الآلهة.. إنه ابن تانتالوس المشؤوم...

لقد ذهب يوماً إلى الهيكل فأخذت بمجامع قلبه روعة المكان، ورأى عجوزاً تبكي أمام المذبح، وتدعو لابنتها المريضة بالشفاء، فنزلت دموعها برداً على قلبه وسلاماً.. وأروت نفسه بالايمان. ويمم شطر ذلك الكاهن الصالح، الواقف بين يدي أبيه، فطلب إليه أن يباركه.. ويهدي نفسه الحائرة سواء السبيل، فأرسل الكاهن يديه الضعيفتين المرتعشتين ليمسح رأس الغلام، وليدعو له بالخير.. فلما انطلق الغلام إلى القصر الملكي، آثر أن يجلس وحده ليفكر في أعمال أبيه.. هذا

الأب الملك الذي لم يره يذهب إلى الهيكل مرة، ولم يره يتبتل إلى الآلهة يسألها الرشد، ويطلب إليها الهداية.. كما يصنع عامة الشعب، وكما فعلت هذه المرأة، العجوز التي ركعت تبكي أمام المذبح، طالبة لابنتها الشفاء، ثم ذكر أنه مرض كثيراً، واعتلت صحته مراراً، إلا أنه لا يذكر أن أباه قال له يوماً إنه توجه إلى الهيكل ليدعو له الآلهة بالشفاء كما صنعت تلك الأم العجوز، وذكر أمه المتوفاة فبكى، وتوهم أنها لو كانت عائشة لفعلت، ولكانت من المؤمنات الصالحات، ولذهبت إلى الهيكل مراراً لتدعو له بالخير، ولذبحت من أجله القرابين في الهيكل ليطعم من لحمها الفقراء، وليكتب بدمها الأحمر الدافىء القاني عهداً بينه وبين السماء، يجلب له الرضا، ويفسح له في جنات اليزيوم، ويكون له منه نور في ظلمات هيدز.

ووقف بيلوب أمام والده الملك وقد آلى أن يكون شجاعاً معه، وطمع في أن يقول له قولاً ليناً قبل ذلك، عسى أن يهديه الصراط المستقيم.

ثم أخذ الشاب يجادل أباه.. وأبوه يستهزىء به:

ـ كيف يا أبي تمد يدك لتقتل هذا الرجل الصالح، وقد رأيت السماء تكلمه، والشمس تقف له فتحييه، والقمر ينزل من عليائه ليصافحه؟

ـ السماء والشمس والقمر؟... جميعاً؟

ـ بل فينوس، وأكثر سكان السماء، ألا تخشى يا أبي أن يصيبك أحدهم بسوء؟

ـ ومِمَ أخشى، ولم أرَ منهم أحداً كما رأيت أنت.. يا صغيري؟

ـ أولا تخشى الآلهة.. إلا أن تراها؟ أوَ لم تؤمن؟

ـ أخشى أن تكون قد اتصلت بهذا الكاهن فسحرك، هل كنت تتصل به؟

ـ أجل...

ـ وأين؟

ـ في الهيكل!

ـ آه.. وهناك أراك الآلهة؟

ـ بل رأيتها خارج الهيكل..

ـ ومتى؟

ـ طوال هذا الأسبوع، منذ أن جاء إليك الأب الصالح ليهديك صراطاً مستقيًا.

ـ وتدعوه أباك الصالح؟

ـ وأنّ لي أن يكون أبي؟ إنه متصل بالسماء.. ونحن هنا.. نلوث أنفسنا بأرجاس الأرض.

ـ وأنا...؟

ـ وأنت الوالد الذي أرجو أن يهتدي، وأن يكفّ أذاه عن البرايا..

ـ أهي مؤامرة بينك وبينه إذن؟

ـ وأية مؤامرة يا مولاي الملك؟

ـ إنكما تتكلمان بلسان واحد.. إن صوتك يكاد يكون صوته.. ولا بد أن يكون قد سحرك هذا الكاهن الأثيم!

ـ بل.. رفقاً يا أبي.. إن السماء هي التي تكلمك بلسانه ولساني.. إنها فتنة.. فأحسب لها حسابها يا والدي العزيز.

ـ صه.. فلأؤدبنك حتى يعود إليك صوابك، أتدري ماذا يقول هذا الشيخ؟

ـ ماذا...؟

ـ إنه يقول إن الآلهة ستزورني غداً.. أتدري لماذا؟

ـ لماذا؟

ـ لتأكل.. لتأكل يا كاهن المعبد.. آلهتك تريد أن تأكل! عجباً لأرباب الأولمب تنزل من عروش السماء لتأكل على مائدة تانتالوس!

ـ وماذا في ذاك يا مولاي الملك؟

ـ ماذا؟.. يا عجباً.. لقد فتنك هذا العجوز الزنيم!

ـ ولماذا تأكل أنت؟ ألست تزعم أنك أقوى من الآلهة؟

ـ ورأس أبي لقد سحرك الرجل!

ـ رأس أبيك! وأين هو هذا الرأس الذي كان يتوهج تاجك هذا من فوقه؟ أين؟

ـ ولد ضال يهزأ بآبائه!

ـ لست أهزأ بآبائي إلا إن كنت تهزأ بآلهتك!

ـ ورأس أبي لأؤدبنك.. ورأس أبي لأنفذن ما جال بذهني الساعة!

ثم دعا الملك أحراسه فأمرهم بسوق ولده إلى قبو القصر، وأن ينتظروا معه ثمة حتى يأتيهم عنده.. ونظر إلى الكاهن الثابت كالطود لا يتهيب ولا يتخوف، فقال له: «اذهب إلى آلهتك فقل لها إن تانتالوس يرحب بكم غداً في قصره.. وسيولم لكم وليمة لا تدور لأحد في بال.. بل لم تدر لأحد في بال..»

ولكن الكاهن الذي أهانه الملك وأزال كرامته.. يتلقى هذه الكلمات باسماً، إنه... كما قال بيلوب، الأمير الصالح، الذي كلمته السماء، وحيته الشمس، وصافحه القمر، واتصلت به الكواكب والنجوم والأبراج.. ومن كان هذا شأنه فلا خوف عليه.. إنه متصل بالسماء.. ومن اتصل بالسماء اطلع على كل شيء.. إنه يعلم ماذا ينتوي تانتالوس... الرجل الجبار الذي لا قلب له...

وكان الكاهن الصالح ينظر إلى الأمير الصالح.. والجنود يقودونه.. ثم يبتسم: ثم يقول: «لا بأس.. لا بأس با بني.. تشجع.. تشجع.. إن الآلهة كلها تحرسك»

وذهب تانتالوس الجبار للقاء ولده بيلوب في قبو القصر، فوجده يضحك مسروراً مستبشراً، فعجب الملك الجبار ثم سأله عما يضحكه، فقال إنه فرح مستبشر لأن الآلهة تحرسه كما أخبره الكاهن.. والكاهن صادق لم يكذب قط، ولم يلغُ قط.

-«... لقد كنت فزعت منك أن تكون قد أضمرت لي في نفسك شراً.. فلما قال الكاهن ما قال برد صدري، واطمأنت نفسي.. وآمنت بأنك لن تستطيع أن تمسني بأذى.. وكيف تمسني بأذى والآلهة كلها تحرسني».

ويتجهم وجه الملك، ثم يقول لأبنه: «كل الآلهة؟» فيقول بيلوب «كلها.. أو لم تسمع أنت بكلتا أذنيك؟»

ويقول الملك وهو ينصرف: «إذن سأرى»

وتغيم السماء في صباح اليوم التالي.. وتغيب أورورا الوردية، فلا يتفتح الزهر في الأفق الشرقي.. بل تضرب فيه بروق، وتهزم رعود، ثم يتخايل أبوللو بين السحاب لحظات في مركب الشمس، ليسخر من الملك الجبار، ثم يثني عنانه ليلحق بركب الآلهة التي شرعت تتخذ صورها البشرية، لتسير في موكب زيوس سيد الأولمب.. قصر تانتالوس..

ووقف الملك في شرفة القصر يضحك.. و.. يضحك.. وكلما أقبل وفد من أرباب الأولمب ـ وهو لا يؤمن بأنها أرباب ـ اشتدت سورة نفسه، وغلى الدم في عروقه، وود لو يستطيع أن يطوق عنق ذلك الكاهن الساحر فيقضي عليه.. ذاك الكاهن الذي استطاع أن يصنع كل هذا السحر، فيفتن ابنه، ويشيع في نفسه الايمان بتلك الآلهة، الخرافية... ثم يحرك في الهواء تلك الشخوص تمشي رويداً رويداً، وتميس في أبراد الحرير وأردية المخمل، ويجعل منها كوكباً يراه الناس

فيزدحمون حوله، ساكنين صامتين مأخوذين مشدوهين، مبهورة أبصارهم مستشرفة أعناقهم. . كأنهم جميعاً في حلم واحد صور لهم عالماً غير هذا العالم، وأراهم دنيا غير هذه الدنيا. . . وجاء اليهم ببشر غير هؤلاء البشر، وأناس تكاد جسومهم تشف من نور فلا تحجب ما وراءها، وتأتلق وجوههم فتكسف الشموس وتحجب الأقمار، وتنسي الكواكب.

وأخذ تانتالوس يلقى أضيافه بكلمات النفاق الظاهر، والترحيب المصطنع، وهو يفكر في أنها أطياف مسحورة من عمل الكاهن العجوز.

وكان إلى جانب الملك ابنته الجميلة البائسة «نيوب» التي لم تكن تشارك أباها كفره كله بمعشر الآلهة، لأنها كانت تعرف أن الأولمب حق. وأن له أربابه ورباته. . وإن تكن هي تفضل نفسها على جميع هؤلاء الربات حسناً وفضلاً وحجىً. . ولا سيما كل من تدعي الجمال منهن.

ولقد كانت نيوب جميلة حقاً. . كان لجسمها تلك النضرة التي تكون للخميلة في بواكير الربيع، وللزهرة اليانعة أول ما تتفتح، وللقلب الصغير أول ما تصافحه ابتسامات الحب، ولليل المقمر حين يدني الميعاد للعاشقين المشوقين.

كانت جميلة. . لكن جمالها كان ضيق الرحاب، قريب الأفق، لا يتسع لغير جسمها، وروحها. . ولو اتسع قليلاً فشمل قلبها. . لكان جمالاً باهـراً غامـراً عميقاً. . ينبع من النفس قبل أن ينعكس على البشرة، ويجذب القلوب قبل أن يسحر الأعين. . .

كانت نيوب تقف إلى جانب والدها تستقبل مواكب الآلهة، غير حفية بهم، ولا مظهرة ما ينبغي لهم من تجلة وعبادة وتقديس. . وكانت تلقى ربات الأولمب في شيء من الفتور، وقلة الاحتفال، لم يغب عن بال حيرا ولا تونا وفينـوس. . فأسررنه، ومضين إلى أماكنهن من هذه الوليمة الشاحبة، التي تصدرها زيوس، وأخذ الآلهة ينظرون إلى طعامها الفقير ويبتسمون. .

ولما اكتمل عقد الجماعة. . أقبل تانتالوس الساخر المتغطرس المستهتر، وراح يلوح بيديه. . إلى الطعام الشاحب الفقير مرة. . وإلى الآلهة التي يحسبها أشباحاً مسحورة، مرة أخرى، ويقول: تفضلوا. . تفضلوا يا آلهة الأولمب. . ألا تطعمون؟ ما لكم لا تمتد أيديكم إلى هذا الطعام الفاخر؟ لقد أعددته لكم من أعز ما كنت أقتني، فلماذا لا تأكلون؟ تفضلوا. . تفضلوا. .

وكانت إلى جانب زيوس أخته المحزونة سيريز، التي كانت ابنتها برسفونيه قد

اختفت منذ عهد قريب، ولم تكن الأم المحزونة المعذبة قد عرفت بعد أين ذهبت.. وكانت سيريز من طول ما بحثت عن ابنتها قد اشتد بها الجوع، وجدّ بها الظمأ، فلم تنتظر حتى يأذن أخوها سيد الأولمب بالشروع في الأكل، بل مدت يدها ونهشت نهشة من ضلع الذبيح الذي كان بارزاً فوق المرق.. وارسلتها في فمها... ثم جعلت تلوكها فيه.. ثم إذا هي تقذفها منه.. لأنها لم تكن طعاماً كريماً ولا سائغاً...

ونظرت سيريز حولها.. فوجدت الآلهة تنظر إليها وتبتسم.. وزيوس يحمل في يده ملعقة كبيرة بها شيء من أشلاء الذبيح.. فلما أمعنت فيه النظر.. وجدت أصابع آدمية تتدلى من الملعقة.. ففزعت سيريز... وصرخت بملء فيها: «ماذا؟ ماذا أرى؟... أيكون هذا الذبيح هو ابنتي الحبيبة برسفونية؟»

ولكن الاله الأكبر طمأنها.. وقال لها: «كلا إنه بيلوب الصالح المؤمن.. ابن هذا الرجل القاسي المتحجر القلب.. الذي انتزعت الرحمة من فؤاده.. ذبحه أبوه لنا لنطعمه في زعمه... زراية بنا وهزءاً وسخرية.. وامتحاناً لربوبيتنا»

ـ وذبحه أبوه! يا للرجل!

ـ أجل.. ذبحه.. وأمر به فطبخ.. وأعد لنا منه هذا الحساء!

ـ هذا فظيع.. إني لا يكتحل جفني بنوم من أجل ابنتي برسفونيه! ولماذا فعل الدنس هذه الفعلة؟

ـ فعلها لأن ابنه يؤمن بنا معشر الآلهة.. وفعلها امتحاناً لنا.. لقد أخبره كاهننا الصالح أننا نحرس ابنه.. فأراد تجربتنا.. أراد أن يرى هل نحن نحرسه حقاً.. فأزمع ذبحه ليرى، فلما ذبحه، ولم نشأ أن نتدخل لنحميه من أبيه لنرخي له في عنان غيه، وليزداد كفراً على كفره، وعتواً على عتوه، أيقن أن هذا كله سحر.. وأننا كلنا سحرة، وأن الكاهن قد سحر ولده وفتنه عن نفسه، وعن الانقياد لأبيه... فذبح بيلوب، ولما توهم أن ليس له منا من حام، قال: أعد الوليمة لأطياف السحر من لحمه... وقد أعدها بالفعل.. وها هو ذا المرق.. وفيه لحم بيلوب الصالح.. وها أنت ذي، في صورة حزنك على برسفونية، قد نهشت من كتف الغلام نهشة... ونسيت أنك ربة لا تطعمين ما يطعم البشر، ولا تشربين ما يشربون.. فطعامنا فالوذ الأولمب، وشرابنا نقتاره(*)... فانظري ماذا

(*) يونانية معربة من نكتار خمر الآلهة.

أنت صانعة حين يقوم هذا العبد الصالح من مرقده في هذا الدست. . أيكون بلا كتف؟

ـ وهل قضى أخي سيد الأولمب أن يرده إلى الحياة؟

ـ أجل. . ليعلم تانتالوس القاسي أن الذي أمامه ليس سحراً. . وليعلم أننا لولده بيلوب نعم الحارسون!

ـ إذن فأنا أصنع له كتفاً من العاج الطري، وأجعل فيها من الجواهر واليواقيت ما يكون أعجوبة الحياة الدنيا.

ثم سكت الإله الأكبر هنيهة. . ثم نظر إلى تانتالوس. . ونظر إليه أرباب الأولمب جميعاً. . لكن تانتالوس مع ذاك، لم ينهنه من كبريائه، ولم يطعن في زهوه، ولم يقلل ولو ذرة واحدة من عتوه، وإيمانه بأن الذي يرى هو سحر كله. . وأن الذي يسمع هو سحر كذلك وقد خطر له في تلك اللحظة خاطراً سفه أوجع روحه. . وذاك أنه لم يذبح الكاهن كما ذبح ولده، ليجعل من لحمه طعاماً لأربابه في تلك الوليمة. . ثم ابتسم تانتالوس ابتسامة لئيمة صفراء عند ذاك، وقال لنفسه: ومع ذاك، فلا بأس. . سأذبحه. . سأذبحه هو الآخر وأجعل منه أداماً لهذه الأرباب الجائعة!

ولكن زيوس، سيد الأولمب، يقهقه فجأة، ويقول لتانتالوس:

ـ كلا. . لن تذبحه. . ولن تمتد إليه يدك. . فأنا أعلم ما توسوس به نفسك. . وسأريح العالم منك. .

وذهل تانتالوس. . وساءل نفسه من أنّ لهذا الشبح معرفة ما دار في نفسي؟ إني لم أنبس به، فكيف علمه؟

ثم عادت إليه أنفاسه المبهورة، وتذكر السحر، فأخذ في ابتسامته اللئيمة الصفراء من جديد. . وراح يقول لنفسه: لعمري لأسألنه كيف يعيد الحياة إلى ولدي. . وقد قطع إرباً، ومزق على هذه الصورة؟

لكنه قبل أن يفتح فمه. . سمع الإله الأكبر يقهقه كما قهقه أول الأمر ويقول:

ـ اسمع يا تانتالوس. . لقد قضيت أن يقوم ولدك الساعة. . ولو كانت أشلاؤه موزعة في بطون الطير وسباع البرية في المشارق والمغارب، وأعماق الماء. . ولكني أنا الرؤوف الرحيم أفسح لك في ميدان التوبة قبل أن يجري عليك غضبي، فهل تقلع عن غيك، وتؤمن بالأولمب، وتحكم قومك بالعدل، وتسلك في حياتك

الصراط المستقيم، إذا شاهدت ابنك حياً يجيء ويروح بين يديك؟

ولكن تانتالوس لا يجيب.. إنه يتجهم ويربد وجهه.. وينظر عن يمين ثم ينظر عن شمال ثم يحملق في أشلاء ابنه العائمة في المرق...

لقد أخذ شيء من الوسواس يساوره ويقلق عليه باله...

لكن تانتالوس الذي سبقت عليه شقاوته، يقول في نفسه فجأة:

آه.. إنه فصل جديد من فصول هذا السحر، إن الكاهن يأبى إلا أن يوهمني بسحره إن ولدي قد قام من هذا الدست.. فاحذري يا نفس أن يشعبذ عليك العجوز الماكر، وأن تشعبذ عليك أطيافه»

ويقهقه زيوس مرة ثالثة.. فلقد عرف ما توسوس به نفس تانتالوس...

ولا يبالي الملك.. بل ينطلق لسانه الكافر فيقول: «إني لا شأن لي بهذا السحر كله، ولست أبالي بالكاهن ولا بأطيافه.. ولن ألغي عقلي لأؤمن بهذا السخف كله»

ويبهت زيوس.. وتصك كلمات الملك أسماع الآلهة.. وتمضي لحظات فظيعة أقسى من صمت الموت، يقطعها زيوس بقوله:

«يشعبنه عليك العجوز الماكر، وان تشعبنه عليك أطيافه»

ويقهقه زيوس مرة ثالثة..

ــ عقلك؟ وأين كان عقلك هذا وأنت تذبح ابنك يا رجل؟

ــ لا شأن لك يا ثمرة السحر

ــ ألا تزال تعتقد أن كل الذي أمامك سحر يا تانتالوس؟

ــ وأكبر السحر!

ــ ألا تهتدي يا ملك فريجيا؟

ــ أنا أهدى من الكاهن وسحره سبيلاً!

ــ ومن هدايتك قتلك ابنك، وظلمك رعاياك، وترديك في حمأة مخازيك، واستبداد أهوائك الفاجرة بمقدسات الشرف والفضيلة في كل نادٍ.. ثم كفرك في هذا كله بالسماء؟

ــ لا شأن لك يا ثمرة السحر، وألعوبة الفساد...

ولم يكد يهرف تانتالوس بهذا الأفك، حتى بهت الآلهة، وتوقعوا أن تنطبق السموات على الأرض، وأن تندك الجبال، وتخر الكواكب، ويفور الطوفان.. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث.. بل ابتسم الإله الأكبر.. وأشار في هدوء ورفق إلى الأشلاء العائمة في المرق، ثم قال:

ـ بيلوب إليّ يا صغيري!
وحدثت المعجزة. . .

فقد قام بيلوب. . من الدست نظيفاً، يانعاً، يافعاً، نجيب المخايل، مرموق اللفتات، عليه من لباس الآلهة أردية فضفاضة. . ولم يكد ينزل إلى أرض البهو حتى أسرعت إليه وصيفات الإله الأكبر. . هذه تمسحه وتلك تضمخه بالطيب، وهذي تحمل ذيله، والجميع من حوله في موكب من عرائس الأولمب، زاد في حشد أربابه بهاء وسناء وروعة. . .

ووقف بيلوب مشدوهاً لحظة. . ثم رأى الإله الأكبر فتقدم نحوه ثم جثا، ثم ظل جاثياً حتى أذن له زيوس، فهب قائمًا. . ووقف صامتاً. . ساكتاً لا يدري ماذا يقول، ولا يدري أين هو، ولا من هو. . لقد كان في ذهول شديد عميق.

وتكلم الإله الأكبر آخر الأمر فقال له:
ـ ألا تكلم أباك يا بيلوب؟

وكأنما أُفيق بيلوب من ذهوله، فشرع ينظر حوله، حتى إذا رفعت عيناه على أبيه الشاخص أمامه. . . صرخ صرخة شديدة مدوية، ثم جرى نحو الإله الأكبر ضارعاً إليه أن يحميه من الرجل الذي لا قلب له. . من أبيه الذي ذبحه ومثّل به. . .
ـ احمني منه يا إلهي. . احمني من هذا الوالد الذي تجرد فؤاده من كل اثارات الشفقة. . أضرع إليك وأتوسل أن تعيدني إلى عالمي الآخر الذي كله برد وسلام ومحبة؟

وهنا نظر زيوس إلى ملك فريجيا. . ثم خاطبه قائلاً:
ـ وأنت؟ ألا تعتذر إلى ولدك وقد تمت التجربة؟
ـ . . . ؟
ـ ألا تزال تحسب هذا الذي تراه سحراً؟
ـ . . . ؟
ـ لعلك ذهلت فلا تدري ماذا تقول!
ـ وماذا أقول. . وهذا أغرب ما يمكن أن يقع من السحر!

ثم نظر الملك إلى ابنته نيوب يكلمها بغمزات عينيه الجامدتين، عسى أن يجد عندها شيئاً يعينه في هذا الموقف الحرج. . وقد وجد هذا المدد بالفعل. . فقد وجدها هي الأخرى تتمتم قائلة:

ـ يا للسحر.. يا للسحر.. يا لك من كاهنٍ ساحر

ولم يكد يسمعها تقول هذا حتى انفجر ضاحكاً وهو يقول:

ـ أليس كذلك يا ابنتي؟ أليس الأمر كما تقولين؟

وتلفتت الفتاة إلى أبيها فتقول:

ـ أجل يا أبي.. هو ما تقول.. هو ما تقول، هذا كله سحر أتاه الكاهن!

ولا يكاد أخوها يراها ويسمعها تقول ذلك، حتى يصرخ بها:

ـ استغفري يا نيوب.. استغفري.. استغفري واركعي.. فهؤلاء آلهتنا..

ولكن الفتاة ترمقه بنظرة مستهزئة وتقول:

ـ مسكين.. مسكين يا أخي بيلوب، لشد ما خدعك هذا الكاهن!

وتهب سيريز فجأة.. وتتوجه إلى نحو الشاب الصالح فتباركه.. ثم تشير بيديها في الهواء اشارات خفيفة فتمتلئان بقطع من العاج ونفائس الجوهر.. وتشرع في وضعها بمكانها من كتف بيلوب لتحل فيها محل المزقة بكلتا يديها، وتقبل الشاب في حر جبينه قبلة أولمبية رائعة يتم بها له شفاؤه، فيسجد بيلوب بين يديها سجدة طويلة خاشعة، ثم تأذن له فيقف، ليسمع الإله الأكبر وهو يقول:

ـ والآن يا بيلوب الصالح.. لقد قضينا أن تنطلق منذ اليوم فتكون ملكاً على البيلوبونيز(*) وسترعاك أعين الآلهة ما دمت قائماً فيها بالعدل حاكماً بين أهلها بالقسطاس المستقيم.. فهلم.. وامض بخير».

ويسجد بيلوب.. ثم ينصرف ليلقى شعبه الجديد بالبشر والترحاب.. ثم يلتفت الإله الأكبر إلى نيوب.. نيوب الشقية.. فيقول لها:

ـ وأما أنت أيتها الفتاة الجميلة.. البائسة.. فاذهبي اليوم.. فلسوف يمتد بك حبل الحياة.. ولسوف تكونين ملكة.. وتنجبين أطفالاً بيضاً كالنجوم.. ثم يكون عند ذلك ما يكون.. اذهبي»

وقبل أن تذهب نيوب، تنظر إلى أبيها نظرات كأنها تودعه بها.. فلقد انكشف عن عينيها الغطاء.. وأيقنت أن هذا الذي ترى حق.. وأنه ليس سحراً كما زعم لها حدسها، ولكن الإله الأكبر ينهرها.. ويصرفها بشدة وهو يقول: «اذهبي.. فخير لك الا تعلمي ماذا خبأنا لابيك من العذاب.. ولقد رحمنا أخاك فلم ندعه يعلم خبر أبيه.. وإلا تفطر قلبه... وذهبت نفسه عليه حسرات.. وإن يكن قد ذبحه من قبل»

(*) المورة، وقد اشتق اسمها من بيلوب.

ولا تكاد نيوب تختفي عن ملأ الأولمب.. حتى يقهقه أبوها الملك تانتالوس ويقول:

ــ لقد سحرت هي الأخرى! لقد مضت ولم تعارض أخشى أن أسحر أنا الآخر...

ويجيبه الإله الأكبر:

ــ كلا.. لن تسحر يا ملك فريجيا ولن تكون ملكاً بعد اليوم.. فلقد قضينا أن نخلص رعاياك منك.. وأعددنا لك في جحيم الدار الآخرة مستقراً يليق بك.. وهو الآن في انتظارك»

ثم صفق الإله الأكبر فبرزت من الهواء ربات العذاب الثلاث.. الكتو.. وتيزيفون.. ومجيرا.. الربات القاسيات اللائي لا تعرف قلوبهن الرحمة، ولا سمعت آذانهن عن عواطف المحبة أو الحنان...

برزت ربات العذاب من الهواء بأوجههن المتغضنة، ونظراتهن الجامدة الصارمة، ومنظرهن المزعج الفتاك.. ثم أخذن يصرخن فجأة، ويهومن حول تانتالوس، متصايحات به:

ــ أيها الرجس الأكبر هلم... فلقد دنت ساعة أخذك.. والقصاص منك..

ثم هجمن عليه هجمة واحدة.. وأخذن جميعاً بتلابيبه، وجعلت هذه تلكزه، وتلك تخزه، والثالثة تلطمه، ثم تمسح ما صنعت وتصفعه... والرجل مع ذاك ثابت الجأش.. لكنه أخذ يعجب من طول ما ظن انه سحر.. ولم يلبث أن وجد الربات الثلاث يحملنه، فيكون فوق راحاتهن كالريشة الخفيفة التي لا وزن لها..

وهن يطرن به في الهواء خفيفات رشيقات، وهن مع ذاك يعذبنه حتى عرف أخيراً أن الأمر جدّ لا هزل.. وانه مذهوب به إلى سواء الجحيم...

وكان الآلهة ينظرون إلى تانتالوس في وجوم شديد.. وهم ينصرفون من قصره الشاهق.. الذي لم يكد آخر أرباب الأولمب يغادر بوابته الكبرى حتى علته كآبة وظلمة، وحتى أخذت أشجار حدائقه تذبل وتذوي، وهذا البهاء الذي يغشى قصور الملوك عادة يربد، ويخور وحشة شديدة تبعث في النفوس الغم والانقباض.

ووصل تانتالوس إلى أبواب الدار الآخرة من ناحية تارتاروس، وهناك انفتح ذاك الباب الضخم الأسود، وبدت وراءه شطآن نهر فليجيتون ذي الحمم.. النهر

الملعون الذي تسبح فيه أرواح الآثمين والطغاة.. أولئك الذين لم يكونوا ينتفعون في الدنيا بعمل صالح، ولا يقدمون بين أيديهم كلمة طيبة، تكون لهم رداء في هذا الموقف العصيب.

ولم تكد أرواح النهر الخبيثة تلفح تانتالوس الطاغية، حتى فزع، وزلزل زلزالاً عظيمًا، وعرف أنه الحق.. الحق المر الذي كان ينكره ويشتد في إنكاره..

ثم مرت عليه في ذلك العذاب أحقاب وأحقاب.. وأخذ الظمأ منذ اليوم الأول يعذبه ويشبوي أمعاءه.. وكان يخيل إليه أنه يسبح في لجة من الماء العذب فيمد فمه إلى سطحها ليحسو حسوات قبل أن... لكنه كان يرى أن سطح اللجة يغيض، وأن الماء كله يذهب إلى أسفل قدميه، فلا يستطيع أن يفوز منه بقطرة.. قطرة واحدة تخفف من جواده(*)، وتقلل مما يشعر به من هذا الصدى.

ولم يكن عذابه مقصوراً على هذا الظمأ الشديد فحسب، بل كان الجوع أيضاً يفتك به ويشقيه، وكانت أمعاؤه تتلوى من شدة ما يشعر به، فيتمنى لو رزق شيئاً يتبلّغ به، أو يهون عليه من هذا الطوى.

وكان ينظر فوق فيجد غصناً مثقلاً بألوان الفاكهة الناضجة.. فإذا مدّ إليه يده ليقطف منه شيئاً شال(**)، وارتفع، ونأى عن متناول يده.. وبدا له أن جميع ثماره أوجه تبتسم وتسخر منه، كأنها تتخذه هزؤاً!

وهكذا كتب على تانتالوس أن يخلد في تارتاروس.. يذوق فيها من هذا العذاب، إلى آخر الدهر.

فهل هذا هو كل شيء؟...

(*) الجواد «بضم الجيم» الظمأ الشديد، ومثله الصدى.

(*) شال، ارتفع وعلا...

دموع تمثال

كان القمر الجميل يسكب لجينه في أرجاء الليل الساجي، وكانت الطبيعة الرائعة تغازل أحلام النائمين وتبسط عليهم سلامها، وكانت أنفاس الربيع ترشف العطر من أكمام الزهر، لتعبق به في عيد لاتونا، ذلك العيد الذي يداعب العذارى بأعذب الأماني، ويغري الشباب في كل ربيع بأحلى الأماني، ويكسب الحياة دفئاً والعيشة مسرة، ويجعل لكل شيء بهجة، ويشيع في الوجود حبوراً.

وكان الفجر يقترب، وتقترب معه تلك الهدأة التي يسكن فيها الكون وتداعب الأحلام ألباب الناس جميعاً.. لأنهم جميعاً كانوا لا بد أن يروا أحلاماً لذيذة في تلك الهدأة من ذلك الفجر.. جميعاً.. جميعاً.. حتى أشقى الأشقياء.. الشقي الذي لم يذق طعم السعادة في عمره قط.. كان يحلم في تلك اللحظة من ذلك الفجر حلمًا لذيذاً... يزيح عن صدره جل همومه، إنْ لم يزحها كلها.. كانت تلك الهدأة الغافية الناعمة الباغمة إذا حانت تشيع في أفئدة النائمين نشوة حلوة هي بلا شك نفحة من نفحات اليزيوم.. فردوس السعداء والصديقين والناجين.

وكانت ألذ الأحلام وأنضرها وأحلاها هي أحلام السعداء الذين لم يبخلوا على ذلك العيد بصدقة تزيد في بهجته ولم يقتروا في شراء باقات الزهور وأكاليل الرياحين وضفائر أغصان الصفصاف وجدائل الشربين، يزينون بها واجهات بيوتهم، وينشرونها في جنبات شوارعهم لتكسبها من نضرة الربيع وخضرته رواء وبهاء وسنا، ولتمييزه من بين الأعياد بتلك المسرة الشاملة التي ترفرف على كل بيت، وتشيع في كل قلب، وتغني في كل حقل، وتزدهر في كل حديقة، وتطنّ مع النحل في خلايا الشهد، وتخمر مع أمور لتسبح بحمد السماء وتصطبغ بالزرقة في أوراق البنفسج لتنشر العطر في دنيا السعداء.. السعداء بلاتونا الجميلة ربة القمر الحالمة والحسناء التي وهبت الأولمب اثنين من أنجب أربابه، وأبهى شبابه.. أبوللو رب الشمس.. وديانا إلهة القمر.

كان أهل طيبة قد استعدوا لهذه الأحلام الجميلة إذن. . وكانوا قد حرصوا على ألا يبيت في مدينتهم مسكين ولا تقع فيها عين أحد على وجه بائس. . فأوى الناس جميعاً إلى مضاجعهم وبيوتهم عامرة بخالص الشهد، ونقي البيض، وطري الرقاق، وشهي اللحم وسائغ الشراب، وجديد الثياب. . ثم الجيوب العامرة والنفوس الزاخرة والايمان الساكن الراضي، والمحبة الصافية الصادقة والتآخي المتين الموفور.

كان أهل طيبة كذلك. . إلا نفساً واحدة. . نفساً كان ينبغي لها أن تكون راضية سعيدة بهذا الشعب الراضي السعيد.. لكنها ماذا تصنع وسعادة هذا الشعب، وفي تلك المناسبة الخاصة. . هي مصدر حقدها ونقمتها وسبب تلك الثورة العنيفة الجامحة التي تعصف بها، وتصليها من أمرها فيه.

إنها نيوب! نيوب الشقية التي لم تدر أين ذهب أبوها البائس منذ هذا اليوم الذي غضبت عليه السماء كلها فيه.

لقد عادت نيوب إلى قصر أبيها بعد إذ غادرته الآلهة. . لتجده قصراً كئيباً كاسفاً موحشاً، صوحت أشجاره من حوله، وبدت جذوعها وفروعها كأنها هياكل موتى الأرض جميعاً، برزت من تحت التراب، نحو تلك الدار التي كانت بالأمس وجعلت تنسل من كل حدب ميممة دار صولة، ومقر دولة وأصل سلطان، ومستقر جبروت. . فما عتمت أن أصبح هذا البناء الذي لا هو قصر ولا هو طلل. . البناء الموحش الذي تغشاه عتمة، وتضرب من فوقه ظلمات وتنبعث منه كآبة الطغيان الدابر والظلم الغابر، وتأخذ الناظر إليه ريح الذكريات المؤلمة، والأحاديث الآثمة، وأحزان المكروبين والموجوعين والمعذبين.

عادت نيوب لتجد هذا كله. . فلم تطق أن تسكن القصر، ولا أن تقيم فيه، ولا سيما بعد أن رفض أخوها العودة إليه وبعد أن رفض أن يصل أسبابه بأسباب هذه الدولة الفريجية التي كره أهلها تانتالوس. . وذرية تانتالوس، وكل ما يمت إلى تانتالوس بصلة، أو يأخذ معها في نسب وبعد أن أصبح هذا الأخ الصالح بيلوب، ملكاً ذا تاج وذا صولجان لهذه المملكة التي أحبته وأخلصت الود له. . البليبونيز. .

المقادير. . التي لم تمهلها كثيراً. . والتي هرولت إليها بملك عظيم من ملوك اليونان يخطبها على نفسه. . هو امفيون ملك طيبة. . . وبانيها الموسيقار والمجيد. .

وامفيون هذا، هو ابن الاله الأكبر. . فهل من الآباء مثل أبيه؟ لقد كان

زيوس، سيد الأولمب.. يضرب يوماً في جنبات جبل ابدا.. وفي روضة زاهية من رياض تلك الجنة، شهد فتاة لعوباً طروباً فتانة المحاسن لدنة العود ريانة الجيد، قد نزعت عنها معظم ثيابها ونزلت إلى النبع القريب، تبترد من قيظ الظهيرة وتضرب في الماء بيديها ورجليها، فتخرج من الماء نغمات عجيبة تزري بكل ما تسمع الأذن من موسيقى، حتى لقد خلبت لبّ الإله الأكبر، وأطارت صوابه، فجعل يقترب ليملأ أذنيه، ويشبع نهم عينيه.. لكنه أحس حبها يغزو قلبه، ويجذبه إليها جذباً شديداً، فصمم على الزواج منها والزواج منها في تلك اللحظة السعيدة بل أسعد اللحظات.. وهي اللحظة التي يتنفس فيها نسيم الحب، أول ما ينفس في قلوب العاشقين..

ولم يفكر سيد الأولمب طويلاً.. بل لقد تحول أول الأمر نسمة.. عذبة من نسمات السماء الزرقاء وجعل يرف على فم انتيوب، مرة، ثم على خدها مرة أخرى، ثم يقبل هذه الوجنه تارة والوجنة الثانية تارة أخرى، ثم يرف بعد ذلك على الجيد المشرق الريان فيدغدغه، وعلى العنق الطويل فيرقص فوقه ويراقصه.. وكانت انتيوب تشعر بكل ذلك، وكانت تدرك أن إلهاً كريماً مستخفياً في هذه النسمات الحلوة قد أخذ يداعبها ويرقص من حولها، ويغازل جمالها في كل مفاتنه.. ولم تكن تجد في ذلك كله حرجاً.. بل كانت تجد فيه لذة عجيبة لم تعرفها من قبل في مناعم هذه الحياة الدنيا.

ولم يكن بحسب الإله الأكبر هذا المتاع الذي احتال ليجعله أضعافاً مضاعفة.. فاستحال شؤبوباً من المطر، وجعل ينهل في رفق، وفي قطرات باردة على الشعر الأسود، والجبين المشرق، والخدين الموردين، والفم الباسم، والأنف الدقيق، والذقن الأنيق والصدر الناهد.

واتخذت نيوب قصراً آخر بعيداً عن قصر أبيها.. وبقيت فيه تنتظر ما تأتيها حتى إذا وقع الشؤبوب كله من حول انتيوب راح يحيط بها.

ثم تستيقظ العروس لتجد نفسها زوجة كريمة لسيد الأولمب، يحبها ويؤثرها على أزواجه شطراً من الزمان تلد له فيه امفيون العجيب، وصاحب القيثارة التي ورثت سحر موسيقاها من سحر موسيقى انتيوب.. ثم تلد له ابناً آخر.. هو نريتوس.. الشاب البار الوفي.. الذي لم يكن له في الوفاء ضريب..

ثم تتبدل الايام.. ويزهد سيد الأولمب في حسنائه.. ويصرفه عنها صيد جديد.. ثم صيد ثم صيد ثم صيد.. فتمضي انتيوب لشأنها لكنها لا تلبث أن

يزوجها زوج آخر.. ليكوس ملك طيبة.. الذي تخفي عنه ماضيها كله.. وصلاتها الزوجية بالإله الأكبر.. وانها أم لولدين.. هما إلى ذلك اليوم لا يعرفان من أبوهما.. وإن كانا يحبان أمهما كما يحب كل انسان امه.

ثم مضت سنون.. وحدثت بين ليكوس وانتيوب تلك الجفوة التي وقعت بينها وبين سيد الأولمب.. ثم تزوج ليكوس من غادة جديدة.. أوفر شباباً وأشرق إهاباً وأشد فتنة.. وكان اسمها ديرس.. فلم يكن عسيراً عليها أن تجعل زوجها يهجر ضرتها، وأن يغلو فيسجنها في إحدى قلاع القصر، وأن يسومها الخسف وسوء العذاب.

وتصل أنباء الأم المسكينة، عاثرة الحظ إلى ولديها، امفيون ونريتوس فتثور ثائرتها، وينطلقان من فورهما إلى طيبة، فيحاربا ليكوس ويهزمانه، بعد أن ينقضا حجارة أسوارها حجراً فوق حجر، ثم يقتلان ملكها الظالم الذي عذب أمهما.. أما ديرس.. فيربطان شعر رأسها في ذيل عجل جسد طالما أثار الأرض وملأها خواراً ورعباً.. ثم يرسلانه ليجر خلفه ملكة طيبة المدللة.. وليقضي عليها بعد طول تعذيبها.

أما امفيون فيطلع على أسرار أمه وماضيها الطويل، لكنه يصفح عنها ويساعده جيشه من الرعاة على تجديد المدينة وبناء أسوارها وما انثلم من قلاعها.. وكان هو يجلس على مرتفع قريب لينفخ في مزمارها.. ذلك المزمار الذي أهداه إليه أخوه غير الشقيق، هرمز، فتخرج الأنغام الساحرة من المزمار لتحرك الصخور ولتنطلق من مستقرها خفيفة لطيفة لتأخذ مكانها من هذه الأسوار وتلك القلاع.

فهذا هو أمفيون.. الذي جاء يخطب نيوب، ليجعلها ملكة طيبة الجديدة.. وليضم ملكها إلى ملكه.. ليصبح ملكاً طويلاً عريضاً شاسعاً واسعاً لا تغيب عنه الشمس.

وكأنما شاءت المقادير أن تمتحن نيوب، وأن تبتليها بتجربة أخرى.. فها هي ذي تجلسها على عرش جديد راسخ.. وها هي ذي ترسل إليها ملكاً، ونصف إله ليتزوجها ويحبها.. ولينجب منها أولاداً سبعة وبنات سبعاً.. كانوا جميعاً شموساً واقماراً وكواكب إذا مشوا في الروض كانوا أزهاره، وبزوا أطياره وإذا تواثبوا فوق سندسه كانوا نظيمه ونثاره وأن دعوا إلى المكرمات هشوا وبشوا وتطلقت أساريرهم، وكدت تعطيهم ما رحت تسألهم وغمروك بالود، وتولوك بالمحبة.. فاذا كان يوم بؤس كانوا آلهة تمشي بين المعوزين والمعدمين يجبرون عثراتهم وينفحونهم بالأبيض والأحمر وبالخير العميم.

لقد كان الأولاد رجالاً وإن غلب عليهم الشباب، وأبطالاً وإن بدت عليهم بدوات الصبا لقد كانوا كالزهر الفواح الذي ينفح بالعطر، ويعبق بالشذى.. وكالطير الصداح الذي يسبح في الجو ويلهو مع الآلهة...

أما البنات فكن يزرين بصويحبات فينوس، ويخجل حسنهن حسن العرائس.. لقد كانت كل منهن لؤلؤة نادرة المثال ممن يذوب في جمالها كل جمال، لقد كن ابتسامات رقيقة في فم الزمان ونضرة عميقة في غرة الدنيا، وسعادة ومحبة في بحر الحياة وكان الأولاد والبنات يبلغون الثانية عشرة.. ثم.. لا يكبرون ولهذا كانوا سواسية في الوسامة والقسامة ومقاييس الحسن والجسم.. وكان الذي ينظر إليهم يحسبهم توائم ولدوا جميعاً في ليلة واحدة.. ثم تضل عينه فلا يذري أيهم أجمل.. ولا من منهم.. أو منهن أوفر حسناً وأملأ بالمفاتن، والمباهج.. ولو كان هذا العدد من البنين والبنات لغير أم غير نيوب لملأت الدنيا زهواً وإعجاباً ولما طاولها في الفخر بأبنائها مطاول.

ثم آن أوان التجربة القاسية وامتحان نيوب المؤلم..

ولقد كان ذلك في يوم عيد لاتونا ذلك العيد الذي كانت المدينة كلها تزدان له وتأخذ زخرفها فيه.. العيد الذي كان سعادة في الأرض، وحبوراً في السموات..

كان ذلك قبيل مشرق الشمس.. حينما أخذت حشود الطيبين تهرع إلى معبد الربة وقد عقدوا على رؤوسهم أكاليل الغار، وحملوا في أيديهم باقات الورد، وطاقات الرياحين.. وحمل بعضهم مباخر الند، وهدايا الصندل، في حين كان الكثيرون يسوقون القرابين، ويعنون بالأضاحي يلتمسون بها رضا الربة المنعمة.. أم أبوللو فخر الأولمب.. وديانا رمز الطهر، وعنوان العفاف وربته.

وكانت الجماعات السعيدة تنتظم صفوفاً في صحن الهيكل وفي ميدانه بينما ظهرت بينهم فجأة ملكتهم نيوب في كامل زخرفها، وباهر زينتها، وكل ما تستطيع أنثى أن تحمله من ثمين الدر وضنين الجوهر، وأفواف الخز، ومطارف الديباج.. وقد أخذ التاج الثمين الكبير الأنيق يعكس في عيون الجماهير أول أشعة الشمس، فيلقي في القلوب رهبة وإن ملأها إعجاباً.

وفرح الناس بملكتهم التي كانت تضن عليهم بالمشاركة في عيدهم هذا السعيد.. فراحوا يحيونها ويهتفون باسمها.. ولم يكونوا يعلمون أنها لم تحضر لمثل هذا، ولم يكونوا يعلمون ما كانت تنطوي عليه أضالعها من الحقد عليهم وعلى

ربتهم، والكره لهم ولها.. وضيقها باحتفالهم هذا كل عام مع بواكير الربيع بالربة التي لم يروها، ولم تقع عليها أنظارهم بل صورتها لهم أحلامهم، وزخرفتها أخيلتهم.. وجعلت لها ابناً سمته أبوللو.. وأجلسته على عرش الشمس ونصبته رباً للموسيقى، وإلهاً للطب والشعر وسائر الفنون.. ثم ابنة سمتها ديانا ورسمتها ربة للقمر، وحارسة للصيد ورمزاً للطهر.

فما هذا كله؟ وكيف يضل رعاياها هذا الضلال وإلام يعبدون هذه المجاهيل، ويتخذون منها أرباباً وهي بينهم أجمل من لاتونا، وأبناؤها السبعة وبناتها السبع حقائق ملموسة تملأ الدنيا بهاء وضياء وسنا.. وكل من الأولاد نجم بأكمله.. أكبر من الشمس.. وأضخم من الكون.. وكل ابنة جنة بأكملها، ودنيا بتمامها.. مملوءة بالحسن مفعمة بآيات النضارة والجمال؟

فماذا يكون أبوللو؟ أليس إلهاً واحداً وهؤلاء هم أولادها سبعة آلهة؟ ثم ماذا تكون ديانا؟ أليست هي ربة واحدة.. وهؤلاء هن بناتها سبع ربات جميلات نضرات كالزنبق الغض الواحدة منهن ترجح جميع ربات الأولمب، إن كان ثمة أولمب، وإن كانت ثمة ربات فيه.

وقفت نيوب تحدث الجماهير هذا الحديث الطويل كله وراحت تكلمهم عن نفسها وعن أبيها تانتالوس.. تانتالوس العظيم الذي كفر بالأولمب وأرباب الأولمب ولم يشأ أن يعترف بسلطان إلا سلطانه.. ورأي إلا رأيه.. ثم ذكرت زوجها العظيم أمفيون العادل الموهوب.. صاحب القيثارة وساحر الاوتار.. الملك الذي نشر الأمن والسلام في ربوع طيبة.. فلم تجزه طيبة بمثقال ذرة من الحب الذي تبعثره جزافاً تحت قدمي لاتونا.. لاتونا الخرافية التي لم يرها الشعب، ولم يدرِ ما هي.. إلا ما تصوره له أوهامه من أحلام وأوهام وأساطير.ثم ينزلق لسان نيوب.. فتفخر على لاتونا بجمالها ومفاتنها، وتكاثرها بالأبناء السبعة على الولد الواحد، أبوللو وبالبنات السبع على الابنة الواحدة ديانا.. بالاولاد السبعة الظرفاء الكرماء المحبوبين، على الولد الواحد العربيد المسف، الذي لا عمل له إلا ساعة عبث يقضيها في غزل بارد، في ظل غزال شارد، أو غادة هيفاء أو جميلة لفاء.. وبالبنات السبع ذوات الخدود والقدود، والمستقبل الموعود.. أولئك اللائي ستتزوج كل منهن ملكاً تملأ جيوشه جوانب البر، وتسري أساطيله على صفحة البحر فتكاد تحجبها، وتفزع حيتان الماء في أعماقها...

ثم انزلق لسان نيوب أكثر فأكثر.. حتى قالت البلهاء الحمقاء:

«أبوللو.. وديانا.. يا عجباً؟ ترى ماذا يكون حال لاتونا إذا فقدت الأول... أو غالت المنايا الثانية؟.. ونسيت البلهاء الحمقاء أن السماء أقرب إلى الانسان من نفسه، ونسيت البلهاء الحمقاء أن السماء تسمع صوت المرء قبل أن يصل إلى أذنيه. وتعلم ماتوسوس به نفسه قبل أن توسوس به بالفعل.

وذهل الشعب.. وتولاه وجوم شديد.. وخاف أن تنخسف به الأرض فتبتلعه... لكنها لم تكُ إلا لحظات حتى بدا طيف لاتونا الكريمة بين رقائق سحب الربيع.. لاتونا الجميلة الحسناء الضاحكة.. أم أبوللو فخر شباب الأولمب.. والدة ديانا ربة الطهر، ورمز العفاف.. لاتونا التي تملأ أرجاء الأولمب بعطر أنفاسها فتتفتح أكمام الزهر في جميع أرجاء الدنيا وتفتر الشفاه السعيدة بابتسامات الحب، وتشرق الحياة الطيبة بأنوار المودة، وتهتز نفوس السعداء بمشاعر الرجاء.

بدا طيف لاتونا بين رقائق السحب البيضاء وهي تبتسم فاستبشر الناس وتفرجت الأسارير بالبهجة المفاجئة، ثم انطلقت الألسن تسبح بحمد ربة العيد، وتغني لها وتنشد الأناشيد، والربة الكريمة ترد على ذلك كله بابتسامات الشكر وتنثر على الشعب المصلي رذاذ البركات فيشعر كل فرد من أفراده بيد السماء تلمس جانب قلبه، وتمس آفاق نفسه وتشيع فيه من الرضاء والسعادة صنوفاً وألواناً ثم ينظر كل فرد من أفراده إلى ضفيرة الصفصاف التي حملها بيمينه أو عود الزيتون الذي أمسك به بشماله فيجده قد تفتح بأنواع الزهر وفاح بأنفاس العطر، وجمع في الزهرة الواحدة بين كل الألوان..

ولا ينكر الناس ما يرون... بل يعرفون أنها المعجزة.. إن الدنيا كلها تحيي لاتونا..

وانحنت لاتونا انحناءة لطيفة تحيي بها الجماهير، ثم رفت بين السحب البيضاء الرقيقة.. وانطلقت من فورها إلى قصرها الأبيض المنيف فوق قمة جبل كنثوس الضارب بروقيه في السماء فوق جزيرة ديلوس... هذا القصر الذي شهد مولد إله الشمس وربة القمر وسعد بأول أنفاسهما تعبق كأنفاس الورد في جنبات الجزيرة...

ثم دعت إليها ولديها.. وكان أبوللو يجوب أطراف المشرق فوق عربته.. الشمس.. وكانت ديانا توشك أن تهبط من عربة القمر الفضية إلا لحظة حتى كان الإلهان العظيمان عند أمهما.. وحتى كانت تقول لهما عند أولى عتبات الأولمب.. فلم تكُ وامارات الغضب تطبع جبينها اللماح بما يشبه أن يكون نذيراً بانتهاء العالم:

ـ هل بلغكما؟
ـ ماذا . . .
ـ ما كان من أمر هذه الملعونة؟
ـ مَنْ . .
ـ نيوب
ـ زوج امفيون!
ـ أجل وابنة تانتالوس!
ـ اللعين تانتالوس
ـ اللعين تانتالوس
ـ أجل . . اللعين ابن اللعين . . الذي يقر الآن في الدرك الأسفل من الجحيم يشقى ويتلظى!
ـ وماذا صنعت نيوب يا أماه
ـ كفرت كما كفر أبوها من قبل . .
ـ كفرت!

ـ كفرت . . وكفرت بي . . وبكما وراحت تجدف تجديفاً طويلاً في جنبي وجنبكما . . . بل راحت تكاثرني بأبنائها وبناتها . . وتفضل ما نسلت على ما أنجبت لاتونا . . يا لها من شقية لم يردعها ما حل بأبيها . .
ـ ومن أين لها علم ما حلّ بأبيها لقد كان ينبغي أن ترى بعينيها مصيرتانتالوس اللعين لتزدجر . . ولا تجدف . .
ـ والآن . . ماذا عساكما صانعين.
ـ أماه . . كفى كلاماً . . فكل كلمة تؤخر ساعة القصاص من تلك الشقية . .

وتقدم أبوللو فقبل أمه قبلة طويلة مؤدبة . . وتقدمت ديانا فعانقت خير الأمهات وقبلتها كذلك . . ثم انحنى رب الشمس قليلاً واستأذن في الانصراف فأذنت له لاتونا . . وأذنت لاخته ربة القمر . . .

وانصرف الألهان العظيمان وفي فؤاد كل منهما ثورة جامحة . . بل جحيم من الخصومة المتلظية، التي تكفي جمرة منها لإشعال النار في الأرض كلها . . لقد نقما على نيوب نقمة لم تنقمها نفس على نفس أبداً . . .

كيف تجرؤ هذه اللعينة! كيف تجرؤ!

واتفقا على أن يلتقيا في سماء القصر الملكي بطيبة في ساعة الأصيل، بعد أن

يحضرا جعبتيهما من السهام المهلكة المميتة.. وبعد أن يشدا قوسيهما شداً عنيفاً قوياً فلا يطيش عنها سهم، ولا تفلت منها رمية.

وكانت الملكة الحمقاء البلهاء قد لاحظت ما كان من بهجة الشعب حينما رأى طيف لاتونا.. لكنها ظنت أن البهجة كانت لها.. وأن سرور الناس كان لما تركته كلماتها من استجابة في نفوسهم.. فعادت أدراجها إلى القصر الملكي.. وقد حسبت أنها صنعت شيئاً...

ثم دعت إليها أبناءها فأمرتهم أن يلبسوا أبهى حللهم وأن يدرعوا كامل عدتهم الحربية، ثم يمتطوا جيادهم المطهمة بالذهب والفضة، وأن ينطلقوا في ميدان القصر ليسابقوا أقرانهم من أبناء الجلة وأعيان المدينة ليجتمع حولهم الناس.. ويكون هذا منظر ينسي الشعب منظر عيده في صباح ذلك اليوم.. وقد أمرت بناتها أن يلبسن أبهى ثيابهن كذلك وأن يدعين أترابهن إلى سباق يجرينه في جانب من الميدان الكبير فوق الكلأ الأخضر الجميل.

واجتمع الشعب حول أمرائه وأميراته.. وكان منظر المتبارزين والمتسابقات منظراً رائعاً يبهر اللب. وكانت الفتيات كأنهن الحمائم البيض تنطلق من أبراجها فيملأ اصطفاق أجنحتها هواء الميدان بموسيقى من موسيقى الخلد.. كان الناس يشهدون ذلك ويعجبون.. فلقد كان ذهب الأصيل ينسكب في الآفاق فيجعل للسحب الرقيقة البيضاء حواشي من النضارة، تنعكس عليها أشعة الشمس، فيخطف بريقه الأبصار... كان يزيد في حيرة الناس أنهم كانوا يرون صورهم.. صور المتسابقين والمتسابقات، تنعكس في تلك السحب الرقيقة فتكتسب جمالاً ورواء لم يكونا لها من قبل..

إذن.. لقد كان ثمة أمر.. ولكن أي أمر؟

وأقبل أبوللو.. وأقبلت معه ديانا.. طبقان نورانيان يتواريان خلف السحب مرة، ثم يطلان من الفرج التي بينها مرة أخرى...

وفجأة.. يسمع الناس أميرهم الأول اسمينوس يتأوه آهات شديدة مؤلمة، ثم يسقط من ظهر جواده، فيظل يتلوى على الكلأ الأخضر لحظة وقد سقط سيفه الطويل الرفيع من يده... وأخذ الدم الحار الغزير يتدفق من جرح عميق في صدره.

ويقبل الناس مذهولين ويتكبكبون حول ولي عهدهم الشاب، ابن أمفيون

وابن نيوب، لكنهم يذهلون مرة أخرى.. حينما يسمعون آهة قريبة أخرى.. صادرة من ورائهم.. فإذا تلفتوا.. رأوا أميرهم الثاني.. أخا اسمينوس.. يسقط من فوق جواده ويسقط سيفه من يده وإذا هو يتلوى على الكلأ الأخضر من شدة الألم.. وإذا الدم ينبثق من جرح عميق في صدره.. من نفس المكان الذي يتدفق منه دم أخيه.. الذي لفظ الآن آخر أنفاسه.. وودع الحياة الكاذبة الخداعة وهو أنضر ما يكون شباباً وأينع ما ترى الأعين زهرة عمر!

ثم يذهل الناس مرة ثالثة ورابعة وخامسة...

إن سهام المنايا تمطر الميدان.. لكنها تترصد الأمراء والأميرات

إنها تنتقم من بين أفراد الشعب كأنها تعقل.. أو كأنها مأمورة.. ثم انها لا تفلتهم أنّ جروا وأيان ذهبوا.. ولم يغنهم هذا الملجأ الذي لجأوا إليه في أحضان الجبل القريب شيئاً.. لقد أصبح كل شيء مصبوغاً بالدماء وصار كل ما في الكون أحمر قانياً، حتى الهواء.. حتى السحاب.. حتى أديم السماء.. كل ما في الوجود وقف واكتسى شفوفاً رهيبة ارجوانية داكنة.. قاتمة حزينة.. إلا هذه السحابة التي وقف فوق طرفها من هنا أبوللو.. وفوق طرفها من هناك.. ديانا.. لقد كان فيها وهج خفيف وبرق خطيف لطيف من سهام الإلهين وقوسيهما...

وكانت السهام التي لم تروَ من دماء أبناء نيوب وبناتها فرادى، فراح منها سهم ملعون إلى ولدين من أولادها كانا يتصارعان بمنأى عن ذلك المشهد كله في جانب قريب من جوانب الجبل.. فأقصدهما ونفذ من صدر أحدهما في صدر أخيه فصرعهما..

وسمعهما أخوهما الفينود، وكان يجري يلتمس له ملجأ في الجبل،فيمّم شطرهما ليرى ماذا يستطيع أن يفعل.. لكنه قبل أن يوجه إليهما كلمة واحدة صرخ صرخة قاتلة، ثم سقط يتشحط في دمه بالقرب منهما ثم أسلم في سرعة البرق آخر أنفاسه وإنْ ظلت عيناه مفتوحتين وقد انطبع فيهما مشهد الجريمة كلها..

وفزع الناس، وتفرق الجمع، وانطلق الخدم والاتباع يبلغون الملك والملكة ما حاق بأبنائهما.. وهرول الملك الموسيقار إلى الساحة.. وإلى سفح الجبل.. ونظر بعينيه ما حلّ بأفلاذ كبده من هذا الموت الذي لا يعرف له سبباً.. وكان الملك كلما وجد ابناً من أبنائه يضع وجهه كله في موضع جرحه فيتلطخ بالدم الزكي المسفوح.. ولم يملك نفسه آخر الأمر من عظم ما اجتاحه من وجد وتفجر في سويدائه من أسى.. فقتل نفسه لتصحب روحه أرواح أولاده في موكبها إلى العالم الثاني...

وحينما أسلم أمفيون آخر أنفاسه اهتزت الدنيا بأسرها وطفقت النسمات والحدائق وأشجار الغار وأزهار الزنبق وأسراب البلابل وكل ما بين السموات والأرض من خليقة تزفر بموسيقى الأحزان وتبكي بنغمات الوجيعة، تودع موسيقاها الوالد المفجوع المنتحر. . .

أما نيوب. . فلم تكد هذه الأنباء تصك أذنيها حتى بادرت إلى باحة القصر. . ثم إلى ساحة الميدان. . ولم تكن تصدق عينيها قط وهي ترى إلى الجثث العزيزة ملقاة هنا وملقاة هناك. . وظلال الجبل تلقي على موتاها وشاحاً من الظلمة الملطخة بالدم فتعل الدنيا كلها كأنما لبست ثياب الحداد. .

كيف يكون هذا؟ أأنا في حلم؟ إنه لأجرم كابوس مزعج. . يا لهول هذه الرؤيا. . ؟

وجعلت نيوب تنحني هنا. ثم تنحني هناك. . تقبل أبناءها وتضم إلى صدرها جثث بناتها. . وهي مع توهم الحلم تبكي وتسفح الدمع، ثم ذكرت لاتونا. .

فرفعت عينيها إلى السماء. . وهناك. . هناك فوق إحدى السحابات الدامية رأت لاتونا. . لاتونا التي كانت تنظر. . وتبتسم. .

ثم حولت عينيها إلى سحابة أخرى. . فرأت فوق طرفيها أبوللو. وديانا. . وهما يشدان قوسيهما. . ويريشان منهما سهمين تقطر المنايا من أطرافهما. .

وجعلت نيوب تفرك عينيها. . كالذي يظن أنه لا يزال يحلم. .

إنها لا تصدق أن الآلهة تسف هذا الاسفاف فتغتال الاطهار الابرياء حتى لو كانوا أطفالاً. .

ثم أية معركة هذه؟ وبين من؟ وكيف استحق أبوللو أن يكون الهاً للموسيقى، وهو يقتل كالجزارين؟ إن الموسيقى منه براء. . إن الموسيقى لا تعرف تلك القسوة ولا تمت بسبب إلى هذه الوحشية. . .

ودينا أهي حقاً ربة للطهر، ورمز للعفاف؟ فأي طهر هذا الذي ترمي به عن قوسها، لينزل موتاً بارداً صاعقاً في أحشاء هؤلاء الصغار؟

وأي عفاف ذاك الذي لم يشلّ ذراعها فلا تريشهن سهامها إلى تلك المهج؟ الا ليت القمر الذي يزعمون أنه يحملها في أقطار السموات ينهار بها في وهدة الجحيم؟

وهكذا طفقت نيوب تخاطب نفسها.. ولم يكن قد بقي من أولادها إلا أصغرهم.. هذا الطفل الحبيب الوديع فقد كان يجرى مفزعاً من تلك المجزرة التي تلقفت اخوته واحداً بعد واحد، وأربعاً من اخواته.. واحدة في اثر أخرى.. فلما رأى أمه أقبل نحوها وهو يمد ذراعيه مستغيثاً ملهوفاً صارخاً دامع العينين مروع الفؤاد.. كالذي ينشد النجاة من الموت.. ولكن.. يالله.. إنه لم يكد يستقر في حضن أمه.. حتى استقر سهم أبوللو في صدره فأرداه بين يدي أتعس الوالدات، وأشقى من حملت بحمل في الدنيا جميعاً.

ولدي فما هـذا ايتها السـماء؟ ليس ما كنت أرى حلماً إذن، حتى هـذا الطفل.. حتى اليونيوس الحبيب؟ ليت شعري ماذا جنى؟

كلمات كعواصف الشتاء كانت تهدر بها نيوب.. وهي تنحني على أصغر أبنائها تحاول أن تحبس الدم المنبثق من الجرح القاني.. الذي كان يلعن السموات بشفتيه المعورتين المرتجفتين.. حتى اسكتتهما يد الموت في حضن الأم المسكينة..

وعادت نيوب فنظرت إلى السحابة الدامية، فرأت فوقها طيف لاتونا.. ينظر إليها هو الآخر.. ثم يبتسم.. يبتسم تلك الابتسامة الصفراء الساخرة.. التي كانت تقطر سماً في قلب ملكة طيبة.. وتتأجج بالجمر بين جوانحها...

وعادت نيوب إلى ما كانت تحسب أنها مستغرقة فيه من حلم.. لكنها رأت طيف لاتونا يشير إليها أن: «لا لست تحلمين.. إن ما ترين حق.. ولن تفخري بعد اليوم بكثرة أبنائك وبناتك.. يا أتعس الأمهات»

ولقد كانت إشارات الطيف تهتز في الهواء فترتد كلمات قاصفة في أذني نيوب.. التي لم يصرفها ذاك عن الانحناء على جثمان صغيرها.. وتقبيله.. تقبيلا اختلطت فيه دموعها بدماء القتيل الشهيد.. الذي لا ذنب له في تلك المأساة كلها إلا ما للماء القراح من ذنب.. حين يشرق به الظامىء... فيموت.

وكانت الأم البائسة قد استغرقت في غشية ذهبت برشدها عن هذا العالم كله... ثم أفاقت فجأة على صيحة مجروحة شقت الهواء إلى مسمعها شقاً.. فلما تلفتت تنظر ما وراءها.. رأت إحدى بناتها تسقط فوق الكـلأ.. وإحدى يديها على صدرها.. ثم لا تلبث أن تتلوى ثم يفقد رأسها توازنه ثم يميل.. ليتخذ من الحشيش الأخضر وسادة يستريح فوقها.. ويستريح فوقها إلى الأبد.

ويذهلها هذا المنظر عن جثة اليونيوس.. فتتركه.. وتهرع إلى جثة ابنتها، لتمسح بشيء من دمها ما لم يصطبغ من وجهها بعد بتلك الدماء الطاهرة الزكية.

لكنها لا تكاد تنحني فوق الجثة.. حتى تسمع صرخة أخرى.. فتنظر.. فترى صغرى بناتها التي لم تمتد إليها يد الموت بعد تجري نحوها ملهوفة مستغيثة: أماه.. أماه.. إخوتي يا أماه اخواتي.. اخواتي.. احميني يا أماه إن السماء تمطر سهاماً لا تصيب أحداً من الناس غيرنا.. أخاف أن يصيبني سهم منها يا أماه...

وتنشر الأم الباكية ذراعيها.. وتتلقى فيهما الفتاة المذعورة..

وهنا.. هنا فحسب.. لا ترى نيوب البائسة إلا أن تؤمن.. وإلا أن تتجه إلى السماء ضارعة أن تبقي لها على هذه الطفلة.. هذه الطفلة فحسب.. ولكن..

لقد أصمت السماء أذنيها.. وغاضت الرحمة من فؤاد سيد الأولمب.. فقد نفذ السهم الأخير.. وأقبل هذه المرة من قوس ديانا.. فاستقر في صميم القلب الصغير... ونظرت الفتاة إلى أمها..

لكن نيوب المذهولة كانت ترنو إلى السماء.. والدمع البارد ينهمر من عينيها.. والرعشة المتثلجة تسري في جميع كيانها.. فماتت الصغيرة دون أن تودعها أمها بكلمة.

ثم استمرت الرعشة تسري في كيان الأم.. وأحست الملكة أن سائلاً ثقيلاً بارداً كالثلج يتدفق في قدميها.. ثم ينتشر في جسمها.. ويعلو إلى الفخذين.. ثم يرتفع إلى البطن ثم تنظر نيوب إلى سفح الجبل، فترى الأرض تنشق شقاً عميقاً معتماً، ثم لا يلبث الشق أن تنبعث منه نيران ودخان.. ثم تمضي لحظة فترى الملكة منظراً مؤلماً..

لقد بدت هيدز.. وهذا هو نهر فليجتون الرهيب بحممه يحيط بنيران الجحيم.. وهذا هو تانتالوس.. والد نيوب الشقي.. يتمنى بلة من الماء يشفي بها ظمأه... فلا يستطيع.. ثم يتشهى ثمرة واحدة من هذا الغصن المثقل يرد بها جوعته.. ولكن.. هيهات..

وعند ذلك.. تصرخ نيوب صرخة تتردد أصداؤها في جنبات الدنيا، ثم تجلجل كالهدير في أرجاء الجحيم..

لكن الصوت المدوي يسكت فجأة حينما يأتي صوت تانتالوس البائس من أعماق هيدز يصرخ قائلاً:

نيوب.. يا شقية.. إنك تتحولين مرمراً بارداً.. فلماذا كفرت بالآلهة؟.. الا وأن روحك المعذبة تقدم الآن نحوي.. لتقر معي في هذا الدرك الأسفل من النار.

إلا أن نيوب لا ترد.. إنها لا تجيب بكلمة.. لقد تحولت تمثالاً من المرمر البارد، وإن مكانها من السفح ليرتفع.. ثم يرتفع.. حتى يكون أكمة عالية.. بل جبلاً رفيع الذرى...

إن دموع الملكة لا تزال تساقط وتنهمر..

يا للسماء...

إن دموعها تتدفق.. سوف تتدفق إلى الأبد.. لتملأ النهر الصغير الذي يبكي بخريره في سفح الجبل.. فيملأ الدنيا أنيناً...

ولما تمت المأساة.. أرادت السحب الحمراء أن تنقشع.. لكنها لم تستطع... بل صارت داكنة سوداء مظلمة كالليل.. ومع ذلك فقد ضحك أبوللو.. وأرسل في الدنيا الحزينة ألحان موسيقاه.. ولكن.. أي موسيقى؟؟ لقد كانت شيئاً كريهاً كحشرجة المحتضر.. بل أبشع من عواء الذئب.

لقد أصمت البرايا كلها آذانها عن موسيقى السفاح.. ولعنت عذراء الغاب... وآوت كل الوحوش إلى غيرانها..

غرام اتلانتا

(١)

عاش أونيوس، ملك كاليدون مع زوجته آلثيا، زمناً سعيداً رغداً لا يعكر صفوه شيء، اللهم إلا ما كانا يتمنيانه من أن ترزقهما الآلهة ولياً للعهد.. فلما حملت الملكة.. وجاءها المخاض، ثم وضعت غلاماً ذكياً جميل الطلعة، وضاء الجبين، تمت سعادة الزوجين وأصبحت الدنيا حولهما أجمل مما كانت ألف مرة.. بل أصبحت جنة وردية لا ينقصها إلا نعمة الخلود..

وأرسل الملك رسوله إلى معبد دلفي يستوحي ربه عما يكون من شأن ولده، وما يبطنه المستقبل له.. لكن الرسول عاد عابس الوجه، مقطب الجبين مضطرب اللسان، لا يجسر أن يقول كلمة مما سمع.. لولا أن الرسالة كانت شيئاً محتوماً.. ولا بد من تبليغها على وجه السرعة.. وإلا خيف أن يحمّ القضاء.. ويكون ما لا بد منه من موت ولي العهد، هذا الطفل الجميل.. ملياجر...

لقد قال أبوللو.. رب دلفي.. لرسول الملك، إن ربات المقادير كتبن في ألواحهن أن الطفل ملياجر لن يعيش طويلاً، بل هو لن يعيش إلا ريثما تحترق هذه القطعة من الخشب التي تلقي بها الملكة في نار المدفأة حينما يصل الرسول ويبدأ في تبليغ النبوءة.. فإذا اشتعلت القطعة ثم أصبحت رماداً لفظ ولي العهد آخر أنفاسه.

ودخل الرسول غرفة المدفأة، حيث كان الملك يصطلي في يوم شديد البرد.. وكانت الملكة توشك أن تلقي في النار بقطعة من الخشب، حينما أخذ الرسول يبلغ رسالة دلفي.. فلما صكت النبوءة أذني الملكة، وكانت قد ألقت بالقطعة في وهج المدفأة بالفعل، اضطربت وتولتها نوبة من الهلع كادت أن تقضي عليها.. وكان ابنها الحبيب غارقاً في أسعد الاحلام في مهده بالقرب منها.. فلما نظرت أمه إليه، وقد أخذ يحرك يديه الصغيرتين.. موشكاً أن يستيقظ.. عاد الصواب إلى رأس

الملكة وبدا لها أن تنقذ قطعة الخشب من النار قبل أن تحترق، فلم تبال أن تمد يدها الجميلة الناعمة البضة، في صميم النار المتأججة، واللهب المضطرم، وأن تقبض بأصابعها الطرية على الخشبة التي أخذ طرفها يشتعل، ثم تخرجها في سرعة البرق فتجعلها في جرة الماء الكبيرة القريبة من النار، فتنطفىء، وتبتسم الملكة وتتنهد تنهدة طويلة مذعورة، ثم تقول: إذن لن يموت ملياجر.. لن يموت ولي عهدنا أبداً.. ما دامت هذه الخشبة في حوزتي فبشراك أيها الملك! لقد كنا نتمنى الخلود، فهاك قد خلد ملياجر.. ولسوفَ يعيش طالما كانت هذه الخشبة بمنجاة من النار!

وتبسم الملك هو الآخر، وشكر للملكة سرعة خاطرها. وأثنى على ذكائها العجيب، ونهض فتلقاها في ذراعيه، وطبع على جبينها قبلة باكية مرتجفة، مما أصابه من وقع النبوءة التي أوشكت أن تحطم قلبه.

واحتفظت الملكة بقطعة الخشب، فجعلتها في أعمق خزائن القصر، فلا يعرف مكانها أحد غيرها، وجعلتها بمنجاة من أن تصل إليها نار.. وتمضي الأيام.. وتبتسم ربات القضاء..

ويشب ملياجر ويترعرع.. ويعهد به أبوه إلى شيرون، السنتور العالم البارع، مدرب أخيل ومثقفه في فنون الحرب، فيؤدبه ويهذبه، ويتم له من الجمال والشجاعة، وجراءة القلب، ما لم يتم لأحد من أبطال اليونان وصناديدها.. ثم يشترك في رحلة ليحضر الفروة الذهبية.. فيبلي فيها بلاء حسناً، إلا أنه يعود إلى كاليدون حيث يبلغه أن خنزيراً برياً فظيعاً قد سلط على وطنه، لا يبقي فيه على شيء.. فهو يهلك الحرث والنسل، ويأتي على الأخضر واليابس، ويقتل الانسان والحيوان ولا يسلم من شره شيء.. وقد زعم المتنبئون أن ديانا ربة الصيد، وحسناء القمر، هي التي أرسلت هذا الخنزير الفظيع الهولة، لينتقم لها من أونيوس ملك كاليدون ووالد ملياجر، لأنه تغاضى عما كان يعقره كل عام من القرابين باسم ديانا فلم ترَ الربة العذراء إلا أن تؤدب الملك بتسليط هذا الخنزير على ملكه فكاد يدمره تدميراً، وذاق الناس من شره الأمرين... لهذا اضطر ملياجر أن يتخلف عن زملائه في رحلة الأرجو، وأن يعود إلى بلاده على عجل وكان كلما مر بمدينة، أو عرج على دسكرة دعا أشجع شجعانها ليصحبوه إلى كاليدون، كي يعاونوه على قتل هذا الخنزير، وانقاذ وطنه من أذاه.. وفي ناحية نائية من غابة موحشة كان لا بد أن يخترقها ملياجر ليختصر الطريق إلى كاليدون، لقي فتاة بارعة الحسن رائعة الجمال، غريبة الأطوار تلبس ملابس الفرسان، وتتسلح بشكتهم، مع

حسنها الصارخ الذي لا تباريها في مفاتنه غير فينوس.. وعجب ملياجر أول الأمر من هذه الفتاة، وتضاعف عجبه حينما رآها تطارد دباً كبيراً، تفزع منه شياطين البر والبحر، فإذا أحس الدب بأنه مغلوب على أمره، كما وهم ملياجر وأخذ يعدو بين الأشجار عدواً شديداً أخذت الفتاة تعدو خلفه بساقين جميلتين ساجيتين، كأنما نحتتا من عاج بض طري، وبقدمين صغيرتين ورديتين، لا تكـادان تلمسان الأرض. ثم تدرج الفتاة الدب.. لكنها بدلاً من أن تسدد إليه سهماً فتصيبه تثب إلى عنقه فتطوقه بذراعيها الغضتين اللدنتين، ثم تثب وثبة أخرى فتكون على ظهره، وعند ذلك يلتفت إليها الدب ثم يقهقه قهقهة عالية، فتميل إليه الفتاة وتقبله قبلة بريئة عجيبة، كأنما تقبل كلبها المدلل... أو حبيبها.

ولا يملك ملياجر إلا أن يعدو نحو الفتاة بدوره، حتى إذار صار منها قاب قوسين، انحنى محيياً فتترك الفتاة دبها.. وترد التحية بأحسن منها.. وتسأل الشاب الغريب، عابر هذا السبيل الذي لم تطأه قدم من قبل غير قدمها.. من أين؟ وإلى أين؟ فيرتبك ملياجر. ولا يخفى على الفتاة سبب ارتباكه، فتبتسم.. وتعرف الفتاة أن حبها قد تنفس في قلب الفتى.. فتبتسم ابتسامة أكبر وتغضي الفتاة لحظة.. ثم تسأله مرة أخرى: «من؟ ومن أين؟ وإلى أين؟.. وكيف حدث أن مرّ الفارس بهذا الركن المنعزل الموحش من أركان العالم؟»

ويبتسم ملياجر بدوره.. ويشير إلى الدب كأنما يسألها ما خطبه؟ وتلتفت الفتاة إلى دبها الحبيب وتقول «هذه أمي..» ويقول ملياجر: «أمك؟!!» فتقول الفتاة: «أجل.. أمي الحبيبة العزيزة».

ـ وكيف بحق السماء؟

ـ لست أدري.. وكل الذي أعرفه أنني نشأت هنا.. في هذه الغابة، وإن هذه الأم الرحيمة هي التي غذتني بلبنها حتى شببت.. وكان بعض الصيادين والقناصة.. ينتجعون الغابة.. وكانوا يعرفون ما بيني وبين هذه الدبة.. فلم يفكروا في أن يمسوني أو يمسوها بأذى.. ومنهم تعلمت اليونانية.. وتعلمت الرماية أيضاً... ليس في الدنيا كلها من يرمي بسهم أحسن مما أرمي..»

ـ قد يكون هذا...

ـ قد يكون؟ ليس الذي أقوله لك زهواً.. أنظر.

ثم تناولت قوسها فجعلت فيه سهمًا. . ثم قطفت من الشجرة القريبة تفاحة غير كبيرة، فقذفت بها في الهواء. . وفي أسرع من اللمح سددت سهمًا إلى الثمرة فجعلتها نصفين!!

وفغر ملياجر فمه من الدهشة. . وآمن أنه يتحدث إلى أعظم رامية بسهم بالفعل. .

ــ وما اسمك؟

ــ اتلانتا. . وأنت؟

ــ ملياجر. . ابن ملك كاليدون

ــ هذا هو الزهو. . ما سألتك عن هذا.

ــ معذرة!

ــ وإلى أين؟

ــ إلى وطني. . .

ــ ومن أين؟

ــ من رحلة الآرجو. . .

ــ الآرجو؟ من رفاق جاسون إذن؟

ــ أجل. . وكيف عرفت

ــ نقل إلينا الصيادون والقناصة أنباء تلك الرحلة. . ولماذا تركت أصحابك إذن؟

وقص عليها ملياجر نبأ ذلك الخنزير البحري الذي زعموا أن ديانا سلطته على مملكة اونيوس، ثم قال لها إنه يسره، بل يسعده أن تصحبه إلى كاليدون، لتشترك معه ومع أشجع شجعان اليونان في إنقاذ بلاده وعشيرته.

ــ ولِمَ لا؟. . لشد ما أشتاق إلى ارتياد الدنيا، والتفرج بمحاسنها، والوقوف على أخبارها مع بطل مثلك. .

ثم أشارت آتلانتا إلى أمها الدابة فأسرعت إليها، وهي في الحين بعد الحين تنظر إلى ملياجر نظرات مريبة، كأنما توجس منه خيفة، أو تتوقع من مجيئه شراً. . وعرفت آتلانتا سر هذه النظرات فربتت على رأس الدابة، وراحت توسوس في أذنها بكلام لعلها كانت تترجم به عما شعرت به من الميل. . أو الحب. . نحو هذا

الفتى.. أو لعلها كانت تقول لها ما اعتزمت أن تقوم به من الرحلة إلى كاليدون، لتشترك في انقاذ أهلها من أذى هذا الخنزير.

ولقد انتفضت الدبة المسكينة انتفاضة هائلة، واغرورقت عيناها بدموع غلاظ، ثم جعلت تتمتم بأصوات وإشارات لم يفهم منها ملياجر شيئاً.. إلا أن آتلانتا فهمتها جميعاً.. فقد عبست هي الأخرى عبوسة شديدة وأخذت تنظر إلى ملياجر نظرات آسفة كاسفة، فلما سألها ملياجر عن سرها لم تبالِ أن تذكر له ما قالت الدبة.. «إنها تحذرني من الذهاب معك، وتقول إن ذهابي من هنا سيكون سبباً في موتك.. كما سيكون سبباً في شقائي..»

وعجب ملياجر من أن تكون للدبة كل هذه المقدرة على معرفة الغيب، والتنبؤ بما يضمره المستقبل ولم يبالِ المسكين أن يبتسم ابتسامة السخرية، وهو ينظر إلى الدبة العجيبة.. التي أرضعت آتلانتا ونشأتها.. واتخذت منها ابنة من بنات البشر تعوضها عن ذكرياتها القديمة، حينما كانت عروساً حسناء من عرائس الماء، لقيها زيوس سيد الأولمب، والآله الأكبر الذي لا يشبع من الحب، ولا يقنع بألف زوجة، فأحبها، بل شغفه حبها، واتخذ منها زوجة أثيرة، يقضي معها أكثر وقته، حتى عرفت حيرا ـ زوجته الأولى ـ سره، فاحتالت لعروس الماء حتى انفردت بها، وسحرتها فكانت هذه الدبة البائسة التي قسم لآتلانتا أن تتخذها أماً..

ولقد عرفت آتلانتا سر أمها الدبة حينما شبت.. وعرفتها بهذه الاشارات والتمتمات التي كانت الدبة تصور بها الكلمات المحبوسة في لسانها تصويراً بالغاً رائعاً.. فلما لاحظت نظرة السخرية التي جرح بها ملياجر الدبة، فلم تبالِ أن تعتب عليه، وأن تذكر له قصة المخلوقة المحزونة، التي تقف أمامه في صورة الحيوان الأعجم.. وهي من استطاعت بحسنها يوماً أن تسحر سيد الأولمب.

ودهش ملياجر.. وأسف أسفاً شديداً، وتقدم إلى الدبة في حزن بالغ فقبل رأسها، ولم يكد يفعل حتى انهمرت دموع المخلوقة البائسة، ولما سكت عن الدبة طائف الحزن، أشارت إلى آتلانتا لتقول لها: إنها لن تستطيع أن تقف في سبيل حبها، وإنها إن نصحت بشيء، فانها تنصح الحبيبين بالذهاب من فورهما إلى معبد دلفي.. مهبط وحي أبوللو إله التنبوءات، ليعرفا المزيد مما أنذرت به، عسى ألا يذهبا إلى كاليدون، فإن ذهبا إليها.. فعسى أن تعود آتلانتا إلى الغابة، حتى لا يتحقق الشر الذي تنبأت هي به.

ورضيا أن يذهبا إلى دلفي.. وإنْ أخّر ذهابهما إليها تخليص كاليدون من أذى

الخنزير يوماً أو بعض اليوم.. وفي الطريق إلى دلفي تفتحت أكمام الحب عن أسعد أزاهيره، وانفسحت للحبيبين آفاق شاسعة من أحلام الشباب المنضور، والصبى المونق.. فهذه آتلانتا الرشيقة.. آتلانتا التي يسكر النسيم بطيب رياها، وينتشي الزهر بحلو مبسمها، ويسعد الكلأ الغض حين يقبل قدميها الناعمتين، وترقص الدنيا كلها من حولها مفتونة بمحاسنها..

حينها يمسّ قوامها الممشوق فينتشر هذا الجدول الرقراق من شعرها الناعم المسجى فوق ظهرها الأملس المستوي.. آتلانتا هذه، قد سحرت فتاها نفسه، فلم يدر إن كان يحلم، أو إن كان قد وقع في غيبوبة من أمر نفسه.. وإلا فكيف يصح أن يكون هذا الجمال كله مجسماً في فتاة واحدة، تميس هكذا على الكلأ، ويتأرج بأنفاسها الهواء، ويبتسم لها الكون، بل ترقص على ايقاع خطوها الكائنات، وتنتشر موسيقى جمالها بين الأرض والسموات، وملء البر والبحر، وفي أكناف السهل والجبل، فتصبح الدنيا كلها خلقاً آخر، وجنة موشاة بأعجب الألوان!

هذا ملياجر.. الفتى الذي عز جماله عن أن يكون شيئاً إلا رجولة كاملة، وجراءة باسلة، وإقداماً في المواقف التي يذعر فيها الموت نفسه عن الاقدام.. ملياجر ذو الجسم السوي والخلق الرضي، والنفس الحلوة التي ترق كالسلاف، ثم تعبس في مواقف أروع فتكون كالعاصف الرجاف.. انه يقع هو الآخر من نفس آتلانتا موقع القبلة المشتاقة، من ثغر الحبيب المشتاق.. بل موقع الأمل الباسم.. من قلب اليائس.. إنه يقول لها في غمرة هذه السعادة

ـ آتلانتا! لشد ما أخشى أن تفلتي مني!

ـ ولماذا أفلت منك يا حبيبي؟

ـ يخيل لي أنك حلم من الأحلام.. بل أنتِ طيف يسبح في منام!

ـ أشاعر أنت؟

ـ ليس هذا شعراً.. إني أحسه كما أحس نفسي، واتنفسه كما أتنفس الحياة.

ـ خلِ عنك وسواسك، ولا تتلف به سعادة روحينا.

ويصمت ملياجر.. ثم يغذان السير حتى يكونا عند دلفي.. وينتقيان أسمن القرابين ليرضى عنهما رب المعبد، وإله مهبط الوحي، ثم تشتعل نار المذبح، ويشتد أوارها.. ثم يدوي صوت أبوللو الكريم محيياً اتلانتا فيقول: «مرحباً اتلانتا الحسناء.. ابنة اياسيوس، ملك أركاديا»..

ولا تكاد آتلانتا تسمع هذا، حتى تشعر بدوار خفيف لا يلبث أن يشتد حتى يوشك أن يعصف بنفسها ويهزها هزاً.. إنها لم تكن تعرف من قبل أنها ابنة أحد

من الناس فكيف بها إذا عرفت أنها ابنة أحد منهم.. وابنة ملك وابنة اياسيوس ملك اركاديا بالذات!.. ويعود صوت أبوللو الكريم فيدوي قائلاً: «.. بل قفي وتماسكي يا آتلانتا.. قفي.. فأبوللو هو الذي يكلمك... أعرف أنك كنت تجهلين أنك ابنة هذا الملك العظيم، الذي ضاق بك ذرعاً عندما ولدت، لأنه كان ينتظر مولوداً ليكون ولياً للعهد، فلما ولدت له أنثى، اسود وجهه، وضاق صدره، وأقسم ليلقين بك على جبل البارثنيوم، لتفترسك الوحوش، وتقتات بك سباع البرية هكذا فكر أبوك، ولكن الدبة التي عثرت بك أنقذتك من هذا الهلاك، وسهرت عليك، وعنيت بك، ولم تزل ترضعك وتغذوك حتى شببت، فإلى أين أنت ذاهبة؟ ولماذا تتركينها كسيرة القلب، مهيضة الجناح، كاسفة البال.. ولو عرفت ماضيها لعطفت عليها، ورثيت لحالها.. آتلانتا.. إن في ذهابك إلى كاليدون حتف هذا الشاب الواقف إلى جانبك.. ولن تكون المأساة مأساته وحده.. بل مأساة أناس كثيرين، وأولهم أمه!!...

وتكون آتلانتا قد ثابت إلى رشدها بأمر الإله الكريم، وتكون قد وعت كل ما قاله رب دلفي... إلا أنها تنظر في وجه ملياجر نظرات، فتنسى كل ما قاله أبوللو.. وكل ما قالت مثله أمها الدبة من قبل، وهي تنسى ما قالاه لما خامر قلبها، وجرى في دمائها، من حب هذا الفتى.. ثم هي تنسى ما قالاه لأنها لم تستطع أن تعلل كيف يمنعانها عن الذهاب إلى كاليدون لتنقذ أهلها من هذا الخنزير البري الملعون الذي يلقى منه قوم حبيبها الأمرين..«...إن الآلهة والمتنبئين يسخفون إلى حد لا يطاق معه السكوت على سخفهم والصبر على لعبهم وعبثهم، حتى لكأنهم يحضون الانسان على فعل ما ينهون عن فعله.. وإلا.. فكيف أصبر على ألاّ أذهب إلى كاليدون لاقتل هذا الوحش الذي سلطته ربة سخيفة على أناس أبرياء..؟ ثم كيف أتقاعس عن فعل هذا الخير فأفقد هذا الحبيب الذي انبثق من نوره فجر الحب في قلبي؟.. وجرى من شبابه ماء الانسانية في دمي! وإن صحّ ألاّ أذهب إلى كاليدون لاستجيب إلى دعاء حبيبي، فكيف لا أذهب إلى أركاديا لأرى أبي، ولأحاسب أمي على ما أرادا أن يصنعا بي، يوم نسيا أنهما بشر؟ إني لا أجحد فضل الدبة عليّ.. ولا أنكر أنها كانت أرأف بي.. أنا الطفلة المنبوذة بالعراء فوق الجبل من أبوي اللذين تجردا من كل رأفة وكل حنان.. إنني عائدة إليها، لا بد، لأرى إن كنت أستطيع أن أردها إلى صورتها الجميلة الأولى، التي حرمتها ربة سخيفة منها، بدافع الحقد والبله والغيرة»

ولا تكاد آتلانتا تفرغ من الجمجمة بهذا الحديث حتى تنطفىء، نار المعبد،

وحتى تنقذف القرابين من رمادها فتكون عند قدمي الفتاة، وحتى يدوي صوت أبوللو مرعداً مبرقاً وهو يقول: «يا شقية!! إن الآلهة لتعلم ما توسوس به نفسك.. فاذهبي إلى كاليدون، واذهبي إلى أركاديا، وتزوجي ثمة.. فسيكون حتفك في زواجك.. ولتتم مشيئة ربات القضاء فيك، وفي كل من يحبوك يا.. نمرة!!»

ويصمت رب دلفي.. ويخرج ملياجر وآتلانتا من المعبد، وكأنهما لم يزدادا إلا سخرية، ولم يزدادا إلا هزؤاً.. سخرية بأبوللو ونبؤاته، وهزؤاً بالمعابد والمتنبئين وأهل الأولمب جميعاً.

* * *

ويصلان إلى كاليدون، فيجدان أهلها جميعاً في انتظار أوبة ملياجر، ليبدأ الصراع بين هذا الخنزير الكاسر وبين أبطال اليونان الذين هرعوا من كل صوب، ونسلوا من كل حدب، وفي مقدمتهم الأبطال الصناديد المشهورين: نسطور وبليوس وأدمبتوس ونيذيوس.. ثم البطلان المغواران: كاستور وبولكس.

ثم تبدأ الحملة على الفور، ويدوخ الخنزير هؤلاء الأبطال جميعاً، ويقتل منهم مقتلة عظيمة، ولا يصاب هو بخدش واحد، حتى تبرز إليه آتلانتا الجميلة.. آتلانتا التي هالها ما رأت من صراع الموت بين هذا المخلوق الشائه، وبين أولئك السادة من أبطال اليونان.. ولا تكاد آتلانتا تأخذ نصيبها من هذا الصراع، حتى تجذب إليها أنظار اليونانيين جميعاً.. رجالاً ونساء وأطفالاً وجنوداً.. إنهم لم يتعودوا أن يروا امرأة تخوض حومة القتال من قبل، وتخوضها بمثل هذه الجسارة، وبمثل تلك الألمعية.. ولا سيما امرأة لها كل هذا الجمال، وكل تلك المفاتن..

لقد كانت آتلانتا تحرش الخنزير لتغريه بنفسها، كي يقترب منها، عسى أن يكون غرضاً لرمحها الفتاك أو هدفاً لسهم من سهامها المسنونة، وكان الخنزير الملعون كان يدرك أن منيته في يد هذه الفتاة، فلم يكن يجسر على الدنو منها، ولا الاقتراب من مرامي سهامها، بل كان يبتعد جهده كلما اقتربت هي منه.. حتى إذا لم تجد آتلانتا بداً من الانطلاق في أثره ـ وفي ذلك من الخطر ما فيه ـ لأن الخنزير الملعون كان يختار في هذه الحالة مواقفه التي تحمي ظهره وجناحيه، فلا يكون مكشوفاً إلا من جهة واحدة، وبهذا يستطيع الافلات من مطاعن الرماح ومواقع السهام، بما هيأت له ديانا ربة الصيد من القدرة على ذلك.

وقد ذعر الناس على آتلانتا حينما رأوها تجدّ في أثر الخنزير، غير آبهة بما في

تلك المغامرة من الخطر على حياتها.. إلا أنهم حينما رأوها تكر عليه، وتفر منه، ثم تحاوره من هنا، وتداوره من هناك، وتنقض عليه كالصاعقة مرة، ثم تنفلت منه ككرة الزئبق مرة أخرى، اطمأنوا وعرفوا أن الخنزير قد ابتلي بذئبة لا يستطيع أن يلاحقها غير لمح البصر.. وألا بدّ لوحش البرية من بطشة ترديه من هذه النمرة التي اجتمعت لها كل أسلحة الرشاقة والخفة والجمال والبطش الشديد.

أما الأبطال الآخرون فقد وقفوا دهشين مبهوتين لما عاينوا من هذا الصراع العجيب بين النقيضين العجيبين بين الوحشية في أبشع صورها، والجمال في أروع مجاليه.. بين خنزير قذر بارز النابين، منتفخ الأوداج، وسخ الفم، سائل الأنف، رث الإهاب، كريه الرائحة، منتن الأنفاس.. وفتاة لم تصور الأوهام مثلها بين عرائس الماء والغاب، وحسان الريف وغيد المدن.. وأعجب من هذا العجب كله أن الأبطال المغاوير قد نسوا المعركة كلها، وغرقوا في أحلامهم المعسولة بجمال آتلانتا.. وأعجب من هذا العجب أيضاً، أن كلًّا منهم كان يصورها عروساً لنفسه، لا يشركه فيها أحد، ولا يفوز من دونه أحد.. وكنت تسمع منهم أصوات الاستحسان وعبارات الاعجاب بحسنها عامة، لكنك كنت تستطيع أن تميز بين ألوان هذا الاستحسان، وصنوف ذاك الاعجاب.. لقد كان كاستور مثلاً لا يفتأ يردد هذه العبارات: «يا لآلهة السموات ما أعجب عينيها وأملأهما بالسحر! إن لها لأهداباً تلسع الفؤاد بأبر كالنحل.. لكنه لسع حلو كشهدها.. فمن لي بألف خلية في قلبي؟»

وأما بليوس، فكان يقف مفغور الفم عن كثب وهو يردد: «سبحانك يا سيد الأولمب! أما هذه القدم الحلوة التي تشبه القبل؟ وحقك يا رب الأرباب لقد فرغت لتصويرها ألف سنة، واخترت لصبغها بالورد ألف ربة حسناء، وتركت لألف ساحرة من ساحرات سبرسيه نفثن سحرهن كله في ربلة الساق، وخاتم الكعبين، وتكويرة العقب، وانثناءة الظهر، واستدارة البطن، وهذه النكتة الجذابة بين البطن والأخمص الطويل المخروط، الذي صبغت ظفره، وأظافر اخوته بصبغ صنعته أنت بيدك يا سيد الأولمب الفنان، لقدم آتلانتا خاصة ومن ورد ألف حديقة غناء!».

وأما نسطور. فكان فمه يتحلب.. وعيناه يتقدان اشتياقاً ولوعة، كلما نظر إلى هذا الفم الأنيق الرقيق الأرجواني، وسط جنة الوجه المترعة بالمفاتن.. بين خمل الخدين الأسيلين والأنف الأشم، والذقن الدقيق.. وملء هذه الابتسامة التي تشيع في الوجه كله فتنة وجاذبية، وبالرغم مما فيه آتلانتا من هذا الصراع الرهيب.

أما أونيوس.. والد ملياجر.. فقد كان هو الآخر في جوسقه المشرف على المعركة.. ويفكر وكانت زوجته آلثيا.. لا تظن أبداً أن زوجها الملك سيصبو هو أيضاً إلى هذه الفتاة التي كان يجب أن ينسي الناس شجاعتها مفاتن حسنها لكنها، حينها سمعته يتنهد هذه التنهدة الحارة العميقة ذات المعاني، لم تنتظر.. بل لفتته إلى أن الفتاة عروس ولديها الحبيب ملياجر.. فلم يملك الملك الوامق إلا أن يقول في هدوء وتذلل ورفق.. «أجل إنها عروس ملياجر.. إنها عروسه، ولكني لا أدري.. لماذا أنا خائف.. وخائف من أحد الناس على ملياجر..» وقالت له الملكة: «وأنا لا أخاف عليه إلا منك.. فافق.. ولا تنسَ أنها عروسه!»

وحانت لآتلانتا فرصتها.. فقد استدار الخنزير المأخوذ ناحية اليمين لغير ما سبب من دفاع أو توق لسهام خصمه، فسددت إليه آتلانتا سهماً مراشاً لم تفلح في إنقاذه منه كل ما أوتيت ديانا من حيلة، فنفذ السهم في صدغ الوحش، وأصاب منه مقتلاً.. لكنه راح يتخبط في غير وعي، ويهجم على آتلانتا في غير مبالاة، حتى انفرد بها في ركن ضيق من مكمنه، وكاد يفتك بها، لولا أن ملياجر على مقربة فأمسك مطردة(*) وضربه به على يافوخه ضربة قضت عليه، وانقذ حبيبته من شره.. وسقط الخنزير الملعون بعد أن لفظ آخر أنفاسه!

وهنا.. سمعت في الجو ولولة ودمدمة.. وإذا هي ولولة ديانا ربة الصيد.. إنها تدمدم منذرة قاتلي خنزيرها بالويل والثبور.. وعظائم الأمور.. وهب أبطال اليونان من مواقفهم مشدوهين مبهوتين، لا يكادون يصدقون أعينهم لما رأوا.. فقد انتصرت الفتاة الحسناء حيث أخفقوا.. وظلت تكافح الوحش في غير كلال ولا لغوب، حيث أصابهم الخور، وقعد بهم الجهد، وتقطعت أنفاسهم دون مواصلة القتال فأقبلوا يهنئونها، ويباركون لها، ويبدون إعجابهم بما أظهرته عليهم من طول الصبر، وحسن الكر والفر، وتسديد الرماية، وتخضيد شوكة الذي أعجز أمة بأسرها.

وكانت آتلانتا تتلقى تهنئاتهم باسمة الثغر، طلقة المحيا مشرقة الجبين.. حتى تقدم ملياجر ليقدم إليها نابي الخنزير، وأذنيه، وذيله.. هدية خالصة منه باسم وطنه كاليدون واعترافاً بفضلها، وشهادة لها بما بذلت في إنقاذ بلاده وشعبه من شر هذا الوحش الكريه...

(*) المطرد بكسر الميم عصا غليظة بطرفها سن من حديد.

وكان لملياجر خالان قد شهدا المعركة وأبليا فيها بلاء حسناً.. لكنهما كانا رجلين فيهما جاهلية، وبهما غباء وعنجهية.. فقد عز عليهما أن تخرج شارات الخنزير ومغانمه من كاليدون وأن تفوز بها هذه الفتاة الغريبة التي لا يعلمان من أمرها شيئاً.. وإن كانا قد شهدا من شجاعتها، وحسن بلائها كل شيء.. فتقدما إلى ملياجر يعترضان على إهداء مغانم الخنزير وشاراته إليها، وقد عجب من ذاك العبث.. لكنهما اشتدا عليه، وركبا رأسيهما، وفرطت منهما كلمات أثارت ثائرة ابن اختهما.. فهاج هائج ملياجر.. وأمر خاليه بمغادرة الميدان، بعد تقديم اعتذارهما لأتلانتا فلم يفعلا.. فتناول الفتى مطرده، وانهال به على الرجلين فقتلهما.. وهكذا.. انقلب عرس المدينة فصار مناحة ومأتماً.. فقد نمي الخبر إلى الملكة ألثيا.. أم ملياجر.. فحزنت على أخويها أفجع الحزن وأفظعه، ونقمت من ابنها ما صنع ولم تدرِ كيف تقتص منه، وهو فلذة كبدها، وقطعة قلبها، وحبيب نفسها لأخويها الشقيقين اللذين كانت تهواهما وتفتديهما بالدنيا وما فيها ومن فيها لأنهما كانا آخر سلالة اسرتها، وبموتهما انقطع عمود نسب العائلة كلها.

وجلست ألثيا تضرب أخماساً لاسداس، وتسفح من عينيها ما تستطيع الأخت الوفية أن تسفح من دماء ودموع.. ولم تدرِ كيف يكون المخرج من هذا المأزق.. وحاول الملك أن يواسيها ويسليها، لكنها لم تكن تزداد إلا نقمة على ملياجر، وكراهية له، فقد عز عليها أن يقتل أخويها على هذه الصورة، ثم لا ينتقم لها أحد، وبهذا تظل روحاهما سادرتين حزينتين، تطوفان في السموات، وتضطربان على أنصاب المقابر، دون أن يؤذن لهما بالنفاذ إلى العالم الآخر، لأن قاتلهما قد ترك وشأنه.. طليقاً حراً.. يرتع في الدنيا كما يشاء، ويعبث حيثما يريد، ويلهو ويلعب دون أن تمتد إليه يد الانتقام!

واشتد حزن الثيا حتى رفضت أن تسمع من زوجها كلمة واحدة، بعد الكلام الطويل الممل الذي زخرفه لها.. ثم نهضت فجأة، وقد جن جنونها، وعميت بصيرتها، فأسرعت إلى القبو، وفتحت تلك الخزانة الحديدية التي أودعتها تلك القطعة الخالدة من الخشب.. والتي استقرت في مكانها منذ كان ملياجر طفلاً يلعق أصابعه، لا يراها أحد ولا يمسها أحد.. فتناولتها وانطلقت بها إلى المدفأة، وقذفت بها في لظاها الملتهب، وهي تصرخ وتقول: «لتمت إذن يا أشقى الأبناء لتمت.. لتمت».

وكان ملياجر في تلك اللحظة يداعب آتلانتا في خلوة سعيدة، ويشرب من

عينيها اللتين سحرتا كاستور، وجمال ساقيها وقدميها التي بتلت فؤاد بلياس، ومفاتن وجهها التي شردت لب نسطور، وبياض بشرتها التي لا تخفي ما وراءها من دمها الحار المتدفق.. كان يشرب من ذلك كله خمراً حلالاً روحية طيبة، في كؤوس من كلمات حالمة، يطلب بها إلى آتلانتا أن تكون عروسه، لتكون في الغد القريب ملكة كاليدون، ولتملأ عليه الدنيا سعادة وهناء وبهجة.

ولم تكن آتلانتا أقل سعادة من ملياجر بهذا الزواج الموعود.. وقد سرها أن تكون كفؤاً لهذا الفتى ولي عهد تلك المملكة الباذخة الشامخة.. فقد ذكر لها أبوللو أنها هي أيضاً ابنة ملكين كريمين ولذلك كانت تبتسم لملياجر هانئة سعيدة.. وهو يقاسمها على الوفاء والولاء.. وانهما لفي هذه الأحلام.. إذا ملياجر يحس فجأة آلاماً مبرحة تعصف به، وتشيع ببرد الموت في كيانه، فلا يملك إلا أن يشكو، وهو الذي ما شكا إلى أحد قط... فتسأله آتلانتا عما به، وقد هالها أن يتلوى كالملدوغ بألف أفعى، ولا يدري ملياجر ماذا يقول.. لأن برحاء الألم كانت تقطع أنفاسه، وتزيغ عينيه.. لقد كان يحتضر.. ولقد كان على شفا الهاوية!

وتأخذه أتلانتا بين ذراعيها.. وتغمر وجهه بالقبل، وتسكب على رأسه الجميل أغلى عبراتها. ولكن.. واأسفاه.. لقد اضطرمت قطعة الخشب في النار.. واضطرمت نيران الموت في جثمان ملياجر.. ثم أخذت قطعة الخشب تحور رماداً.. وأخذت حياة ملياجر تهمد.. ثم انتهت القطعة لأن النار أكلتها، وفاضت روح ملياجر.. لكنها فاضت بين ذراعي آتلانتا، ورأسه الحبيب على صدرها..

وذعرت الجميلة.. وانحنت على وجه حبيبها تقبله.. وتقبله.. وتذرف عليه لآلىء دموعها، بل تسكب عليه روحها..

مسكينة.. إنها لم تكد تلقاه حتى فارقته.. فيا له من حب عزيز قصير الأجل..

وإنها لكذلك.. وإذا الملكة أم ملياجر الشقية.. تبرز من بين الشجر فجأة، فتصرخ... وتعول.. وتهرع إلى الحبيبين وهي تتلوى من الحزن.. مولولة.. مذبوحة الصوت:

«..ولدي.. لقد كنت عمياء.. فسامحني»

ومضت لحظات وهي لا تجسر على أن تدنس جثمان ولدها بمد يدها إليه... ثم التفتت إلى آتلانتا.. آخر الأمر وهي تقول:

«بنتي آتلانتا.. سامحيني أنت حبيبة، سامحيني.. وعيشي معي.. وعيشي لي..»

لكن آتلانتا كانت تسجي حبيبها على الكلأ الأخضر الغض، ثم تنتزع أوراقاً من الدوح القريب فتغطي بها ملياجر، بعد أن تقبله ألف قبلة، وتسكب عليه ألف عبرة.. ثم تحيي الأم المحزونة وتقول: «سيدتي.. لك عزائي.. قد أعود إليك لأعرف سر هذه المأساة المفاجئة التي أنذرتنا بها الآلهة.. أما الآن.. فاستودعك آلهة الأولمب.. إني ذاهبة لألقي والدي اللذين لم أرهما منذ ثماني عشرة سنة.. بل.. لم أرهما في حياتي قط..»

وتعود آتلانتا إلى وجه ملياجر فتقبله.. وتودعه.. وهي تبكي.. وتنصرف.

ولا تكاد تبتعد.. حتى تسمع في الهواء ضحكات.. هي لا شك ضحكات الشقيقين الشقيين، أبوللو.. وديانا.. لقد حضرا ليشهدا المأساة التي لم تنته.. لقد حضرا ليشهدا الملكة وهي تنتحر على جثمان ولدها!

أتلانتا

في غرام جديد

(٢)

وهكذا.. لم تكد الدنيا تبتسم لأتلانتا حتى عبست وتولت عنها بكل بهارجها، حينما مات ملياجر هذه الموتة الحزينة المفاجئة.

ومنذ أن سمعت آتلانتا هذه النبوءة العجيبة من وحي أبوللو، في مهبط هذا الوحي بمدينة دلفي، وهي موزعة اللب، شاردة الفكر، لا تستطيع أن تتصور أنها ابنة ملك عظيم الجاه ورفيع الشأن.. ولا تستطيع أن تتصور، إن كان أبوها هو هذا الملك حقاً، كيف طاوعه قلبه فأراد يوماً أن يتخلص منها على هذه الصورة المجرمة البشعة، حينما أرسلها مع خادم من رجاله ليتركها بالعراء عسى أن يفترسها وحش من وحوش البرية، أو باشق من بواشق الغابة.. وكانت آتلانتا تذهل وتغيب عن رشدها، عندما تفكر في نصيب أمها من هذا الاثم، لكنها كانت لا تنفك تتلمس لها الأعذار، وتتلقف العلل لتنفي عنها أنها كانت راضية عما حدث للطفلة الصغيرة البريئة، أو أنها اشتركت في هذا الجرم الذي تتنزه عن مقارفته الحيوانات، بل الوحوش. بل الأفاعي والتماسيح.

كانت هذه حال آتلانتا قبل أن يموت ملياجر أمام عينيها، وملء ذراعيها فلما مات ملياجر، حبيبها وربيع غرامها، ورأت أمه تحزن عليه كل هذا الحزن وتبكيه كل هذا البكاء، تبدل موقفها، وتغير تفكيرها، ونسيت هذا الهذر الذي قاله أبوللو، حينما ذكر لها أن أباها ملك أركاديا حاول يوماً أن يتخلص منها لأن أمها الملكة وضعتها أنثى، ولم تضعها ذكراً ليكون ولياً للعهد، نسيت آتلانتا هذا الهراء أو تعمدت أن تنساه.. لكنها كانت تذكره في طريقها إلى اركاديا بالرغم منها.. لأن أبوللو كان قد نصح لها ولملياجر بألا يذهبا إلى كاليدون، لأن ذهابهما إليها فيه حتف ملياجر، وحتف أناس آخرين.. فلما استهزءا بنبوءة الإله، غضب ونقم منهما

ما أظهراه من سخرية وكفر.. وقلة إيمان.

وها قد تحقق الشطر الأول من نبوءة أبوللو. فقد مات ملياجر، بعد أن قتل خاليه.. ثم انتحرت أمه على جثمانه.. وهي التي تسببت في قتله. فيا ترى! هل يصدق الشطر الثاني من نبوءة رب دلفي؟

لقد أنذرها بأن تتم فيها، وفي كل من يحبونها، مشيئة ربات القضاء، ثم أردف انذاره ذاك بهذا الدعاء الغريب: يا تمرة! فلماذا ناداها هذا النداء يا ترى؟ وجلست فوق صخرة مشرفة على إحدى الغابات من جهة.. وعلى بحر لجي من جهة أخرى.. ثم أخذت تفكر ثم امتلأت عيناها الجميلتان الكهرمانيتان بالدموع فجأة.. لأنها رأت طيف ملياجر يرف في سماء ذكرياتها القريبة فاحتشدت في رأسها المضطرب صورة هذا الغرام العجيب الذي تنفس به في قلبها الصغير المعربد لأول مرة في حياتها إله الحب..

ثم رأت طيفاً آخر عزيزاً عليها، بل هو اليوم كما كان قبل أن تعرف ملياجر، أعز شيء عليها في هذا الوجود الذي بدلته مأساة ملياجر تبديلاً تاماً.. وذاك هو طيف الدبة.. أمها.. عروس الغابة التي كتب عليها أن تشقى هذا الشقاء الأبدي، لأن رب الأرباب أحبها.. ثم تزوجها فكان من نصيبها هذا الشقاء الذي يكاد يكون سرمداً!

ثم تنفست آتلانتا تنفسة طويلة.. وهبت من مقعدها، وفي نيتها أن تعود ادراجها إلى مكانها القديم من غابتها الحبيبة، حيث أمها الدبة المحزونة المُرْزَاة.. وكان أمامها طريقان.. أما إحداهما فتؤدي إلى الغابة.. وأما الأخرى فتؤدي إلى خليج كورنته، ثم إلى أركاديا في وسط بلاد البليبونيز.. وقد سلكت آتلانتا الطريق الأولى في صحبة ملياجر. وهي على هذا تعرفها وتحذق دروبها.. ولكنها لم تعرف لماذا سلكت الطريق الأخرى التي تذهب بها إلى أركاديا.. فلما فطنت إلى ذلك.. تبسمت ابتسامة حزينة ساكنة.. ولم تشأ أن تغير مجرى القضاء والقدر، أو انها أرادت أن تمتحن أبوللو في الشطر الآخر من نبوءته العجيبة.

وقد جعلت تحدث نفسها أحاديث طويلة.. وكان أول ما جال في خاطرها من تلك الأحاديث انها سترى إن كان أبوها هو ملك أركاديا حقاً؟ وذلك إنْ كان لا يزال حياً يرزق حتى ذلك اليوم الذي ستلقاه فيه. فإذا كان ذلك، فلا غرو أن أبوللو صادق.. ولا غرو أن بقية النبوءة سوف يتحقق كما أنذر إله دلفي.. وستستطيع آتلانتا أن تعود إلى غابتها الحبيبة لتحول بين نفسها وبين هذه المقادير السود.

وبلغت شاطىء كورنت.. وعبرت الخليج إلى شاطئه الآخر في زورق لأحد الملاحين لم يجرؤ أن يأخذ منها أجراً لأنه حسب اتلانتا عروس غاب مقدسة برزت فجأة من صميم الغابة القريبة. فليس معقولاً أن تكون من البشر، ويكون لها كل هذا الجمال وكل تلك الفتنة.. لقد كان البحر يضطرب ويصطخب، فلما نزلت اتلانتا إلى الزورق سكن جأش الموج، ونام ثائره، فكيف لا تكون الراكبة في الزورق ربة من ربات الأولمب، أو عروساً من عرائس الغاب على الأقل.

وتبسمت اتلانتا حينما اعتذر الملاح عن تقبل (الأجرة) التي قدمتها له.. ثم ألحت عليه في وجوب أخذها.. فلما مد الرجل يده ليأخذها.. إذا هو يرى ناباً كبيراً في يد الفتاة، فنظر إليها نظرة المستفهم المستريب.. فتبسمت وقالت له:

ــ ألا يسرك أن تتقاضى اجرتك ناباً من أنياب خنزير كاليدون؟

وهنا.. اضطرب الملاح اضطراباً شديداً، وأنشأ يقول:

ــ خنزير كاليدون؟ خنزير كاليدون! أأنت إذن يا سيدتي آتا.. آتا..آتلانتا؟

ــ وكيف عرفت؟

ــ وكيف عرفت! أتظنين أن أحداً من أهل هيلاس جميعاً لم يعرف صورتك، بعد الذي نظمه فيك أبطال كاليدون من غرر الشعر وفرائده؟ غفرانك يا سيد الأولمب ما أشد غباوتي؟ كيف لم أعرفك منذ رأيتك؟ يا سيدتي!

ــ ماذا؟

ــ أتسمحين لي أن أنشدك بعض الذي قاله الشعراء فيك؟

ــ وهل أزمعت هذا السفر الطويل لأسمع أشعار الناس فيّ؟

ــ عفواً يا سيدتي.. عفواً...

ــ أتعرف الطريق إلى اركاديا؟

ــ الطريق إلى أركاديا؟ أتنتوين الذهاب إلى أركاديا يا سيدتي؟

ــ أجل

ــ لشد ما سيفرح ملكها بك.. لقد.. ولا سيما في أركاديا..

ــ كلامك يدهشني! ولماذا أركاديا بالذات؟

ــ لأن ملكها المسكين مغرم بالقصص.. و..

ــ ملكها المسكين.. ولماذا هو مسكين؟

ــ لأنه لا عقب له.. وكان قد أنجب طفلة فأرسلها لتموت فوق جبل البارثنيوم.. وليته لم يفعل إنه لم ينجب بعدها...

ــ يا له من والد لا قلب له! ومنذ كم من السنين حدث هذا؟

ـ منذ.. ثماني عشرة سنة.. سبع عشرة سنة.. عشرين..
ـ يا إله السموات! ولماذا يحب القصص إذن؟
ـ يحبها لتجلو أحزانه.. وبهذه المناسبة.. لقد جمع حوله فحول الشعراء الذين نظموا قصة مغامرتك في كاليدون لينشدوه ما نظموا...
ـ قصة مغامرتي أنا؟
ـ أجل.. قصة مغامرتك.. أنت وملياجر!
ـ ملياجر؟
ـ أجل.. ملياجر بن الملك اونيوس «ملك كاليدون» لماذا لم يحضر معك؟
ـ ايه.. ايها الملاح الطيب القلب مليا‌جر لم يعد من أهل هذه الدنيا!
ـ فداء نفسي ومالي.. ماذا تقولين؟
ـ أجل.. إنه لم يعد من أهل هذه الدنيا.
ـ وهل.. قتل؟
ـ لا أدري.. لكنه مات في لحظات..
ـ ولكن..
ـ أرجوك.. كفى ثرثرة.. هل تتفضل فتكون رفيقي إلى أركاديا..
ـ لا بأس.. فأنا من أركاديا.. وإن لم أرها منذ ثماني عشرة سنة.. سبع عشرة.. عشرين
ـ ولماذا؟
ـ منذ أن تركت ابنة الملك اياسيوس في مكان ما بجبل البارثنيوم.
ـ فأنت إذن الذي أخذها إلى هناك؟
ـ أجل.. ويا أسفاً عليها..
ـ وكنت من رجال القصر إذن؟
ـ كنت من رجاله الأمناء.
ـ وأهلك؟ أليس لك أهل بيت في أركاديا؟
ـ لي أهل لا يزالون في بيت الملك
ـ زوجتك.. أو ابنتك.. أو
ـ بل زوجتي.. التي لا تعلم إلى اليوم أين أنا...
ـ ولماذا؟
ـ لاني خفت أن أعود إلى القصر، ولم أقتل الطفلة.. لقد آثرت أن أتركها لقدرها.. ثم هربت..
ـ إذن فهلم معي..

ووصلا إلى أركاديا.. وأشار الملاح على آتلانتا أن تنتظره في مكان ما من أرباضها.. حتى يرى إن كان يستطيع أن يتصل بزوجته إذا كانت لا تزال حية، فيأتيها ببعض أنباء القصر.. أو يأتيها بزوجته نفسها.. لتقدمها إلى الملك اياسيوس أو إلى من يقدمها إليه..

وراقت فكرته آتلانتا.. وعاد الرجل بعد ساعة أو نحوها وفي صحبته امرأة نَصَفٌ.. ولم تكد ترى آتلانتا حتى زاغ بصرها.. وجعلت تحدق في عينيها.. ثم فغرت فمها وأنشأت تقول:

ـ يا آلهة الأولمب؟.. لشد ما تشبه سيدتي هذه مولاتي الملكة.. بحق زيوس عليك ايتها الحسناء خبريني من أنت؟

ـ ولماذا؟

ـ لا شيء.. لا شيء..

ـ ثم أسرت المرأة إلى زوجها تقول:

ـ أونيو! لم أكد أجدك بعد هذا العمر الطويل حتى بدأت أخاف أن أفقدك! وإذا فقدتك هذه المرة.. فإلى الأبد.. قل لي.. ولا تكذبني ماذا فعلت بابنة الملك؟

ـ ولماذا أكذبك وفي وسعنا أن نفرّ ونعيش سعيدين بعيداً عن هنا.. لم أقتلها.. لم تطاوعني نفسي لقد كانت تكلمني بعينيها الجميلتين البريئتين، وتستغيث بي ألا أفعل.. فتركتها على الجبل، وفررت.. وأنا أضحي بأهلي، بفعلتي هذه أفهمت؟

ـ أجل.. نستطيع أن نفر.. ولكن.. لا.. إن كانت هذه الحسناء اتلانتا هي تلك الطفلة.. ابنة الملك.. فسأذهب معها أنا.. إلى القصر.. حتى أقدمها إلى أمها، وأنال عندها البشارة.. وحسن الجزاء.. ثم أخبرهم بأنك صنعت كيت وكيت.. بدافع كيت وكيت.. فيصفح الملك عنك، ويستدعيك.. ويجزل لك العطاء.. فاغرب أنت من أركاديا كلها.. ثم احضر بعد يومين حتى يكون الجو قد تهيأ للقائك.. وبعدها.. لن أفقدك أبداً.

ولم يقلع الرجل وزوجته عن الثرثرة حتى نهرتهما آتلانتا..

وقد سر الملاح برأي صاحبته.. فودعها.. واستأذن من آتلانتا.. فلم تأذن له.. لقد قالت له:

ـ بل تجيء معنا.. ولا تخف.. فلن يصيبك ضر.. وأنا أضمن لك ذلك.. أنا.. آتلانتا، ابنة الملك اياسيوس.. ملك اركاديا.. الطفلة الشقية التي

ستحفظ لك جميلك وستجزيك عليه خير الجزاء..

ـ ولكن.. يا سيدتي.. بحق السماء عليك.. كيف عرفت ذلك؟

ـ عرفته من إله كريم لا يكذب.. عِرفته من أبوللو، رب دلفي!

ـ وافرحتاه.. ائذني لي يا سيدتي إذن أن أقبل قدميك..

ـ كلا.. لن تفعل.. فأنت أكرم عليّ من ذلك..

ـ فطرف ثوبك..

ـ لن تقبل مني شيئاً.. هلما.. هلما إلى قصر أبي.. فالوقت ثمين.

* * *

وانطلق الثلاثة إلى القصر الملكي، وأسرعت زوجة الملاح إلى سيدتها الملكة فهتفت تقول:

ـ مولاتي.. بشراك..

ـ بشراي؟ بماذا تبشرينني يا هستيا؟

ـ بـأعظم البشريات وأعزها.. يا مولاتي..

ـ أعظم البشريات؟ ليت شعري ما هي؟

ـ احزري..

ـ لا أقدر..

ـ اليوم تشرف قصرنا بطلة سباق كاليدون..

ـ آتلانتا!

ـ هي.. بعينها!

ـ هذا خبر سار.. ولكن.. ماذا فيه من البشريات يا هستيا؟

ـ إن لم يكن أعز البشريات.. فـ.. فـ..

ـ فنحلق لك شعر رأسك!

ـ قبلت.. قبلت.. وإن ثبت أنها أعظم البشريات

ـ أجبتك إلى أي طلبة تطلبين..

ـ إذن.. فالتمس أن تلقاك أولاً

ـ وهل وصلت؟

ـ أجل.. وأنها لفي حديقة القصر الآن.. مع شخص عجيب آخر!

ـ مع شخص عجيب؟ هستيا.. هل أصابك طائف من الجنون؟

ـ لا طائف من الجنون ولا شيء.. مطلقاً.. وأجرؤ أن أقول لمولاتي إن هذا الشخص هو..

ـ هو من؟

ـ هو أونيو. .

ـ أونيو. .؟ . . أونيو من؟

ـ ألا تعرفين أونيو؟

ـ لا أفهم؟

ـ أونيو العزيز. . زوجي

ـ أحق هذا يا هستيا

ـ حق وأرباب السموات. . كما أن الأولمب حق

ـ أونيو. . بعد ثماني عشرة سنة

ـ أجل. . بعد ثماني عشرة سنة!

ـ إيه. . يا سيد الأولمب. .

ـ . . . . . .

ـ فهذه إذن هي البشرى يا هستيا

ـ . . . .

ـ الرجل الذي. . ذهب بابنتي إلى البارثنيوم. . واأسفاه عليك يا آتا الصغيرة!

ـ طيبي نفساً يا مولاتي. . فلقد جاء أونيو ليكفر عن خطيئته. . فهل تأذنين لحسناء كاليدون؟

ـ ولماذا لا تلقى الملك أولاً. .

ـ بل لا بد أن تلقاك أنت

ـ ولما؟

ـ لقد شرطت هي ذاك. . ولست أدري لماذا؟

ـ إذن فلا بأس. .

* * *

وانطلقت هستيا. . ولبثت الملكة وحدها تغالب ذكريات هذا الماضي الحزين البائس، وتسقيه من عينيها الـ. . كهرمانيتين. . دموعاً كانت تنسكب في ثقل، وفي هدوء. . وهذا الطيف الصغير البريء. . آتا العزيزة. . يلوح من خلالها شاحباً. . ضئيلاً. . منتحباً. . يشكو إلى السموات قسوة الآباء وغلظ أكبادهم، وتجرد قلوبهم من الرحمة. .

لقد استعرضت الملكة المحزونة تلك اللحظة الرهيبة التي انتزعوا منها ابنتها آتا ليسلموها إلى يد الخادم السيء الحظ، الذي أمروه بحملها إلى جبل البارثنيوم، ليقتلها هناك... فأحست بنفس الآلام التي احستها ذلك اليوم، وسكبت نفس الدموع، وتحرقت روحها بنفس اللظى. لكن عذابها ذاك لم يطل.. فقد أيقظها من غشية أحلامها صوت رقيق عذب يقول:

ـ جلالة الملكة.. وكانت آتلانتا هي التي تدعو. ونظرت الملكة.. فمن ذا رأت؟ لقد رأت شبح صباها، وطيف شبابها واقفاً في عنفوانه، يطل إليها من مرآته الصافية التي أحاطها ذلك الاطار الاسود من ذكريات الماضي الحزين..

ـ ـ يا إله السموات! من هذه إنها.. آتا.. نفس الوجه ونفس العينين.. ونفس الشعر.. ونفس الملامح والقسمات.. الغريب فيها ملابسها! ترى؟ من هذه؟

ـ أجل.. أنا هي.. فافتحي ذراعيك يا أماه..

وتنتفض الملكة من هول المفاجأة.. وترفع ذراعيها تريد أن تتلقى فيهما هذه المفاجأة.. لكنها لا تستطيع فها هي ذي تسقط إلى الأرض، وتنطرح فوق رخامها الوردي اللامع مغشياً عليها.

ويشيع النبأ العجيب في ردهات القصر وأبهائه.. ويكون الملك في البهو الكبير يستمع إلى شعرائه الذين نظموا قصيدة خنزير كاليدون وغرام ملياجر. فلا يكاد يعلم أن آتلانتا الحسناء بطلة هذه الملاحم الكبرى كلها في قصره، حتى يهب من مجلسه متسائلاً:

ـ أين هي.. أين هي.. أين هي آتلانتا الشجاعة الجريئة المقدام؟

ولا يكتم الحق نفسه، فقد حدثت الملك نفسه أن آتلانتا هي له بجمالها وجميع مفاتنها.. وبشجاعتها أيضاً.. ولن يفوز بها غيره من الملوك والأمراء والأبطال الشجعان المحاربين!

وهب الملك من مجلسه ليذهب للقاء آتلانتا وقلبه يحدثه بالآمال العريضة في التمتع بها، واستجلاء محاسنها.. لكنه لم يكد يخطو خطوات حتى علم أن الملكة مغشيّ عليها.. وأن سبب غشيتها هو لقاء آتلانتا. فهرول الملك المسكين نحو جناح الملكة الخاص.. فماذا رأى؟

لقد رأى الملكة الكبيرة ملقاة على رخام الغرفة وأمامها ملكة صغيرة شابة هي

بوجهها وجسمها وجميع ملامحها زوجته العروس في الثامنة عشرة، وفي ليلة زفافها.. ووقف الملك لحظة يقلب عينيه في هذا المخلوق العجيب.. ثم قال:

ـ من؟

وتنظر إليه آتلانتا بعينيها الكهرمانيتين لحظة ثم تقول:

ـ من؟ أتسأل يا مولاي من؟ ألست أنت الملك قبل كل شيء.. وبعد كل شيء.. ألا يستطيع قلبك أن يحدثك من عسى أن أكون؟ إنني هي.. آتا.. آتا.. جئت من مكان بعيد.. بعيد جداً.. جئت مع الرجل نفسه مع أونيو! ألا تذكر؟ ما لك قد جمدت مكانك هكذا يا.. والدي العزيز؟

ولم تكد تناديه هذا النداء الحبيب القاسي.. حتى صاح الرجل المسكين من سويداء قلبه:

ـ آتا.. آتا.. فأنت إذن آتا ـ لانتا.. آتا ـ لانتا ابنتي.. يَ.. إلّي.. إلّي يا ابنتي الوحيدة.. العزيزة.. الحسناء..

وكأنما نسي الملك زوجته.. ولكن الملكة التي كانت قد أخذت تتنبه.. حركت رأسها.. وقالت لها وهي تبتسم:

ـ بل إلّي أنا.. يا ابنتي الوحيدة.. العزيزة.. الحسناء..

وهنا تقدمت اتلانتا إلى أمها.. وأخذتها ملء ذراعيها، وراحت تمطر وجهها بالقبل.. وبالدموع أيضاً.. ثم تقدمت بعد ذلك إلى أبيها.. وعانقته عناقاً حاراً.. لا فاتراً.. عناقاً أبوياً مختزلاً.. وهي تقول مبتسمة:

ـ لا بأس.. لقد عفوت عنك.. وأظنك تصفح عن أونيو!

ويقول الملك، وهو لا يملك دموعه:

ـ أونيو! إني مستعد أن يخلفني على عرشي يا بنيتي.. لأنه عصاني، وخالف عن أمري فلم يمسك بسوء بل سهر عليك.. وتولى تربيتك حتى شببت قوية صحيحة وتبتسم آتلانتا.. ثم تقول:

ـ إن الرجل لم يسهر علي، ولم يربني، بل فعل أكثر من ذلك إنه لم يقتلني..

ويقول الملك الذي لم يغشَ عليه، ولم يصبه ذهول المفاجأة باغماء ولا نحوها:

ـ وأين هو أونيو؟ أين هو هذا الخبيث الذي غاب عنا كل هاتيك السنين.

وهنا تتقدم هستيا متضاحكة وهي تقول:

ـ لقد خبأته في أحد أرباض أركاديا يا مولاي، حتى تصدر عفوك عنه..

ويضحك الملك بدوره ويقول:

ـ عفوي.. أصدر عنه عفوي.. يا عجباً.. إنه هو الذي يجب أن يعفو عني ويصفح.. أين هو؟ أين هو.. هذا الخبيث.. إلَيّ به..

وتقضي المدينة أسبوعاً كاملاً في أعياد متصلة، وأفراح متوالية.. ويذاع نبأ اتلانتا في طول هيلاس وعرضها، فيثير فيها عجباً.. ويقدم الملوك والأمراء من كل فج.. والابطال والمحاربون من كل مكان.. ويكون في مقدمة القادمين أولئك الصناديد الذين اشتركوا مع اتلانتا في كاليدون للقضاء على الخنزير الإلهي ذي الجلد السميك.. جاؤ وا جميعاً ليهنوا الملك بعودة ابنته إليه، وليشهدوا من محاسن اتلانتا ما لهج بذكره الشعراء، وأطنب في وصفه المنشدون، وتبارى في استلهامه المثالون والمصورون.. ولم يشهد اتلانتا منهم أحد إلا خطبها على نفسه من أبيها، ولم يشهدها منهم أحد إلا تركت في قلبه حرقاً من الهوى المخامر، وفنوناً من الحب الأليم.. لقد كانت عندهم أرق من النسيم الحلو الذي يداعب خديها فيحملها أنفاساً عبقة إلى أرواحهم لتختلط بدمائهم، وتنطبع على صفحات قلوبهم.. بل كانت قصيدة من شعر الجمال الخالد، ينشدها الخلاق القادر ليسكر بها آذانهم ويطهر بها أرجاس نفوسهم.. بل كانت لحناً علوياً تعزفه يد العناية على أوتار أفئدتهم الغضة، فتستحيل الدنيا كلها أغنية، ويستحيل كل ما فيها نغمًا..

ومرت الأيام.. وكان أبوها في حيرة من أمر ابنته الغريبة الشاذة.. لقد كان يخرج معها في رحلات للصيد، فكان يعجب إذ يراها تسابق الفريسة التي لا تلاحقها الخيل، فتسبقها وتسد عليها المسالك، ثم تمسك بها.. دون أن ترميها بسهم، أو تنصب لها شركاً.

وكان عجبه يتضاعف حينما يراها ترافق الذئاب والدباب وسباع البرية تجالسها وكأنها من جنسها، وكأنها تسامرها وتتحدث إليها.. والسباع من حولها تجري وتمرح،، وتتمسح بأذيالها.. وهي تصغي إليها وتفهم عنها.. فإذا سألها أبوها تضاحكت ثم قالت:

أنسيت إني غذوت لبان دبة؟ أنسيت أني نشأت مع هذه السباع في صميم الغابة؟

ثم كلمها أبوها في شأن هؤلاء الخطاب الذين لا يفتأون يطلبون يدها صباح مساء.. لكن اتلانتا تعبس عبوساً شديداً.. ثم ترجو أباها ألا يخاطبها في هذا الشأن مرة أخرى.. فإذا ألح عليها في معرفة السبب،، وعلة عزوفها عن الزواج الذي لا تحلم كل فتاة في سنها إلا به، صارحته بما زعم لها أبوللو في نبوءته الهائلة،

حينما قال وهو مغضب محنق: إن زواجها سيكون فيه حتفها.. ثم تقول لأبيها: إنها كانت، بالرغم من ذلك ترجو أن يعيش هذا الشاب البطل ملياجر، الذي أحبته وأخلصت له، فلو قد عاش لها لتزوجته ولما كان أشهى إليها من أن تتجرع غصص الموت من نفس الكأس التي تجرعها هو.. بل.. لما كان عليها من بأس في أن تتجرع كل غصص الموت التي تجرعها بنو الموتى فيما مضى، وكل غصص الموت التي ينتظر أن يتجرعوها فيما يلي من الأيام..

ثم يعقد الحزن منطقها، فتصمت لحظة، وتقول: لشد ما كان ملياجر رجلاً يا أبي.. لقد كان شجاعاً جريء القلب.. وكان مع ذلك جميلاً هذا الجمال الذي تعشقه الحسان ولا يغرن منه، لقد كان يحبني حباً يتردد طهره في أغوار قلبي.. لكنه.. وأسفاه.. مات في أسعد لحظة كنت أرجوه فيها لنفسي ومستقبلي وخلودي.. لقد مات بين ذراعي.. وهو أبعد شيء من الموت، لقد مات وكله قوة وحياة وشباب.. وأمل!! لقد مات.. ولا أدري لماذا مات؟

ثم جعلت تقص على أبيها تاريخها القصير الحبيب مع ملياجر، ولما فرغت أعادت عليه ما قال أبوللو.. وما أنذرها به.. من أن زواجها سيكون فيه حتفها..

فكيف يا أبي أستطيع أن أخون حب ملياجر، فأتزوج من بعده.. وكيف أتزوج وفي الزواج حتفي؟ ويتجهم أبوها هو الآخر.. ويقطب ويبكي..

وتحزن اتلانتا لبكاء أبيها وتحاول أن تواسيه وتهون عليه، لكنها لا تفلح.. فهو لا يزداد إلا هماً.. ولا يزداد إلا أنيناً.. فتترك مواساته وتسأله عما يدفعه إلى البكاء إلى هذا الحد، ويسيل أدمعه على تلك الصورة.. لكنه لا يجيب أيضاً.. وإنْ رق رقة تذهل الفتاة عن وسواسها، وترفق بها ترفقاً يذيب الحجر الصلد فيجعله نسيمًا يهب بعطر الورود من فم الصباح الباسم.

لكن الفتاة تلح على أمها في خلوة لتعرف سبب بكاء هذا الوالد المحزون فلا تبالي أمها أن تخبرها أن ملوك هيلاس وأمراءها وذوي الشأن فيها قد أغضبهم رفض أبيها أو اعتذاره عن إجابة طلبهم في خطبة اتلانتا.. واعتبروه ترفعاً منه عن الاصهار إليهم فاتفقوا على أن يتقدموا إليه جماعة بدل أن يتقدموا إليه أفراداً ليرغموه على قبول أحدهم زوجاً لابنته، بأي الشروط يرضى، وبأغلى المهور التي يشتهي، فإن لم يفعل، ولن يفعل حتى تقبل آتلانتا أن تتزوج فانهم معلنوها عليه حرباً تدلف فيها جيوش اليونان على أركاديا، من كل صوب.. وأركاديا ضعيفة لا

قبل لها بلقاء جيش واحد من جيوش تلك الدول فما بالها مجتمعة في معركة واحدة وفي ميدان واحد؟

ثم تذكر أمها أن خطابها قد حددوا لتنفيذ ما أنذروا به أسبوعاً أسبوعاً واحداً.. يمضي كما يمضي البرق، ثم ترجف الراجفة وتخطف الخاطفة.. ولا يسأل حميم حميًا..

وتصمت الأم الحنون.. ثم تنظر إلى ابنتها لترى أثر كلامها في نفسها.. أو في وجهها.. لكن اتلانتا لا تعبس.. ولا يبدو عليها أثر واحد من آثار الهم أو الفكر.. بل هي تبسم عن فمها الدقيق الرقيق.. وتعذر أباها المسكين الذي وقع بسببها بين شقي الرحى.. فهو لا قبل له بأعدائه هؤلاء الكثيرين كما ذكرت أمها.. وهو لا قبل له بارغام ابنته على زواج لا تريده.. بل تفر منه.. لأن زواجها معناه حتفها كما زعم أبوللو.. ولأن الفتى الذي كان يهون في سبيله شرب كأس المنية قضى... فلم يعد لاتلانتا أمل في هذا الذي هو أمل كل عذراء.. وتسألها أمها عما ترى.. فتقول آتلانتا إنها كانت تستطيع أن تجمع من وحوش البرية وسباع الغابة جيشاً يفتك بجموع اليونانيين.. وإنها كانت تملك أن تستصرخ أهل كاليدون وأحلافها فينصروها بمائة ألف من جنود مسومين.. لكنها لا ترضى أبداً أن يقتتل مواطنوها من أجل فتاة.. وفي سبيل قضية تافهة مثل هذه وهي لذلك تشير على أبيها بحيلة تنجيه من هذا المأزق.. وهي حيلة لا يقع اثمها إلا على هؤلاء اليونانيين السخفاء، الذين يأبون إلا أن يرغموا فتاة عذراء مثل اتلانتا على الزواج، وعلى الزواج ممن لا ترضى.. وما داموا قد جعلوا من موضوع زواجها عبثاً كهذا العبث فهيَ كذلك تجعل من انذارهم بالقتال عبثاً في عبث.. إنها تقبل أن تتزوج من البطل الذي يستطيع أن يشأوها في سباق وفي سباق تشهده جموعهم كلها.. فإن لم يسبقها الذي تسابقه، كانت في حل من أن تسلمه إلى أبيها ليطيح برأسه وليرفع الرأس على برج من أبراج أركاديا، ليكون عبرة لمن يعتبر.

واقتنع أبوها بهذا الرأي.. وأرسل سفراءه إلى أمراء هيلاس يعرضون عليهم شروط آتلانتا للزواج من أحدهم إذا رضوا أن يسابقوها.. فقبلوا وحُدد صباح كل يوم من الأيام السبعة للقيام بهذا السباق..

وجزع الملوك وأصحاب التيجان من المشاركة في هذا الأمر الذي لا تعلم مغبته، ولا تعرف نتائجه.. فتخلوا عن المطالبة بيد الفتاة.. فهم لا يزالون يذكرون ما أبدته من المهارة في ملاحقة الخنزير البري الذي سلطته ديانا على أهل

كاليدون.. إلا أنهم نفضوا أيديهم ليخلوا بين آتلانتا وبين شبابهم اليوافع، وأمرائهم الأحداث، الذين لا يعقل أن تسبقهم فتاة، هي مهما أوتيت من الرشاقة والخفة، أقل منهم صبراً على عناء الجري، ولا سيما إذا كان جرياً طويلاً شاقاً.. وهم لهذا جعلوا السباق عشرين دورة حول ملعب أركاديا الكبير.. زاعمين أن كثرة عدد الدورات تعجز آتلانتا ولا تعجز فتيانهم الذين برعوا في الجري، ومارسوه في مختلف ميادينهم الرياضية.. وازدحم الناس في صبيحة اليوم الأول، ليشهدوا سباقاً عجيباً بين الموت والحياة.. بين الأمل.. وبين اليأس.. بين الطامعين في السعادة.. وبين الفتاة التي أفلتت السعادة من كلتا يديها.. بين الذين يريدون أن يعيشوا.. وبين المسكينة التي كانت حياتها كلها مأساة رغبت بعد موت ملياجر في التخلص منها.

ونظرت آتلانتا إلى هذا الشاب الغرانق الذي وقف إلى جانبها يتأملها وينتظر إشارة الحكم ليطوي من تحته الأرض، ويمني النفس بالآمال إذا هو فاز بقصب السبق.. وكانت آتلانتا لم تخلع عنها هذا البرنس الفضفاض من المخمل الخالي.. فلما مضت لحظة دون أن تخلعه هتف بها والدها الملك ينبهها إلى خلعه، فاستدارت الفتاة تشد نفسها، وترفع فوق أخمصيها ثم خلعت البرنس فكشفت عن هذا الجسم القسيم الوسيق الممشوق، ابن الغابة وربيب الطبيعة المفتان.. فكادت تخلع قلوب الناس خلعاً. وتشد نواظرهم شداً، وتذهلهم عن أنفسهم بهذه الساق الممكورة، والعاج الناعم اللدن، الذائب فيما فوق الساقين، وملء النهدين والذراعين، وحول العنق، وهذه اللفتات الخلابة التي تنفث السحر، وتقطع أنفاس الناظرين من البهر، ثم هذه الابتسامة الساحرة التي تكتب الآجال فتزيد فيها وتنقص ما تشاء...

ثم أعطى الحكم إشارة البدء فانطلق الشاب كما ينطلق السهم عن سية القوس.. أما آتلانتا فقد عادت ثانية ترفع جسمها العجيب فوق أخمصيها، وتملأ رئتيها بهذه النسمات الباكية التي أخذت تهب على ذاكرتها من طيف ملياجر.. السابح في العالم الثاني.. ثم أخذت تعدو في خطوات متزنة سريعة متتابعة، لا تزيد أولاها عن أخراها أنملة، فلم تمض لحظات حتى أتمت الدورة الأولى حول الملعب.. ثم لم يمض وقت طويل حتى أتمت الدورة العاشرة.. تاركة الفتى عند الدورة الرابعة، بل عند أجله المحتوم.. ثم أخذت تزيد في سرعة خطوها ومسافته، فبهرت الناس بهذه اللمسات السريعة التي كانت الأرض تقبل بها طرفي أخمصيها.. ثم أتمت دورتها الثامنة عشرة، وكان الفتى لم يتم دورته السابعة.. ثم

انتهى السباق.. ولم يصفق أحد.. لقد جمد الدم في عروق الناس أجمعين..

وتقدم الفتى إلى الجلاد.. وعلق الرأس الكريم في أعلى البرج الشاهق..

ووقفت آتلانتا تنتظر صيدها الثاني وكان هذه المرة عملاقاً جباراً طويل الساقين، أسمر البشرة كأنه جني فار من الجحيم.. ووقف يحدج آتلانتا بنظرات ثاقبة صارمة.. ويسلقها بلسان سليط سفيه.. عسى أن ينهنه من كبريائها فتتخاذل، ويفت سبابه البذيء في عضدها فلا تسبقه.. ولكن.. هيهات!

لقد نظر الناس حولهم بعد لحظات فوجدوا العملاق الأسمر يتعثر في خطوه، وهو مع ذاك كان موشكاً أن يدك الأرض فيخرقها خرقاً.. لقد أكملت اتلانتا دورتها العاشرة، ولما يكمل العملاق دورته السابعة.. وأرادت آتلانتا أن تثار لنفسها منه.. فوقفت، ولم تجر، حتى إذا حاذاها العملاق راحت تجري معه، وفي مدى سرعته، ثم أخذت تكلمه، قائلة له: لقد رأيت أن أصفح عنك، وأغفر لك بذاءك، وسأبطىء حتى تتم دوراتك العشر، وبعدها.. نجري معاً.. حتى إذا كانت الدورة الأخيرة.. تسابقنا، فما رأيك؟.. ولكن العملاق مضى ولم يعقب.. فغيظت آتلانتا.. وراحت تطوي الملعب في خطوات تسبق الوهم، وتتركه متعثراً حيراناً.

وأتمت آتلانتا دوراتها العشرين.. تاركة العملاق في دورته الثانية عشرة..

وتلفت الناس حولهم.. فرأوا رأس العملاق يأخذ مكانه جانب الرأس الأول.. وهو يكاد يبتسم بالرغم من أنه كان مكشراً عن أنيابه!

* * *

ولقي المستبق الثالث المصير نفسه.. ثم مضت من أيام السباق أربعة أيام كانت المنايا تذهب فيها جميعاً بأرواح الشباب الذين تنقم عليهم آتلانتا، وفي اليوم الخامس، جلس للحكم شاب مشرق الجبين عميق العينين حلو اللفتات، لم تكد آتلانتا تلمحه حتى اعتراها ذهول وتملكتها حيرة لأنه أيقظ في نفسها الماضي القريب كله، وأيقظه فجأة، وعلى غير انتظار.

لقد كان الناس يدعونه هيبومينس، وكان قليل منهم يدعونه ميلاينون، ولم يكن أحد يدعوه ملياجر، فلماذا؟

لقد كان صورة ناطقة من ملياجر الحبيب، فيا ترى؟ هل كان هو؟ وكيف لا يكون هو، وهو نفسه هذا الفتى الذي عز جماله عن أن يكون شيئاً إلا رجولة

كاملة، وجراءة باسلة، وإقداماً في المواقف التي يـذعر فيهـا الموت نفسـه من الاقدام. . الشاب ذو الجسم السوي، والخلق الرضي، والنفس الحلوة التي ترق كالسلاف، ثم تعبس في مواقف الروع وتكون كالعواصف الراجفة. . إنه ولا شك ملياجر بعينه. . ولكنه. . إن كان هو ملياجر. . فمن أين جاء؟ ولماذا كان قد مات إذن. . ألعله قد ردت إليه روحه بعد إذ غادرته آتلانتا، مسجى بين يدي الموت، في ذراعي أمه؟

اتلانتا

في غرام جديد

(٣)

ولكن.. كيف يكون هو ملياجر.. ثم يرى آتلانتا.. ولا يهرع إليها فيجعلها بين ذراعيه من شدة الشوق؟ كيف يجلس في مكانه من مقعد الحكم جامداً ساهماً هكذا.. أليس هذا وحده أكبر دليل على أنه ليس ملياجر؟ فإذا لم يكن هو ملياجر، فلمن هاتان العينان وهذا الجبين وذلك الأنف.. وتلك الملابس التي هي ملابس ملياجر وزيه؟

كيف يكون هذا؟ ولماذا لم أره إلا اليوم؟ لماذا لم أره منذ يوم السباق الأول؟ وكيف أشك في أنه ملياجر وأنا أتبين الناس على مسيرة ثلاثة أيام؟ وما رمدت عيناي قط؟ إنه هو.. إنه هو.. ولشد ما أتمنى أن يدرج اسمه في ثبت المتسابقين ولشد ما يسرني أن أنهزم له»

وهكذا راحت آتلانتا تحدث نفسها، وهكذا راحت تحدق في هذا الفتى هيبومينس، كما يدعوه معظم الناس.. أو ميلانيون.. كما يدعوه آخرون.. أو ملياجر.. كما تصر آتلانتا أن يكون.

أما هيبومينس.. فلم يكن يرى في هذه الفتاة المتوحشة ما يراه الناس فيها من هذا الجمال الذي سباهم وخلب ألبابهم.. حتى رآها تتجرد من برنسها.. عند ذلك آمن أنه لا يدب فوق صفحة الأرض مخلوق هو أجمل منها.. لقد كانت في نظره عندئذ صورة أولمبية من ربة الحب والجمال: فينوس! فينوس التي يصلي لها كل صباح وكل مساء.. عندما يتنفس الفجر الوردي، وعندما ينسكب نضار الأصيل على قمم الجبال البيض الملتفعة بالثلج، وسندس الأودية والسهول ومروج القمح والكلأ.. والموشاة برياحين الربيع، ومفاتن الطبيعة الخالدة التي لا تموت..

فينوس الجميلة الساحرة الحلوة.. التي قبلت تلك الفتاة حينما ولدت، فأودعتها كل هذا الجمال، وطبعتها على نسقها لتكون فتنة الفتن، وبهجة المباهج، وجعلتها ربيعاً كاملاً من الحياة الحارة المتدفقة، تشيع في كل قلب، وتدب في كل روح، وتلهب مشاعر الناس لتلهمهم حقيقة هذا الجمال الحق.. مصدر الخير في الوجود.. ونفحة السماء في الموجودات!

لقد ذهل هيبومينس عن نفسه عندما رأى آتلانتا.. وأحس لساعته كأنه يحلم.. وكأنه عاد إلى قبل أن يخلق العالم.. حينما لم يكن في الوجود غير الخلاق الأول.. وغيره هو... وغير اتلانتا؟ فجعله كله في هذه الفتاة العاتيه التي جاءت اليوم لتقتل شباب هيلاس في غير رحمة وتستبد بهم في غير عطف، وتشيح عنهم في كبر وعتو وخيلاء..

ترى! أين رأيتها؟ أفي الأولمب الذي لم يدخله أنسي قط؟ أفي السماء ولم يعرج فيها غير الآلهة؟ أفي عالم غير هذا العالم. وأنا ــ من لدن ولدتني أمي ــ لم أبرح هذه الدنيا قط؟.. أين رأيتها قبل اليوم؟.. أفي عالم الخيال الذي كانت تزخرفه لي ربتي المحبوبة فينوس؟.. لقد كنت أجمع لها زهرات الزنبق، والآس والنسرين فأجعل منها باقة كبيرة ذات عبق.. ثم أذهب إلى معبدها الكبير في بكرة الصبح، فاقف أمام المذبح المقدس لأضع عليه قرباني.. فأرى الزهرات تهتز ثم تتفرج ثم يبرز منها وجه جميل نوراني أصبح.. هو ولا شك وجه ربة الحب التي كانت تجزيني بابتسامة.. ثم تختفي.. فلماذا أرى الوجه نفسه لهذه الفتاةالتي جاءت لتجرعنا الموت، ولم تأت لتكون لنفوسنا بهجة، ولأرواحنا متعة، ولقلوبنا برداً وسلاماً!

ثم إلى متى أراها كل يوم تسابق آجال هؤلاء الفتيان، وقد يسبقها أحدهم فتكون له، وأرث أنا الحسرة والندامة على اني لم أسابقها؟ وإذا كانت قد فوجئت بحبي لها على هذه الصورة فكيف اسمح لغيري بمسابقتها، وأجلس أنا لأحكم.. وقد اقضي بها لفتى سواي؟

فإذا سبقتني؟... يا للويل!.. أنا لا أرهب الموت.. لكني أمقت ألا أعيش معها في عالم واحد.. وإن تركت هذا العالم لأخلد في جنات اليزيوم، مع الحور والعرائس!

فما العمل إذن؟.. آه.. ووقف هيبومينس فاقترح تأجيل السباق إلى غد، حتى تستريح آتلانتا وتستجم، لأنها سابقت في الأيام الأربعة الماضية اثني عشر شاباً.. وليس هذا في طوق بشر. وأسرع إليه بعض الموتورين يقبحون رأيه،

ويسفهونه، قائلين إن الملك اياسيوس نفسه، وابنته آتلانتا نفسها، لم يشترطا هذا الشرط.. وفي إراحتها اليوم من مواصلة السباق إعادة لما أنفقت في الأيام السابقة من جهد.. ومعنى هذا أنها ستمضي في إحراز السبق وفي الفتك بشباب هيلاس.

وتبسم هيبومينوس، ثم قال: إنها ستكون سبة الدهر، وخزي الأبد، أن تجتمع أمة على فتاة، فلا تسمح لها حتى براحة يوم واحد، في سباق طويل شاق كهذا.. على أنه يعد أن يكون هو في صبيحة اليوم التالي أول من يسابق آتلانتا.. ليكون دمه، إذا فشل، ثمن هذا الاقتراح الذي يتقدم اليوم به..

وخاطب هيبومينوس آتلانتا يأخذ رأيها.. وما كاد صوته يصافح سمعها، حتى تضاعف ذهولها واشتدت حيرتها.. لأنها سمعت من فمه صوت ملياجر، وعرفت فيه جرسه ونغمته.. فلم يعد يخامرها شك في أنه هو.. هو بنفسه.. ملياجر الغائب الحبيب!

وارتبكت الفتاة حينما أعاد عليها هيبو ما قاله لها.. ثم أسرعت وهي لا تعرف ماذا تقول... فأرسلت كلاماً متلعثماً.. معناه.. أنها لا ترى بأساً في التأجيل.. ما دام القاضي هو مقترحه وإن كانت على تمام الأهبة لأن تستبق الآن.. إذ ليس بها تعب أو كلال. وليس بها حاجة إلى راحة واستجمام..

ودوت الجماهير تؤيد تأجيل السباق.. فأعلن هيبومينوس فض الحفل، على أن يكون اللقاء في بكرة الغد.. وعلى أن يكون هو أول المتسابقين..

* * *

ولم يكد الملعب يخلو من المتفرجين حتى انطلق هيبومينس إلى الغابة القريبة يجمع منها باقة كبيرة من أينع الورود وأبدع الرياحين ثم يمم شطر فينوس.. فلم يكد يبلغه حتى فغمته رائحة البنفسج فعرف أن الربة في حديقة الهيكل، وأنها قريبة منه.. فرفع يديه بباقة الأزهار محيياً.. ومصلياً.. فاهتزت أزاهير الحديقة، وانثنت ترد التحية، ثم انشقت عن طيف فينوس، فاهتزت الأرض وتعطر الهواء، وسجد هيبومينس.. وظل ساجداً حتى أمرته ربة الحب فاستوى من مسجده.. وأذنت له بالكلام.. فقال.. وهي تجيبه:

ــ جئت التمس المعونة من ربة لا ترد رجية لعاشق.

ــ أعرف...

ــ تعرفين؟!

ــ أجل.. ولقد مهدت لك السبيل إلى قلبها المغلق، فصورتك لها في صورة فتى آخر!

ـ لست أفهم يا درة الأولمب!
ـ لقد كانت تعشق فتى من كاليدون.. اسمه ملياجر.. ألا تذكره؟
ـ أجل، أعرف هذا.. فهل صورتني لها في صورة ملياجر إذن؟
ـ أجل.. وهي الآن توشك أن تجن بك غراماً.. على انك ينبغي أن تحتفظ لنفسك بهذا السر
ـ والسباق يا ربة.. السباق!
ـ آه.. لقد وعدتها إذن أن تسابقها!
ـ غداً.. غداً صباحاً!
ـ لكنها سوف تسبقك!
ـ لهذا سعيت إلى هنا ألتمس المعونة
ـ لا عليك إذن! تستطيع أن تنتظر هنا.. لحظة!
ـ أتتركينني؟
ـ لن أغيب طويلاً.. أليست قبرس قريبة من هنا؟
ـ قريبة؟ إنها على مسيرة أيام ثلاثة لاسرع السفن.. إذا واتتها الريح
ـ لكنها تكون قريبة جداً على الآلهة
ـ ولكن..
ـ ولكن ماذا؟.. إنك تسأل كثيراً؟
ـ لماذا تذهبين إلى قبرس يا ربة الحب؟
ـ لآتيك بما ينصرك على آتلانتا! فانتظر.. ولا تبرح مكانك هذا

وكان لفينوس في جزيرة قبرس جنة حالية دانية القطوف. فيها شجيرات تفاح أوراقها صفر، وأغصانها صفر، وتفاحها من ذهب.. لا يشبهه تفاح جنات الهسبريد.. بل برري التفاحة الواحدة منه بكل تفاح الهسبريد الذهبي.. فقطفت منه فينوس ثلاث تفاحات حسان، ثم عادت إلى ميعادها مع هيبومينس.. فعجب الفتى، وسجد بين يدي ربة الحب.. لأنه لم يكن يصدق أن تذهب فينوس إلى تلك الجزيرة النائية ثم تؤوب منها قبل أن يجمع هو باقة واحدة صغيرة من ورود حديقة المعبد. ليحييها بها عندما تعود...

ـ قف.. قف..
ـ تعاليت يا ربة.. وتباركت!
ـ أرأيت؟ بهذه التفاحات الثلاث، تنصرك فينوس على آتلانتا..
ـ وكيف يا ربة؟

ـ سأخبرك: تبذل جهدك في أول الشوط حتى لا تسبقك، فإذا سبقتك، رميت أمامها، في خط منحرف عن دائرة السباق، بإحدى هذه التفاحات الثلاث.. وسأجعل أنا للتفاحة رنيناً يخلب لب الزاهد ويثير في نفس آتلانتا شرهاً شديداً إلى اقتنائها فتخرج عن دائرة السباق لالتقاطها، والاحتفاظ بها، وتكون أنت قد سبقتها بمسافة طيبة.. وستبذل هي جهداً جباراً لتلحق بك، ولتسبقك بعد ذلك.. فإذا لحقت بك، فاقذف أمامها بالتفاحة الثانية، في خط منحرف كما فعلت في المرة السابقة.. واجتهد أن تبعد التفاحة عن دائرة السباق بعداً كبيراً.. ولا تخشَ أن تتركها آتلانتا.. فلسوف أثير في نفسها كل غرائز الطمع، فتدفعها إلى اقتنائها دفعاً.. لكنها ستلحق بك فاجتهد ألا تفوتك بمسافة كبيرة.. فإذا فعلت فاقذف أمامها، وفي خط منحرف أيضاً، بالتفاحة الثالثة.. وسوف تتردد آتلانتا هذه المرة في الخروج عن دائرة السباق.. لكنني سوف أغريها كما أغريتها في المرتين السابقتين.. وسوف تنحرف نحو التفاحة لالتقاطها.. وسوف احتال أنا فاسقط التفاحة من يدها مرة أو مرتين.. حتى تكون أنت قد أوشكت أن تبلغ الهدف، وتدرك نهاية الشوط.. هذا ولسوف أعد لك شراباً يبعث فيك القوة، ويذهب عنك التعب، فلا تشعر بشيء من الخور وأنت تسابق هذه الفتاة الوحشية ابنة الغابة.. وربيبة الدبة..

ـ ربيبة الدبة؟...

ـ أوه لا تسل عن هذا الآن بل هي ابنة الملك اياسيوس.. من زوجته ملكة أركاديا

ـ ربيبة الد...!

ـ قلت لك لا تسل عن شيء من ذاك.. فلهذا قصة سوف تسمعها من فم آتلانتا فيما بعد والآن... فهلم معي داخل المعبد.. لأعد لك الشراب الموعود...

ودخلا المعبد...

وقبلته فينوس قبلة أولمبية ألهبت بها جبينه.. ثم عمدت إلى خزانة أقداسها ففتحتها وأخرجت منها طائفة من أحقاق الدهن وزجاجات الطيوب، وشيئاً من شراب الآلهة، فمزجت من هذا كله في كأس، ثم ملأت منه زجاجة وجعلت عليها قداماً من خشب الورد، ودفعت بها إلى هيبومينس وهي تقول:

«إليك إذن هذا الشراب المقدس الذي لم يذقه من يدي قبلك غير مارس، وغير أدونيس.. فإذا كان وقت الشروق فاشرب الزجاجة كلها.. واذكرني.. أذكرك»

وشكر لها هيبومينس.. ثم سجد.. ثم استأذن في الانصراف فأذنت له، وانطلق إلى داره وفي قلبه ثورة من الشوق إلى لقاء آتلانتا في صبيحة اليوم التالي... ولهذا لم ينم ليلته تلك إلا لماماً.. وكانت اللحظات الخاطفة التي زار الكرى أجفانه فيها.. أحلاماً.. بعضها سعيد، وبعضها مزعج.. فلقد رأى في جملة هذه الأحلام أنه يقتطف زهرة كبيرة بيضاء، زكية الشذى.. لكنه لا يكاد يمسكها بكلتا يديه حتى ينتزعها منه أقرب الأقربين إليه، فيلقي بها فوق الثرى... فتنقلب فراشة كبيرة داكنة اللون.. لها فم كبير مخيف.. بادي النواجذ.. ويخيل إليه أنه ينقلب هو الآخر فيكون فراشاً كبيراً، أدكن اللون، ثم تمسك به، وبالفراشة، يد قوية كأنها يد سيكلوب، فتربطهما إلى عربة ذهبية، فيجرانها في الهواء...

أضغاث أحلام!.. وكيف يكون هذا وأنا في رعاية فينوس؟

وانبلج نور الصبح فهب الفتى من مرقده، وأخذ يستعد للنضال المرير الذي ينتظره، ثم تناول الزجاجة عندما أشرقت الشمس، وأفرغ ما فيها في جوفه، دفعة واحدة، فأحس أنه يكاد يثب فيكون مع الآلهة في ذروة الأولمب. ثم ادّهن بشيء من زيت الزيتون وبعض الطيوب.. وانطلق فكان في الملعب.. حيث وجد الجموع الحاشدة في انتظاره، وقد وقفت اتلانتا ببرنسها المخملي، تنظر في المنتظرين، وقد جعلت تقلب عينيها في الجماهير المحتشدة حول الملعب الكبير.. كالذي ينتظر حبيباً مرتقباً يكاد يخلف ميعاده! فلما رآها هيبومينس، إرتجف وتخاذل، وسرت في جسمه رعدة شديدة.. لكنها حيته بابتسامة رقيقة، فذهب عنه الروع، وزايله الفزع وتقدم فمد إليها يده مسلمًا.. فكان أول متسابق فعل ذلك، ولهذا صفقت الجماهير تصفيقاً شديداً متواصلاً..

ولم يدر الفتى وهو يقبض على أصابع الفتاة ماذا يقول لصاحبة هذه الأنامل التي يوشك الجمال أن ينهل منها قطرات تملأ الدنيا سعادة، وتملأ أركانها بشراً؟ لكن آتلانتا.. التي كانت تضمر للفتى أضعاف ما كان يضمر لها من الشوق... والحب.. لم ترتبك مثله.. بل انتهزت فرصة انشغال الجماهير بالتصفيق، فهمست تقول:

ــ اصدقني بحق الأولمب.. ما اسمك؟

ــ اسمي؟

ــ أجل...

ــ أنا... هيبومينس.. لكني الآن..

ـ الآن ماذا؟

ـ ملياجر . .

ـ ملياجر؟ وكيف حدث هذا؟

ـ هذا سر السماء . . وعسى أن نعرفه قريباً . .

وانقطعت الضجة فجأة . . فصمت الفتى والفتاة . . وصاح الحكم الجديد، فأخذ كل منهما مكانه في ذروة السباق، بعد أن خلعت اتلانتا برنسها، وبدت للفتى من قريب في جميع مفاتنها، فعادت ركبتاه تصطكان وترجفان، وأخذ قلبه يجب ويخفق . . ولكن الحكم أعطى إشارة البدء، فانطلق الفتى والفتاة يطويان الأرض وينهبانها نهباً . . .

وكانت اتلانتا لا تفتأ تولي وجهها نحو الفتى فتعجب لسرعة جريه، وخفة حركته، ونظام خطواته . . لكن هذا لم يحزنها . . لأنها كانت في سريرتها تود لو أنه يسبقها، فلقد كانت تكره الحياة من أجل ملياجر، ولأنه في عالم آخر غير هذا العالم . . . ماذا يبطرها اليوم، وها هو ذا ملياجر يعدو إلى جانبها . . ويعدو في سبيل الحصول عليها؟ . . أليس من السخف أن تسبقه إذن؟

لكن اباها يملأ الدنيا صياحاً، وأهله من حوله يهتفون بها أن تسرع لتسبق خصمها . . والأركاديين جميعاً يحمسونها ويرددون اسمها في جوانب الملعب . . . فتسبق هيبومينس، الذي كان قد استمرأ عطف الفتاة، فاتم معها الدورة العاشرة.

ولا يكاد الفتى يحس أنها سوف تسبقه، حتى يتناول من ثنايا قميصه إحدى التفاحات الذهبية الثلاث، ثم يقذف بها أمام آتلانتا، في خط منحرف، كما أوصته فينوس!

ويخطف بريق الذهب بصر الفتاة، ولثقتها التي لا حد لها بانها سوف تسبقه، لا تبالي أن تخرج عن دائرة السباق لتلتقط التفاحة . . ولكن . . ما بال التفاحة الذهبية الملونة تثب أمامها وكأنها تريد الفرار من يديها آه . . وراءها فينوس . . ولا شك في ذلك!

ويكون هيبو قد كسب بهذه الحركة نصف دورة . . ولكن آتلانتا تدركه في نصف الدورة التالية . . وتوشك أن تسبقه . . لولا أن هيبو يخرج من ثنايا قميصه التفاحة الثانية ثم يقذف بها في خط منحرف، بل شديد الانحراف، أمام آتلانتا . . .

وتقع التفاحة فترن في الهواء رنيناً عجيباً، يلفت إليه القلوب قبل الأسماع . .

وتنظر آتلانتا. . . فتخلبها هذه التفاحة المنقوشة ذات التهاويل، فلا تملك إلا أن تقف لتحدق فيها ببصرها، ثم لتنحني وتمد يدها فتتناولها، ثم تتأمل فيها. . ويكون هيبو قد سبقها بنصف دورة أخرى. . ويصيح الملك اياسيوس بابنته قلقاً مفزعاً. . فتتنبه آتلانتا. . وتندفع في دائرة السباق لتدرك الفتى. . وتبذل كل ما في طوقها حتى تكون واياه على افق خطوة واحدة. .

ويشتد هيبو في الجري. . وتشتد آتلانتا كذلك. . .

وتبتسم آتلانتا. . وتعجب لأمرها في مسابقة هذا الحبيب الذي عاد إليها من العالم الأخروي يحمل من فاكهتها هذه التحف النادرة، التي لا توجد إلا في حدائق الآلهة. . لماذا تريد أن تشأوه؟. . . لماذا تبذل كل ذلك الجهد لتقضي بيدها على جميع آمالها؟. . .

لكنها. . تجري. . ثم تجري. . فتسبق هيبومينس. .

ويشتد هيبو هو الآخر. . فيدرك آتلانتا. . ولا يدري أنها هي التي تباطأت، عسى أن تبلغ معه الهدف في وقت واحد. . فلا تكون له. . ولا يقطع رأسه. . . لأن هذه الحال لم ترد في شروط الاستباق. . .

ويملأ الغرور والزهو هيبومينس. . فيظن أنه سوف يسبق، ويشيع في نفسه الطمع، فيحاول الاحتفاظ بالتفاحة الأخيرة لنفسه. .

لم تبق إلا الدورة الأخيرة. . وها هو الملك اياسيوس. . وها هو الشعب الاركادي بأسره. . يهتفون بآتلانتا. . وينبهونها إلى حرج الموقف. . ثم يحمسونها بكل ما أوتوا من طلاقة جنان وذلاقة لسان. . . فإذا أوشكت أن تسبق هيبو. . وأحس هذا أنه لم يعد في طوقه أن يلاحقها. . تناول التفاحة الثالثة. . ثم قذف بها كما فعل في المرة السابقة. . .

وضحكت آتلانتا. . واستحوذ على نفسها الطمع. . ولثقتها بنفسها، وبأنها سوف تسبق لا محالة. . . لم تبالِ أن تخرج كما خرجت من قبل، لتلتقط التفاحة. . فلما فعلت كان هيبو قد قطع نصف الدورة. . وهنا. . تطلعت آتلانتا. . ثم أودعت ساقيها كل فنها وعبقريتها في الجري. . .

وأوشكت أن تدرك خصمها. . إلا أنها ذكرت أنه. . ملياجر. . ملياجر الحبيب. . فأرادت أن تبلغ معه نهاية الشوط في لحظة واحدة. . ولم يكن قد بقي إلا خطوات ثلاث فخطت معه أولاها. . ثم خطت معه ثانيتها، أو كادت. . إلا

أن هيبو استجمع كل ما بقي في طوقه من قوة.. ووثب الخطوة الأخيرة إلى نهاية الشوط.. قبل أن تتم آتلانتا خطوتها الثانية..

وفاز هيبومينس.. لكنه بدلاً من أن يزهى بفوزه، ويدل على آتلانتا.. راح يرمي نفسه على قدميها.. ويقبلها.. ويسكب دموعه على التراب السعيد الذي تقف فوقه...

وكان هذا منظراً أذهل الناس.. وألجمهم.. فلم يصفق أحد.. ولم يتشف منهم مخلوق.. بل أخذوا يتساءلون عن سر ذلك كله.. وعن علة تراخي آتلانتا في السباق.. وهذه التفاحات العجيبة التي كانت تفضل التقاطها، وإن تسبب عملها ذاك في خيبتها...

وذهل والد آتلانتا.. ودب القنوط في نفوس أسرته، وأحس الأركاديون بمرارة الخيبة، فنفضوا رؤوسهم.. لولا أن رأوا آتلانتا نفسها تهش لخصمها، وتبتسم، وتملأ به ذراعيها، ثم تقبله في جبينه الذي يتصبب عرقاً.. وهي تقول في صوت واضح مسموع:

مرحباً بك زوجاً كريماً وأخاً حميًا.. هلمَّ أقدمك إلى أبي...

وتقدمت به إلى أبيها.. فنهض اياسيوس ليعانق صهره الذي لا يعرفه، وليهبه يد ابنته التي هي أعز ما يملك...

وعندما أعلنت الخطبة للشعب انبعثت الحناجر بصيحات التهنئة وتدفقت أمواجه نحو الشرفة الملكية تحيي وتدوي.

ونسي ملك أركاديا في وسط هذه الفرحة ما أنذر به أبوللو..

ونسيته اتلانتا كذلك.. أو هان عليها كل شيء في نشوة سعادتها بلقاء ملياجر.. فلم تلقِ بالاً إلا لهذه اللحظة التي هي فيها.

أما هيبو.. فلا يدري لماذا أصبح خائفاً يتوجس من فينوس؟.. إنـه لم يستطع تفسير كل هذا العطف الذي حبته به ربة الحب، ولا تأويل تلك القبلة الحارة التي طبعتها على جبينه في عتمة المعبد؟ لقد كان يذكر ما كان من أمرها مع أدونيس، وانخيسير وغيرهما من أمثاله من بني الموتى، ويتعجب، هل كانت تحبه كما احبتها؟ ولكن كيف يكون ذلك وهي قد أمدته بكل هذه الخـوارق، ليكسب آتلانتا.. لا... ليس هذا هو السبب.. ولكن.. كيف يدري هيبومينس؟.. أما الذي يدريه، ولا يشك مطلقاً فيه فهو أن اليد التي تقدمها فينوس لا تنتهي أبداً

بخير.. ولم تتصل فينوس بأحد قط إلا أهلكته.. وقد هلك لياندر، وهلكت حبيبته هيرو، وهلك أدونيس وانخيسيز.. وهلك جميع المحبين الذين تدخلت في حبهم فينوس.. حتى الآلهة أنفسهم.. لقد أوشكت أن تفسدها بتدخلها السخيف دولة الأولمب.. بل هي قد أفسدتها بالفعل.. بل هي قد خانت زوجها فلكان، حينما صبأت إلى أخيه مارس.. وإنها شر في شر، ونكد متصل في نكد متصل.. وأول ما يجب أن يحذره اليوم وهو أن تتلف عليه حبه، وإن عاونته هي على إدراك وطره، من ذلك الحب.. ولهذا وقف فوق منصة الزفاف إلى جانب عروسه خائفاً يتوجس، وعندما بدأت مراسم الزواج الدينية تعمّد ألا يصلي لفينوس.. بل همس في اذن آتلانتا ألا تفعل.. ونسي المسكين أن فينوس كانت حاضرة.. وأنها كانت تنتظر أن يبدأ العروسان بالصلاة لها، والتسبيح بحمدها، قبل أن يصليا لأحد من الآلهة.. فلما سمعته يهمس في أذن عروسه بهذا الإثم الكبير، والكفر الأكبر، والإلحاد الذي لا يعدله إلحاد بفضلها في ابرام هذا الزواج، غضبت، وأضمرت في نفسها أمراً...

وانتظرت مع ذاك لتعرف لمن يصلي العروسان.. وقد هالها ألا يبدءا صلاتهما باسم سيبيل أم الإله الأكبر، التي يسمونها رها.. فلم تنتظر لحظة بعد.. بل طارت بألف ألف جناح إلى الأولمب، حيث لقيت أم الإله، فأخبرتها بما حدث... فاستشاطت أم الإله من الغيظ... لا لأن العروسين لم يصليا لها فحسب، بل لأن آتلانتا علمت من أبوللو، رب الشمس وإله الوحي، أن زواجها سيكون فيه حتفها، ثم ترضى أن تتزوج...

وأسرعت أم الإله، وفي صحبتها فينوس، إلى أركاديا.. حيث كانت الجموع لا تزال تتزاحم بالمناكب في المعبد، ومن حوله، وحيث كان جمهور منهم في هرج وفي مرج، بسبب ظهور دبة بيضاء لا تضر أحداً، لكنها تحاول أن تشق طريقها إلى المعبد المقدس، فكانوا يمنعونها، ويقفون في سبيلها.. فلما وصلت سيبيل، وفي صحبتها فينوس ضحكت أم الإله، وعرفت من أمر الدبة ما خفي على الناس.. لكنها دخلت المعبد ثم رفت فوق المذبح، بحيث يراها العروسان.. ولا يراها أحد من الناس.

وصاحت أم الإله بصوت جهوري سمعه الموجودون جميعاً، وتردد صداه في أركان اركاديا، بل في جوانب هيلاس كلها:

«آتلانتا يا شقية.. هيبومينس أيها المجنون.. أنتما منذ اليوم سبع ولبؤة.. وأنتما منذ اليوم وحشان تجران عربتي...»

ولم تكد سيبيل تصمت، حتى شق الهواء صراخ الدبة في خارج المعبد، في صوت مذبوح حزين، لم يسع سيبيل عندما سمعته إلا أن تبدو للناس جميعاً . . لتأمرهم أن يخلوا طريق الدبة . . فلما أخلوه تقدمت الدبة المسكينة حتى كانت أمام سيبيل، فسجدت . . ثم أمرتها بالنهوض . . فحدثت المعجزة الكبرى الثانية . . .

لقد اختفت الدبة . . ووقفت مكانها عروس رائعة الحسن، مشرقة الطلعة، لا يصح أن يوجد مثلها إلا في حدائق الأولمب، المعلقة بين السموات وبين الأرض . .

أما المعجزة الأولى . . فاختفاء العروسين . . وهذان السبعان يقفان فوق منصبة العروس أمام المذبح . . وانظار الناس التي تتردد بين العروس التي كانت دبة، والسبعين اللذين كانا عروسين . .

ـ رحماك يا أم الإله . . رحماك . .

ـ لقد رحمناك، وما ظلمناك . .

ـ الشكر لك، والثناء عليك . . إن هذه اللبؤة ابنتي، ردي عليّ آتلانتا أتوسل إليك

ـ إن آتلانتا ليست ابنتك . . ولقد جئت أعلمها وأعلم زوجها كيف يحترمان الآلهة، ويخضعان لها ويخبتان . . لقد أنفا أن يبدءا صلاتهما باسمي . . ثم أمرها ألا تصلي لفينوس فلم تصلِ . . فلم يكن جزاؤهما عندي إلا ما ترين!

ـ استحلفك بابنك زيوس . . ورب الأرباب . . أن تسدي إليّ هذا الجميل أيضاً . . يا ربة النعم!

ـ وأمها ملكة أركاديا!

ـ هي لي . . ولها أيضاً . . .

ـ إذن . . فسوف تعود إليك . . . وإليها . . ولكن . . بعد عام كامل . . وهذا قضائي الذي لا مرد له . . .

وعرف الناس أنهم في حضرة الآلهة فسجدوا . . وباركتهم سيبيل وباركتهم فينوس . . ثم رفتا في الهواء . . ونهض الناس . . فلم يروا الربتين . . ولم يروا السبعين . . ولم يروا العروس الدبة . .

لقد ركبت سيبيل عربتها التي يجرها هيبومينس وآتلانتا في صورة سبعين . . . وتبعتها فينوس ربة الحب . . أما الدبة . . أو العروس الدبة، فقد ذهبت إلى غابتها حيث وجدت أم الإله قد أقامت لها قصراً عظيمًا شامخاً . . لم تزل تنتظر فيه حتى

عادت إليها آتلانتا آخر العام في صحبة زوجها، يستأذنانها في السفر معهما إلى بلاد الملك امفيداماس والد هيبومينس.. على أن يتزاوروا بعد ذلك.. فرحبت بهما العروس.. وذهبت في صحبتهما..

ترى؟.. ألا يزالون يتزاورون إلى اليوم؟...

ميداس .. عابد الذهب!

«الى الرجل الذي اتلفت هذه العبادة نفسه، وشوهت روحه، فكرهه أكثر الناس، أهدي هذه الاسطورة التي لم أنشرها من قبل...»

دريني

قبل باخوس، إله الكرم والخمر، ورب الرياض الخضر، دعوة بعض الملوك إلى وليمة ذات لهو وقصف، فذهب إليها في حاشيته العجيبة، وبطانته المؤلفة من بنات الغاب وعرائس النبع، ومن تلك المعز الآدمية التي تحمل أجمل الرؤوس البشرية، تدل بها على ذوات الاربع...

وكانت النسوة المخمورات من عابدات باخوس يتقدمن الركب، ويتواثبن على الكلأ، ويرسلن في الطبيعة النائمة أعذب الألحان، فيوقظن الورد، ويفتحن أعين النرجس، ويشعن النشوة في الارض الهامدة فتربو وتهتز.. وتكاد تمشي في ركب باخوس.

وأقيمت الوليمة في حديقة القصر، واستوى إله الكرم على عرش ممرد من ذهب، فكان الشجر السعيد ينظر إليه بأعين الزهر فتهتز أغصانه، وتنبعث من أعماقها موسيقى تملأ الأرض والسموات.

وكان الملك، صاحب الوليمة، جواداً كريماً، لم يألُ جهداً في تقديم أفخر أنواع الخمر، لرب الخمر، إلا أن باخوس كان قد أمر فأحضرت زقاق كبيرة من الخمر الآلهية المقدسة، المتخذة من ماء أولمب، ومن أشعة الشمس الذهبية المصفاة التي باركها أبوللو، لينفح بها كل من شهد تلك الوليمة..

وكان لباخوس أستاذ يدعى سيلينوس، هو الذي ربه وأدبه، وثقفه وهذبه، بأمر سيد الأولمب ، ورب أربابه، زيوس، أبي باخوس..

وسيلينوس هذا هو أحد تلك المعز الآدمية التي تدب على أربع . . وإن كان لها رأس بشري من أذكى الرؤوس، يمتاز بأنف أحمر كبير يثير الضحك، ويبتعث النشوة، ويحدث المرح . . وهم يسمونه وقبيله في الميثولوجيا: السنتور.

وقد شرب سيلينوس من خمر الأولمب الإلهية حتى ثمل وفقد وعيه، وأخذ يتأود ويتخلج، وينطلق هنا ويساقط هناك، مما جعل تلميذه الإله يرثى له، ويمسه بيمينه مسة تعيد إليه رشده، فيستحيي الاستاذ العربيد، وينطلق إلى الغابة القريبة بزق كبير من الخمر المقدسة، أخفاه في ثنايا شعره الكث، ليشربه وحيداً فريداً حيث لا يضايقه أحد، وحيث لا يضيق ذرعاً بما في حفلات الآلهة.

ولم يكد سيلينوس يخلو إلى نفسه حتى تناول الزق، ورفعه إلى فمه، وطفق يتمزز خمره المقدسة . . ثم لم يصبر أن عبّ كل ما فيه.

ولم تكن إلا لحظة حتى لعبت الحميا برأس الاستاذ . . فانطلق يعدو بين الشجر الباسق أياماً طويلة كان بعدها في برية موحشة لم ينج منها إلا بشق النفس، ثم وجد نفسه فجأة تلقاء حديقة غناء، بل جنة فيحاء، ينهض في وسطها قصر مشيد ذو عماد وقباب . .

وكان الإعياء قد بلغ من سيلينوس مبلغاً عظيمًا، فانسرب إلى حديقة القصر، وانبطح تحت دوحة كبيرة سامقة يتفيأ ظلالها . . ولم يكد يفعل حتى أخذته سنة من الكرى، أسلمته إلى سبات عميق، وجعل يرسل في الهواء الراكد شخير أنفه الكبير، فأيقظالبستانيين الذين كانوا يقيلون في تلك الظهيرة اللافحة، وهبوا من مراقدهم فيمموا نحو مصدر الصوت المنكر يحسبونه مكاء بوم أو صفير جني، فإذا هم أمام هذا السنتور العجيب المنبطح على الكلأ يملأ الهواء صدره فينتفح حتى يكون كالطبل، ثم يرسله في زفرة واحدة فيهز أغصان الدوحة التي انطرح تحتها.

ونظر بعضهم إلى بعض، ثم أشار كبيرهم إلى نفر منهم فانطلق نحو مخازن القصر، ثم غاب قليلاً وعاد بحبل طويل غليظ فشدوا به وثاق السنتور الذي لم يحسّ ما صنعوا به، لِما كان يلعب برأسه من خمار ودوار. ثم جذبوا الحبل فاستيقظ سيلينوس، وأخذ يتثاءب ويتمطى، ويشد هذا الرجل ويمط ذاك العنق، حتى اذا أفاق، راح ينظر إلى الرجال ويتفرس فيهم، ثم نظر إلى الحبال التي شدت بها أرجله وعنقه، وإلى مقودها بأيدي البستانيين، وانطلق يقهقه كالرعد، ويصر كما تصر بوابات الجحيم . . وبحركة يسيرة لم تكلفه عناء أو مشقة، زالت عنه الحبال، وفك عنه وثاقه، وسأل سجانيه والهلع يهزهم هزاً:

ـ من أنتم؟. ... أين أنا؟

ـ نحن . . يا . . مولاي . . .

ثم لم يستطع منهم أحد أن يكمل الاجابة، لان أسنانهم كانت تصطك، وأبدانهم كانت تنتفض، وفرائصهم كانت ترتعد، لما أيقنوا أنهم تلقاء إله كريم، وما وقر في نفوسهم من سوء المغبة، وهَـوَانِ المنقلب، لما أساؤوا إليه بشد وثاقه، والاعتداء عليه في سباته، ثم خروا مغشياً عليهم أجمعين. . .

ولم يمضِ غير قليل حتى هبوا من غشيتهم، لان سيلينوس الكريم بعث في قلوبهم الطمأنينة ببركته الأولمبية. . ولما فزع عنهم، وأفرخ روعهم، أخذ يسألهم، وراحوا يجيبونه:

ـ فمن أنتم إذن أيها الرفاق؟

ـ ألا تخبرنا أولاً من أنت أيها الإله؟

ـ أنا؟ . . أنا سيلينوس . . ألا تعرفون سيلينوس؟

ـ ومن يكون سيلينوس يا مولاي!

ـ مربب باخوس ومهذبه . . ألا تعبدون باخوس؟

ـ تبارك باخوس . . تبارك باخوس!

ثم خروا إلى أذقانهم خاشعين، حتى أذِن لهم سيلينوس فنهضوا، ولم تزل أعينهم معلقة بالارض. . .

ـ إذن فمن أنتم بعد ذاك يا رفاق؟

ـ نحن يا مولاي عمال الملك على هذه الحدائق.

ـ وأي ملك هذا الذي تعملون له؟

ـ الملك ميداس . .

ـ ميداس؟

ـ أجل . . ملك ليديا!

ـ آه . . هذا الرجل المشغوف بالذهب!

ـ وهل . . يكره الذهب أحد يا مولاي؟

ـ الذهب.. إنه أصل بلاياكم أيها الناس، انطلقوا بي إليه، انطلقوا بي إليه..

ومشوا بين يديه إلى ملكهم الذي كان يسجد في تلك اللحظة بين يدي تمثال صغير نحيل من الذهب.. فما شدهه إلا أن تقطع عليه صلاته، وتفسد تأملاته، قهقهة مدوية تأتي من ورائه، فيتردد صداها في البهو الكبير، حتى لتهتز السجف، وتصاعد معها القلوب إلى الحناجر...

ـ من؟... من؟...

ـ اطمئن أولاً أيها الملك.. وليفرخ روعك!

ـ سيلينوس الكريم!.. سيدي وابن سيدي!... مرحباً مرحباً.

ثم ما راع العمال إلا أن يروا ملكهم يسجد بين يدي السنتور، فلا يسعهم إلا أن يسجدوا مثله.

ويأذن لهم سيلينوس فينهضون جميعاً..

ـ تفضل يا مولاي.. تفضل.. افتحوا غرفة العرش يا رفاق.

وتُفتح غرفة العرش.. ويتقدم الملك إلى السنتور يستأذنه في التفضل بالاستواء على اريكة الملك من دونه.. فيأبى سيلينوس، ثم يشير بالجلوس على الارائك المبثوثة في الغرفة الهائلة، فلا يجلس الملك حتى يستوي السنتور على واحدة منها.

ويسر ميداس في إذن واحد من الخدم فيأمره باعداد المائدة، ثم يخلو إلى ضيفه الكريم فيوشي له هذا الحديث:

ـ كيف حدث يا مولاي أن شرفت حدائقي؟...

ـ لقد كنا في وليمة؟...

ـ كنتم في وليمة؟... أنتم ومَنْ؟

ـ أنا وباخوس، وحاشية باخوس.

ـ تبارك باخوس.. تبارك رب الخمر والكرم والحدائق..

ـ أو أنت إذن من عباد باخوس؟

ـ من عباده المخلصين يا مولاي..

ـ وفيمَ إذن سجودك بين يدي هذا التمثال الصغير من ذهب؟

ـ لم يكن ذلك الا شفاء لما في النفس من حاجات يا مولاي!

ـ حاجات؟ وأي حاجات يا ميداس؟

ـ الذهب. . الذهب. . يا مولاي. .

ـ وما أنت والذهب؟

ـ أحبه. . أحبه يا مولاي حباً ملَكَ عليّ شغاف قلبي. .

ـ إن كان ذلك كذلك، فعند باخوس سره!

ـ سر الذهب؟

ـ أجل . . سر الذهب. . وسر المال جميعاً!

ـ تبارك باخوس. . وتبارك سيلينوس. . وتبارك الأولمب!

ـ فاتني أن أسألك سؤالاً يا ميداس!

ـ تفضل يا مولاي!

ـ كيف عرفت أنني سيلينوس، هل رأيتني من قبل؟

ـ أجل يا مولاي. . لقد رأيتك. .

ـ ومتى؟ وكيف؟

ـ منذ عامين يا مولاي. . عند جاري ملك ليقيا. . هذا الذي يباهيني دائماً بكثرة ما عنده من الذهب.

ـ وكيف حدث أنك رأيتني هناك، هل كنت مدعواً؟

ـ أجل يا مولاي. . دعاني الخبيث لأشهد بعيني مقدار احتفاء باخوس به، ومبلغ حفاوته هو بباخوس، وبحاشية باخوس. . وأنا لا أشك في أن باخوس هو الذي أغدق عليه هذا الذهب الكثير الجم، الذي لا يعرف مقداره، ولا كيف يصرفه. . . آه يا مولاي لو أني لقيت إلهي السند الأعظم. . آه لو أنني لقيته يا مولاي. .

ـ ولماذا تتوق الى لقياه؟

ـ لـ . . لا شيء. . أريد فقط أن اطمئنه عليك!

ـ أشكرك . . إلا أنني لا أدري سر حبك هذا الشديد للذهب، وقد بلغت من العمر ما بلغت؟

ـ هذا هو سر حبي له يا مولاي

ـ لا أفهم!

ـ ألا يعرف مولاي أن الذهب وحده هو الذي يطيل الأعمار ويمد فيها مداً؟

ـ عجباً ! وكيف؟

ـ وكيف؟.. لنلقَ أولاًمولانا السند الأعظم، رب الكرم، باخوس وأنت تعرف كيف..

ـ الذي أعرفه، وعلمته باخوس، أن الذهب الذي لا يصدأ ، تصدأ به أرواح الناس عادة.. إنه يفتك بنفوسكم من حيث لا تشعرون..

ـ يفتك بنفوسنا؟.. أبداً لم أسمع ذلك قبل أن أسمعه منك أبداً!

ـ إذن.. فهلمّ نلقَ باخوس

ـ وأين هو الآن يا مولاي؟

ـ إنه هناك.. حيث رأيتني معه منذ عامين..

ـ عند ملك ليقيا!

ـ أجل!

ـ وا أسفاه

ـ فيم تتأسف؟

ـ أخشى أن يكون قد أسبغ على خصمي كل بركاته!

ـ إن بركات باخوس لا أول لها ولا آخر، فلا تخف!

ـ إذن فهلمّ...

ـ دون أن نذوق طعاماً؟ أهكذا يلقى الضيف لديك؟

ـ آه!... معذرة يا مولاي.

وجلسوا إلى خوان حافل بالآكال والأشربات.. لكن يد ميداس لم تكن تمتد إلى شيء مما امتلأت به الصحاف إلا لماماً.. لأنه كان مستغرقاً في أحلامه الذهبية بلقاء باخوس..

وكان يجيل فكره فيما عساه أن يطلب من ذاك الإله السخي الكريم

المعطاء.. وكان سيلينوس يعرف ما يضطرب في نفسه من الأماني، وما يداعبها من الآمال، فتعمد أن يبطىء، وأن يمكث على المائدة طويلاً ، ليمتع ناظريه بهذه النفس التي تكاد تنشق جشعاً، وتلك الروح الخبيثة التي أفسدها الطمع..

ـ مالك لا تأكل ولا تشرب ولا تتكلم يا ميداس؟ ألا تحدثنا على طعامك؟

ـ بأي شيء نتحدث وقد اشتد بي الحنين إلى إلهي باخوس يا مولاي؟

ـ الحنين إلى باخوس، او إلى.. ذهب باخوس؟

واضطر ميداس إلى أن يزدرد لقيمات كانت تقف أحياناً في لهاته حتى ليوشك أن يغصّ بها، ثم نهضوا، واستعدوا للرحيل...

وأخذوا يضربون في بطاح ويخوضون في أودية، حتى كانوا أمام ركب باخوس، حيث كان الإله المرح جالساً في عربته الذهبية المطهمة، تجرها هذه المرة صنوف شتى من الوحوش والضواري، وتحدق بها العذارى الباخوسيات يتغنين ويرقصن ويصفقن ويتلاعبن، من أثر ما لعبت الخمر الأولمبية المقدسة برؤوسهن، وأذهبت ألبابهن..

ورأى باخوس أستاذه، فقفز من عربته قفزة كان بها عنده، وفتح ذراعيه فأخذه في حضنه الضعيف المتخاذل، وراح يقبله تقبيل المشوق اللهفان، ويسأله عن سبب استخفائه، ويقص عليه ما شغلهم بسبب ذلك.

ولكن سيلينوس كان لا يجيب.. بل كان يضحك.. ويغرق في الضحك.. فلما سأله باخوس عن ذلك، أشار إلى ميداس قائلاً:

ـ الملك ميداس يا سيدي.. ملك ليديا..

فحيا باخوس الملك، وظل ينظر إلى سيلينوس ، كأنه لا يزال يسائله.. فقال سيلينوس:

ـ لقد أكرم الملك مثواي وجاء بنفسه ليقبض الثمن..

فقال باخوس: وما في ذاك مما يضحك؟ فقال سيلينوس : لا شيء.. إلا أنني أقترح على الإله الكريم اقتراحاً.. فقال الإله: وحق أبي زيوس، سيد الأولمب، إني لا أفهم من كل ذلك يا أستاذي شيئاً! وكيفما كان هذا الأمر، فلك أن تقترح، وعليّ أن ألبي، فلقد فرحنا بعودتك فرحاً شديداً، ولو سألني ميداس هذه الدنيا ثمناً لعودتك لأعطيتها اياه.. لو.. لو أنها.. ملكي!

فقال سيلينوس، وهو لا يزال مغرقاً في الضحك: إذن.. فالملك ميداس

يحب الذهب.. بل يعبده.. لقد شهدته بعيني هاتين مكباً على وجهه أمام تمثال صغير تافه من هذا المعدن الـ... خسيس.. يعبده ويخبت له.. وقد كلمته في ذلك فعرفت أنه لا يعدل بالذهب شيئاً.. لا يعدل به وفاء الناس له، وتفانيهم في محبته.. بل لا يعدل به جمال الزهر في الحديقة، وهديل الطير في الفنن، وابتسام الطفل البريء في المهد، إنه لا يعرف هذه الأحلام الشعرية ما لم تكن ذهباً.. إنها عنده ترهات لا يقدرها الا المجانين، ثم هو مع ذاك يصنع من ذلك كله ذهباً، ويصنع من الذهب أصناماً يعبدها ويعنو لها. إنه يصنع الذهب من أحزان عماله وآلامهم وجوعهم.. وهو يصنعه من عرق الشعب المسكين الذي يهيمن على مصائره، كما يصنعه من مصائبه.. والعجيب انني كلمته في ذلك كله، ثم سألته فيمَ حرصه الشديد ذاك على أن يقتني كل ذاك الذهب، وهو شيخ فانٍ كبير، فذكر لي أن هذا هو سبب حرصه، فالذهب عنده هو وحده الذي يطيل الأعمار، ويبعد عن الأغنياء شبح الموت.. أما كيف ذاك، فعلمه عند ميداس.. وقد سعى إليك يا إله البركات لتعطيه ذهباً، فانظر ماذا ترى!!»

وكانت كلمات سيلينوس تقرع أذني ميداس كما يقرع الثقل حافة الجرس، وكانت نفسه تتلوى منها، ومع ذاك فقد وقف مكانه لا يحير، إلا ما كان يبعثره من عينيه من نظرات جائعة شرهة إلى يدي باخوس، تحلم بما سوف تسبغان عليه مما أسبغت على غيره من العالمين..

أما باخوس، فقد كان بالرغم مما قال أستاذه السنتور لطيفاً رحيماً، فانطلق يداعب ميداس، ويخفف عنه برح ما قال سيلينوس، ثم سأله قائلاً: والآن أيها الملك الذي لا أدري بماذا أكافئه، ولا كيف أجزيه، لأنه عاد إلّي بأستاذي الحبيب، ماذا من كرائم اللهى(*) ترغب في أن يسبغ عليك باخوس؟

وكان ميداس قد أعد في نفسه أطول وأعرض وأضخم جواب على هذا السؤال الذي كان يعرف أن رب البركات يوجهه دائماً إلى معتفي فضله، والطامعين في خيراته، فقال، وإحدى عينيه في عين سيلينوس، وعينه الأخرى في عين باخوس:

ـ لست أطلب عسيراً على يمن مولاي.. لا شيء.. اللهم إلا أن يرتد ذهباً كل ما ألمسه أريد أن أكون في دنيا من الذهب جديرة بأن أدعوك إليها يا أكرم

(*) اللهى: العطايا

أرباب الأولمب، لأفخر بعدها على كل من يجسر على مكاثرتي بأمواله، وما يملك من حطام هذه الحياة!!»

وحدجه باخوس بنظرة دهشة عميقة ، ثم قال:

ــ أكبر ظني أنك لا تعي ما تقول يا ميداس

فجحظت عينا ميداس، وجعلتا تتفرسان في باخوس ثم قال:

ــ لاأعي ما أقول؟ أخشى أن أكون قد طلبت محالاً من أقدر أرباب الأولمب على صنع المعجزات

فقال باخوس: كلا.. لم تطلب محالاً.. لكنك لم تفكر فيما عسى أن تبتلي به لو أعطيت سؤالك يا ميداس!

فأجابه الملك: وماذا عسى أن أبتلي به يا مولاي، ما دمت أملك دنيا من ذهب؟

وعبس باخوس الذي لم يعرف العبوس قط، ثم قال: ألا تطلب شيئاً آخر يا ميداس؟

ــ كلا.. ألم تعد أن تعطيني هذه الدنيا لو سألتها؟

ــ حقاً.. ولكني أفضل أن أعطيك محبة!

ــ محبة !! وماذا اصنع بها؟

ــ تصنع بها الأعاجيب لو تدبرت

ــ كلا، كلا، طلبتي لا أنزل عنها أبداً

ــ إذن.. أعطيك بركة وحكمة، تبرىء الاكمه وتحيي الموتى؟

ــ ولاهذين.. أي أكمه واي موتى!!

ــ فصحة وقوة وتوفيقاً!!

ــ ولاجميع المعاني الطيبة التي في الوجود!

ــ إذن اعطيك قصوراً بلورية في السماء

ــ قصوراً بلورية؟ أبلوراً بذهب يا مولاي؟ وهل صرت عندك غبياً إلى هذا الحد، لا أميز الطيب من الخبيث، ولا الذهب من البلور؟

ـ إذن . . فقد اوتيت سؤلك يا ميداس!

ورقص قلب ميداس من الجذل حينما قال باخوس ذلك، واستأذن في الانصراف فأذن الآله له . . وما كاد يولي ظهره حتى تمتم باخوس مبتسماً: « أيها الشقي . . لك الويل . . لقد جلبت على نفسك الشقاء من حيث تحسب أنه السعادة . . فيا لك من بائس تعس!!»

* * *

ولم يبعد ميداس كثيراً حتى بدا له أن يجرب ما منّ به باخوس عليه من ذلك الخير، فعرج نحو شجرة ليتناول منها فرعاً وليرى إن كان سيتحول الفرع إلى ذهب . . ووجد تحت الشجرة عسلوجاً فأخذه، ولم يكد يمسه حتى تحول ذهباً، ذهباً ثقيلاً ثميناً براقاً من الذي تهواه نفس ميداس، ويحبه قلبه . . .

وكانت الشجرة شجرة تفاح، وكان ثمرها الناضج الأحمر الكبير يغازل العيون . . . ويفتن الابصار . . . وهبت الريح فأسقطت تفاحة كبيرة حمراء مشتهاة، فانحنى ميداس وتناولها، وزاغت عيناه . . لأنه لم يكد يلمس التفاحة حتى تحولت إلى ذهب باذن باخوس . . ذهب ثقيل براق، من الذي تهواه نفس ميداس . ويحبه قلبه . .

وشعر بالدنيا ترقص من حوله، وأحس في رأسه دواراً يأخذه أخذاً شديداً . . وكان سببه أن الشقة إلى مدينته بعيدة، وهو يريد أن يغمض عينيه ثم يفتحهما فيجد نفسه في حدائقه ليردها كلها ذهباً، وفي قصره الباذخ ليجعله كله ذهبا كذلك . . .

ونادى باخوس أن يطوي من تحته الأرض، فما كاد يدعوه حتى وجد نفسه يرتفع في الهواء، ثم ينظر تحته فيرى الأرض تنطوي، وفي طرفة عين ينظر فيرى عاصمته، سارديس، فقبة ليديا الجميلة، من تحته، ثم ينظر فيراه يهبط إلى الأرض في هوادة وفي رفق، حتى يكون فوق الطريق المؤدية إلى باب الحديقة الكبرى، فيطلق ساقية للريح حتى يكون لدى الباب، فيدفعه دفعة قوية فينفتح، الا أنه ينظر إلى خشبه فيراه قد أخذ يحور ذهباً خالصاً . . فيزهى ويعجب . . ثم يقصد إلى دوحة باسقة فيمسها مساً خفيفاً، فترتد ذهباً كلها . . جذعها وأغصانها وأوراقها وأزهارها، والطير الذي كان ـ لسوء حظه ـ واقفاً عليها . . .

ويبهت ميداس . . وينطلق كالمجنون بين الأشجار يمسها واحدة فواحدة . . وكلما مسّ شجرة صارت ذهباً، حتى أتى على أشجار الحديقة كلها . . ثم فكر كيف

يقوى على مس الكلأ كله، وأرض الحديقة كلها، ليكون ذلك كله ذهباً. . فبدا له أن يخلع نعليه وجوربيه. . وينطلق على أرض الحديقة حافياً. . فتم له ما أراد، وأصبحت الحديقة جنة من ذهب، تزري بجنة الهسبريد، حيث كانت بنات هسيروس يحتفظن بتفاحات حيرا الذهبية، حرصاً عليها من لص أو مغتال. . .

ولم يفته أن يرد الماء الذي يتدفق في مسايل الحديقة وقنواتها فيجعله سائلاً من ذهب كذلك، فانحنى على كل منها فمس ماءها، فارتد عقياناً سائلاً له خرير كوقع الدنانير، وبدا له كذلك أن يحول ماء النافورة الكبيرة، والنوافير الصغيرة المتناثرة في جنبات جنته، إلى هذا السائل الذهبي العجيب، ففعل، وأخذت أصوات القطرات الرنانة تسكب جرسها في جو ذاك الفردوس، فكان منظراً عجباً، ومسمعاً أعجب!

وأقبل البستانيون، يشهدون ويسمعون ولا يصدقون. . ونظر إليهم سيدهم الذي تملكه سعار الذهب فقهقه ضاحكاً ثم قال: وأنتم أيضاً أيها البؤساء. . وأنتم أيضاً. . لا بد من تحويلكم إلى ذهب. . ولكن. . لا بد من توزيعكم على جنبات الجنة. . لتكونوا تماثيلها الفتانة الرائعة. . اتبعني يا كالا. . قف هنا. . وأنت يا سيمو. . قف هناك. . وأنت يا أنبو اصعد قليلاً على ذاك الجذع. . وأنت يا سادي ، مد يدك كأنك تتناول هذا العنقود، وأنت يا أرفو، انثن، كأنك تدير هذا التمبور. . وانتن يا بنات تلماك، أنت هنا تحت تلك الظلة، وأنت هناك عند شجرة الرمان الكبيرة. . وأنت أيتها الحلوة الفينانة. . تعالي. . سأختار لك مكاناً يلائم جمالك، ويوائم فتنة ساقيك. . . هنا، هنا. . مدي ذراعيك كأنك تتناولين ثمرة من شجرة الخوخ هذه. . مديهما عاليا وقفي على اخمصيك. . هكذا. . تماما. . بخٍ. . بخٍ. . »

وظل ميداس يوزع رجاله ونسوتهم وبناتهم في جنبات الحديقة، وأرسل من جاءه بأجمل بنات ليديا على عجل، فكان يعريهن وينضو ثيابهن، ثم يوزعهن هنا وينثرهن هناك، في جلسات أو وقفات خلابة، زخرفتها له شياطين خياله المفتون، وأبالسة وهمه المجنون، ولم ينسَ أن يجعل أجمل الغادات وأوفرهن حسناً، وأصباهن وأسباهن، عاريات متجردات في النافورة الكبيرة، في وقفات أو جلسات منتظمة وغير منتظمة. . .

ثم انطلق المسكين يمس الرجال والنساء والبنات حيث أوقفهم وأوقفهن، وأجلسهم وأجلسهن، آمراً هذا أن يعبس، وهذه أن تبتسم، وتلك أن تفغر فمها كأنها تغني. .

وكانت حظائره تغص بالظباء والنعام والطواويس والمهى وعصافير الكنار والكراكي، وبكل عجيبة من عجائب الخلق.. فجعل يوزعها في جنبات الحديقة ومسالكها ومساريها، ثم يمس كلًا منها مساً رقيقاً رفيقاً، فيكون ذهباً خالصاً.. ذهباً ثقيلاً ثميناً براقاً، من الذي تهواه نفس ميداس.. ويحبه قلبه...

وبينما هو في هذا الجد، أو ذلك اللهو معاً، إذا ملكة ميديا الجليلة القدر، العظيمة الشأن، تخرج فجأة من باب القصر، وإذا هي تذهل لهذا المنظر الذي تشرف عليه من عل، فيملك عليها لبها، وتضل فيه عيناها، ويسحرها عن نفسها، ويسلمها لطائف من الزيغ والشرود...

وتنظر.. فترى زوجها مستغرقاً في فنه الجديد الذي لم يكن قط من فنون الحكم، والنظر في شؤون الرعية.. إنه يجري بين الشجر، مجنوناً، أو كالمجنون، ساحباً وراءه ظبياً مرة، ومهاة مرة ثانية، ثم وعلًا تارة، وفهداً تارة أخرى، ثم هو يمس الظبي بطرف بنانه، فإذا الحيوان المسكين يجمد مكانه، ويميل لونه إلى صفرة تشتد ثم تشتد، حتى تكون بين الصفرة والحمرة، ثم إذا هو يكتسب هذا اللون الذهبي الشائع في حديقة القصر، ثم لا يتحرك الحيوان المسكين بعد ذلك أبداً.. فما هذا؟ وأي سحر تعلمه ميداس بين عشية وضحاها؟ وماله قد خلع نعليه، وأخذ يجري في الحديقة حافياً هكذا؟ أي سر هائل، وأية مفاجأة مروعة؟ ترى.. أأنا في حلم؟ أم أن الطائف من المس هنا... في رأسي.. لا في رأس الملك؟

ولم تكد الملكة تفرغ من نجواها حتى كان الملك قد استدار فلمحها:

ـ اومفاليه.. أومفاليه!! مليكتي.. هلمي فانظري!

ـ .....؟....

ـ لست تحلمين كما يخيل لك.. تعالي.. هلمي.. أقبلي.. ما جنة الهسبريد إذا قيست بجنتنا هذه؟.. ألا تصدقين؟ إنها جنة من ذهب، وجمال وفن وعجب! انظري إلى هذه التماثيل.. إنها ذهب كلها.. لماذا تقفين جامدة ذاهلة هكذا؟...

ـ .....؟....

ـ قلت لك لست تحلمين.. إنها رؤية صادقة غير كاذبة.. هذه حديقة القصر قد غدت ذهباً كلها.. تعالي.. هلمي فانظري.. إذن.. أجيء اليك أنا، ما دمت لا تجيئين...

وانطلق المسكين يعدو نحو الملكة الذاهلة . . .

ــ ما هذا أيها الملك!

ــ هذه حديقتنا . . لقد غدت فردوساً!

ــ وكيف؟

ــ هذا سر باخوس تبارك وتعالى!

ــ لست أفهم

ــ غدا تفهمين . . تعالي فانظري!

ــ وما تلك النسوة المتجردات في النافورة؟

ــ جميلات . . أليس كذلك . . .

ــ أجل . . . ولكن . . .

ــ ولكن ماذا؟ أنت وحق باخوس، إلهي الذي لا إله لي غيره تعرفين كيف أخلص لك وأفي . . .

ــ لست أسأل عن هذا يا ميداس . .

ــ إذن فعمّ تسألين؟

ــ كيف صنعت كل هذه التماثيل؟

ــ كيف صنعتها؟ . . إن هذا سر باخوس الكريم قلت لك!

ــ ولكن كيف؟ . . .

ــ أما كيف، فلا أستطيع أن أقول . . أنا نفسي لا أدري .

ــ ألا تقول لي ماذا حدث؟ قصّ علي ما كان من أمرك القريب!

ــ لا شيء يا أومفاليه . . لا شيء . . لقد سألت باخوس أن يهبني هذا الذي ترين ففعل . .

ــ ومتى سألته؟

ــ منذ ساعتين!

ــ منذ ساعتين لم تكن في القصر . .

ـ أجل، لم أكن في القصر. . .

ـ فأين كنت إذن؟

ـ كنت. . كنت. . عند إلهي باخوس!

ـ وأين كان إلهك باخوس؟

ـ كان بعيداً جداً. . على مسيرة يوم أو يومين!

ـ أي ألغاز وأي أسرار!

ـ لا ألغاز ولا أسرار، أنا صادق في كل ما تسمعين الآن. .

ـ هذا هو الصدق الذي لا يصدق

ـ صدقيه واستريحي. .

ـ أريد أن أفهم. . تقول إنك سألت باخوس منذ ساعتين، وإنه كان على مسيرة يوم أو يومين. فكيف أصدق هذا؟

ـ أجل. . لقد كنت لديه حقاً منذ ساعتين، ولما أردت أن أعود، ورأيت من بعد الشقة بيني وبين قصري ما رأيت، سألته أن يطوي الأرض من تحتي ففعل. . وكنت هنا في طرفة عين. . . فهل تصدقين هذا؟

ـ ذاك أعجب من كل هذا الذهب. .

ـ هذا وذاك من أفعال باخوس. . إنه إله يا سيدتي، وهو قادر على هذا، وعلى أكثر من هذا. . إنني عندما طلبت منه هـذا الأمر، أشفق من إجابته. . لا أدري لماذا ثم عرض عليّ أن يهبني معجزات أخرى. . .

ـ معجزات أخرى مثل ماذا؟

ـ طلب إليّ أن يهبني محبة. . فأبيت. .

ـ أبيت أن يهبك محبة؟

ـ أجل. . أبيت إباء شديداً!

ـ ويلاه. . لقد كان هذا ما ينقصك لتكون بشراً كاملاً. . ثم ماذا عرض عليك كذلك!

ـ عرض علي أن يهبني بركة وحكمة. . فأبرىء الأكمه وأحيي الموتى!

ـ ورفضت هذا أيضاً؟

ـ أجل . . رفضته رفضاً باتاً. .

ـ ولم تذكر أنك كنت مستطيعاً أن تبعث من التراب ولدنا يايتوس!!

ـ أبداً. . أبداً. .

ـ وماذا عرض عليك أيضاً؟

ـ عرض علي صحة وقوة وتوفيقاً. . وقصوراً بلورية في السماء. .

ـ ورفضت أولئك جميعاً؟

ـ رفضاً باتاً. . .

ـ فماذا طلبت اذن. .

ـ أيسر طلب وأهونه. . أن يرتد كل شيء أمسه بجسمي ذهباً؟ .. ألا ترين إلى ملابسي كيف أصبحت رقائق من ذهب؟

ـ ويلاه!

ـ ويلاه ماذا؟

ـ ليتك قبلت أحد الكنوز الأخرى التي عرضها عليك باخوس؟

ـ وما عيب هذا الذي ترين؟

ـ لقد أصبحت خطراً عليّ وعلى أبنائك وبناتك؟

ـ ولماذا؟

ـ لأنهم إن أصبحوا ذهباً، متى مسستهم، أصبحوا أمواتاً؟

ـ . . . . ؟ . . . .

ـ لماذا لا تتلكم؟ ماذا دهاك؟

ـ لا عليك. . لن أمس أحداً منكم أبـداً. . فاطمئني، والآن فلننـطلق لنجعل القصر بناء من الذهب. . .

ـ ولكنك لم تحدثني حديث اولئك النسوة في النافورات، وهؤلاء الرجال

المنتشرين في الحديقة كلأصنام! ما لهم لا يتحركون؟..

ـ إنهم. . . . . .

ـ من؟

ـ الفلاحون والعمال والبستانيون... و . . .

ـ ومن؟

ـ ونساؤهم وبناتهم!

ـ مرحى! .. ومن أيضاً؟

ـ وأجمل غادات ليديا وحسانها!!

ـ أهكذا؟

ـ . . . . ؟ . . . .

ـ تسلم كل هؤلاء البشر للموت ليكونوا ذهباً؟

ـ أرجوك يا أومفاليه.. أرجوك يا مليكتي!.. لا يخلق بك أن تحولي مباهجي آلاماً..

ـ وهل كان يخلق بك أن تصير حياة الناس تعاسة؟

ـ لقد صيرتهم ذهباً خالداً لا يموت! وهذا خير لهم من أن يصبحوا بعد سنين عدداً، تراباً وعظاماً لا قيمة لها!

ـ أفأنت لا تبالي إذن أن يكون أبناؤك مثل هؤلاء؟

ـ أما أبنائي .. فلا.. هلمي.. هلمي.. دعي هذا الحديث الآن .. لندخل القصر ولنجعله ذهباً كله..

وأوشك الشقي أن يدفعها أمامه، لولا أن هرولت بعيداً عنه وأخذت سبيلها في القصر هرباً.. أما هو، فقد راح يلمس كل شيء.. الدرج، وجدران القصر، وأعمدة البهو الكبير، والمصابيح والشموع، وتماثيل الرخام والمرمر والبرونز، والسجاد الفاخر، والسرر والطنافس، والارائك، وآنية المنزل كلها، والمشاجب والمقاعد والكراسي.. حتى المرايا.. كل شيء ... كل شيء...

* * *

أما الملكة فقد انطلقت تطوي الدرج إلى الطابق العلوي من القصر، حيث شرعت تبحث عن ابنيها وابنتيها لتجعلهم بمأمن من لقاء أبيهم أو الاقتراب منه، حتى لا يمسهم شره، أو ينالهم أذاه...

ثم وجدتهم متكبكبين في احدى الشرفات المطلة على الحديقة، ينظرون إلى الفردوس الذهبي، بأعين زائغة، ونفوس دهشة، وأنفاس مختنقة.. ذاهلين... مشدوهين.. غائبين عن هذه الدنيا وكل ما فيها، إلا عن هذا السحر الذي كان يصنعه أبوهم، وهو يهرول هنا، ويجري هناك، ساحباً وراءه ذلك الظبي أو هذا الوعل، ماسحاً بيده على كل شيء فيصير ذهباً، ماشياً بقدميه الطريتين على الارض والكلأ والنؤى فتكون كلها عسجداً!!...

ثم غلقت الأبواب وهتفت بهم تقول: أونيوس! أونيوس! هات اخواتك، تعالوا أيها الاعزاء...

وكأنما أيقظتهم أمهم من حلم، فما كادوا يسمعون نداءها حتى هرعوا إليها صائحين في صوت واحد: أماه! .. واضطرت الملكة أن تصنع على شفتيها ابتسامة معذبة وهي تقول: اطمئنوا يا أعزائي.. اطمئنوا.. فتمتم أونيوس، ولدها البكر متسائلاً: ما هذا يا أماه!! ماذا يصنع أبونا الملك؟.. فأجابت الملكة وهي لا تزال تحبس الابتسامة المعذبة على شفتيها الصفراوين،: ستعرف.. ستعرف يا أونيوس فلا تنزعج.. إنما جئت لأقول لكم إننا جميعاً الآن في خطر!

ـ في خطر؟

ـ أجل .. في خطر شديد ماحق!

ـ أماه ! ماذا تقولين؟

ـ هو ذاك يا أبنائي...

ولم تستطع الملكة المسكينة أن تحبس ابتسامتها المعذبة وقتاً أطول.. بل انفجرت تبكي فجأة.. وقالت لها ابنتها ميروب، كبرى ابنتيها، بعد وجوم طويل:

ـ لكنك تعذبيننا ببكائك يا أمنا العزيزة الطيبة.. أكثر مما تعذبيننا بكتمان هذا السر الذي أذهلنا.. ماذا أصاب أبانا الكريم؟ ما له يهرول حافياً هكذا؟.. وما هذا الذهب كله؟

ـ هذا هو السر الذي بادرت لأكشفه لكم يا أعزائي، ولأحذركم منه.. إن

أباكم الآن في حالة خطر علينا أي خطر!

ــ لسنا نفهم. . .

ــ أجل، هذا ما أسرعت إليكم لأقوله لكم. . فاحذروا!

ــ نحذر أبانا؟ يا للهول!

ــ احذروا أباكم. . اياكم أن تقتربوا منه، وأحذروا أن يمسكم بأي جزء من جسمه. .

ــ وضحي يا أماه . . وضحي. .

ــ لقد مَنّ باخوس على الملك، فلا يمس شيئاً إلا صيره ذهباً! ولم تكد صغرى البنتين تسمع هذا حتى افتر فمها عن ابتسامة كبيرة وهي تقول:

ــ ألا ما أكرم باخوس!

فقالت الملكة:

ــ أجل. . ما أكرم باخوس. . فلقد أشفق أن يلبي ما طلب إليه أبوكم من ذلك الأمر، وعرض عليه آيات بينات، فرفضها الملك جميعاً، وأبى إلا أن يؤتيه الإله الكريم هذه المنة. . أو هذه النقمة. . ألّا يمس شيئاً حتى يرده ذهباً. . فهل رأيتم النسوة المتجردات في نبع النافورة؟ وهل رأيتم العمال والبستانيين وأبناءهم وبناتهم؟ لقد سحرهم أبوكم فجعلهم كلهم ذهباً. . فاحذروا. . إياكم أن تقربوا منه. . . هذا هو الخطر الذي لا ندري كيف ندفعه . . إنه إن مس أحداً منكم بطرف بنانه صيره ذهباً في لحظة . . في غمضة عين!

وهنا أيضاً افتر فم الفتاة الصغيرة عن ابتسامة كبيرة، ثم قالت: « ولكن . . ألا يستطيع أبونا يا أمي العزيزة أن يرد الناس من هذا الذهب إلى خلقهم الأول الذي كانوا عليه؟ »

ونظرت اليها أمها بعينين دهشتين مأخوذتين. . لان سؤال الفتاة كان سؤالاً جديراً بالنظر، ولأن الملكة لم تكن تدري له جواباً. . ولعل الآلهة نفسها لم تكن تدري لهذا السؤال جواباً. .

ثم فتح الباب فجأة. . ودخل الملك صانع المعجزة الذهبية. . .

ــ هلا . . لماذا جريت يا أومفاليه خائفة مذعورة. . ماذا تقولين للأولاد؟

ـ ما هذا؟.. أسحر جديد؟ كيف فتحت الباب؟

ـ لست أدري.. ولكن يسرني أن أطمئنك، فلن أمس أحداً من أطفالنا بسوء...

ـ أيها الرجل: أي نقمة استنزلتها من السماء على سعادتنا؟

ـ نقمة.. الذهب نقمة.. إنما النقمة أن تحولي قلوب أبنائي عني..

ـ أنا لم احول قلوبهم عنك، ولكني حذرتهم أن يمسوك فيكون مآلهم إلى ما ترى... وأرجوا ألا يطول بنا هذا الامر!

ـ والنقمة أيضاً، أن يتشاحن الملك والملكة على هذه الصورة أمام أولادهما أوينوس.. ميروب.. اذهبوا جميعاً إلى غرفكم، ودعونا وحدنا..

ويطيع الاولاد أباهم فينطلق أوينوس، ومن ورائه ميروب، ومن خلفها ميتوس.. كل إلى حيث أمرهم أبوهم.. أما الصغيرة دوريس، فتذهب إلى أبيها فتسأله، وأمها من ورائها تطوقها بذراعيها، خشية أن يمسها أبوها بسوء: «ألا تستطيع يا أبي أن ترد الحياة إلى هؤلاء الناس الذين حولتهم ذهباً؟» فيضحك الملك ملء فمه، ويعقد يديه وراء ظهره حذراً من أن يمس ابنته، ثم يقول: «بديع.. بديع جداً.. كان ينبغي أن أذكر هذا، وأنا أتمنى على باخوس.. ثم أنا لا أدري وحق باخوس يا ابنتي، إن كنت أستطيع أن أفعل ذلك...»

وانحنى البائس يطبع على جبين الفتاة قبلة كريهة شائهة.. فما كاد يفعل... وما كادت شفتاه الغضتان تمسان جبهة الفتاة، ثم ما كادت الملكة السيئة الحظ أن تحجز بين الفم الكريه الشائه، وبين جبين دوريس، حتى أخذ الذهب يشيع في كيان الطفلة، وفي كيان الأم.. لقد مست شفته جبين دوريس، كما مسّ وجهه ذراع الملكة.. وتمت الكارثة.. وانتصب في وسط الغرفة تمثال فريد من أم حانية على طفلتها، وفتاة مشدوهة أرسلت يدها قريباً من فمها، حيث أوشكت السبابة تخاطب اللسان المنعقد، والثنايا المنفرجة، والشفتين المفغورتين، عما دهى المخلوقة البريئة الصغيرة من رجس الأب البائس!

لشد ما كانت نظرات الحسرة والفزع تنقدح من عيني الأم الذهبيتين! ولشد ما كانت الأمومة المفزعة تبكي وتئن، وتنتحب، وتكاد تبث شكواها بهذا اللسان الجامد العسجدي، الذي يحاول أن ينطلق، فلا يسعه إلا هذا الصمت الباكي البليغ معبراً عن آلام القلب الكبير، وما يجيش في خفايا أضالعه من أشجان أومفاليه!

ووقف ميداس مبهوتاً.. وأخذت تنبعث من عينيه نظرات يغشاها ظلام، كهذا الظلام الذي ينبعث من مقبرتين مهجورتين متجاورتين، ممتلئتين بذكريات الموتى، امتلأهما بهذا الرفات المتناثر ذات اليمين وذات الشمال، وقد برزت فوق عظام الأذرع والسيقان، وسلاميات الأيدي، جماجم خاوية، عميقة حفر الأعين، لا تدري إن كانت تسخر منك أو تهزأ بك أو تضحك عليك أو ترثي لك، وأنت تنظر إليها مأخوذاً بصمت الفناء، متعجباً كيف يكون مآل الناس «هذا المال، ثم يعميهم حب الذهب الذي أعمى ميداس، وأضل قلبه، حتى آثره على المحبة والصحة والقوة والعافية والخير وإحياء الموتى!

وقف ميداس يحملق في زوجته وفي ابنته، وكأنما أفاق من حلم رهيب كان يداعبه بقسوة، وكان يجثم على روحه فيكاد يحبس أنفاسه.. وكانت كل عضلة من عضلات وجهه تستفهم وتتساءل وترتعش! ما مآل هذا؟ ولكنه سرعان ما عاد إلى نفسه، وفاء الى طبيعته، وفرك يديه مطمئناً هادئاً كأن لم يصبه شيء.. ثم قال يكلم الملكة، أو يكلم تمثال الذهب المكون من زوجته وابنته: لا ضير.. سأرى هل أستطيع أن أحقق حلم دوريس... أليس باخوس قادراً على كل شيء؟ أليس باخوس إلهاً؟

* * *

.. وها نحن أولاء يا أونيوس العزيز نقترب من حدائق أبيك الذهبية.. وها هي ذي تلك الشمس الغاربة تعكس أضواءها على تلك الحدائق فترتد جنات من الشفق الالهي الذي كان أبوك صاحب معجزته الأولى.. لا تعبس هكذا يا حبيبي أونيوس.. كيف تعبس وحبيبتك كليتي هي التي تكلمك، وتسري عنك، وتعدك أن هذا الذي تحسبه شراً لك ولأهلك، إن هو إلا خير لك ولأهلك، وللناس جميعاً.. كيف تعبس وأنا ضامنة لك أن أمك الملكة سوف تعود إلى سابق عهدها فتكلمك وتسامرك وتملأ عليك الدنيا بهجة وتملأ أيامك مسرة، وسوف تعود الصغيرة دوريس إلى طفولتها الفينانة، فتجري بين يديك في حدائق الذهب هذه، حين تعود سيرتها الاولى من الخضرة والنماء، وسوف يفيء أبوك الى سالف عهده حين تباعد الآلهة بينه وبين هذه النقمة التي أصر على أن يبتليه بها رب الكرم باخوس...

ما هذا؟ ألا تسمع يا أونيوس! إنها موسيقى عذبة تكاد تتكلم يحمل رب النسيم، زفيروس الكريم، إلى أسماعنا من حدائق أبيك! أبداً وحق السماء ما سمعت مثلها أبداً إلا من أبوللو في أيامنا الخوالي»

ولم تكد تذكر أبوللو حتى نسي أونيوس ما كان يكابده من هم وفكر، وراح يحدجها بنظرة تلتهب فيها نيران الغيرة، وقال متسائلاً: « وما أبوللو وما أيامكما الخوالي أيتها الفاتنة كليتي؟»

وصمتت كليتي لحظة طافت فيها أفكار شاردة ملء رأسها الصغير، ثم نظرت إلى حبيبها أونيوس بعينين تترقرق فيهما عبرتان حزينتان، وتمتمت تقول:

«أنت أطيب قلباً يا أونيوس.. وأنت أكثر وفاء من الآلهة»

إلا أنه كان جواباً لم يشفِ تلك الحرقة اللاذعة التي سببتها تلك اللهفة التي كانت تتصاعد رائحتها من العبارة التي ذكرت فيها اسم أبوللو.. ولم يكن يريد أونيوس أن يعرف شيئاً يجهله بسؤاله الذي سأله كليتي، فقد كان يذكر أنها غادة من الغيد الحسان اللائي وقعن في شراك أبوللو، رب الشمس والموسيقى، ورب الشعر والطب.. ولقد عرفت الدنيا كلها ما كان من غرام كليتي بأبوللو وفنائها في حبه، وما كان من إعراض الإله القاسي.. الذي لا يرحم، عن هذا الحب الذي بدأه فهاجمه، ولم يبدأه هو فيهاجمه وكان هذا دأب أبوللو.. لا يرثي لأي من حسان الدنيا تبدأه بحبها، فإن بدأ هو هذا الحب، فويل لقلبه الضعيف الذي لا يقوى على لفح الهوى، ولا يصبر لحر الصبابة، وويل لجفنه المورق، وعينه المسهدة، وروحه العطشى!

ولقد كان من سوء حظ كليتي أن عكست آية الحب حين هويت أبوللو، فهاجمته بغرامها قبل أن يهاجمها هو بغرامه، فتعمد ألا يلقي باله إليها، وتركها تمرغ روحها وقلبها تحت قدميه الجبارتين يطأهما في صلف وكبرياء وعجب، وهو يطوي السماء من المشرق إلى المغرب فوق عربة الشمس المطهمة، التي تفتح لها أبواب السماءأورورا الوردية ربة الفجر حين يتنفس الصبح...

ولم يشأ أونيوس أن يسحق قلب الفتاة المسكينة المعذبة، فلم يعدْ عليها سؤاله، وقنع منها بأن تفضله على آلهة الأولمب، وأن تعترف بأنه أكثر منها وفاء.. وربما أقنعه بذلك ما كان يعرفه من حاجته إليها في تعرف أساليب الآلهة التي خبرت منها ما لم يخبر، وعرفت ما لم يعرف، فهي عروس من عرائس الغاب، وفيها لذلك دم إلهي، يتدفق في جسد بشري.. وقد وعدته أن تهديه إلى باخوس، وأن تقدمه إليه، أو أن تنوب عنه عنده فيما يريد أن يخاطبه فيه من أمر أبيه.

وكان أول ما تنفس حب أونيوس في قلبها، حينما لقيها وهي جالسة فوق صخرة جرداء على شاطىء البحر، تنتظر بزوغ الشمس من أعماق اليم، لتمتع

عينيها بنظرات من حبيبها الأول، أبوللو، وهو يشد أعنة صامتاته الجياد، ليبدأ رحلته السماوية الخالدة. .

لقد كانت كليتي جالسة وحدها، مسندة رأسها على يديها العاجيتين، ونسيم الصباح البليل يداعب شعرها الفضي ثم يلثمه. . ولم تكد عينا أونيوس تقعان على ذلك المنظر الفاتن، وعلى عرش كليتي، حتى شعر به يحتل ما بين جنبيه غير مستأذن، ولكن كليتي كانت تذهب لشأنها بعد أن تبزغ ذكاء، دون أن تلقي على العاشق المعذب نظرة تتصدق بها على قلبه الحيران. . ولم ييأس أونيوس، بل كان يتعجل الليل ليطوي غياهبه، كل ينطلق لميعاده إلى شاطىء البحر، عند الصخرة الحبيبة، حيث يقف عن كثب، ينظر، ويعبد، ويتعجب!

ثم اجترأ مرة، وقد لمحها تذرف من عينيها دموعاً حراراً، فحياها تحية رقيقة باكية، فلم ترد عليها، بل طوت عنه وجهها بين ذراعيها، وراحت تنشج وتبكي!

وأقبل أونيوس بسذاجة متناهية، فجلس إلى جانبها، وطوقها بذراعه، وجعل يهاجمها بتوسلاته أن تبثه ما تجد. . ففعلت! وقصت عليه قصة هذا القاسي المتحجر القلب. . أبوللو. . الذي أحبها فأحبته، ثم هجرها بغير سبب!

واستطاع اونيوس أن يحل محل ربّ الشعر والطب، في قلب عروس الغاب، بما كان في وسعه أن يذيبه في كلماته من سحر، وفي حديثه من غزل، وفي قلبه من طب ودواء، وبلسم، لجراح الهوى!

ثم اشتدت بينهما أواصر المحبة، وتأكدت أسباب الود، وألف كل منهما صاحبه الفاً شديداً حتى أصبح أونيوس لا يجد سكناً إلا إليها، وأصبحت هي لا تجد سكناً إلا إليه.

فلما كان هذا اليوم العظيم الذي رزق فيه ميداس تلك المنة، أو تلك النقمة، وخرج أونيوس وميروب من غرفتيهما اللتين أمرهما أبوهما الملك أن يثوبا فيها، وشاهدا ما صارت اليه أمهما وأختهما من هذا السحر الذهبي، أخذهما طائف من الهم والحزن والكمد أخرجهما عن طورهما، فجعلا يصيحان ويعدوان هنا وهناك، ويخبطان هذا الجدار ويحطمان تلك الآنية، ثم انطلق أونيوس يعدو في جنبات الحديقة لا يهتدي إلى بابها الكبير مما أصابه من المس، حتى لم يجد بدأ، وقد لمح أباه يعدو خلفه هاتفاً به أن يقف ليهدىء من روعه، أن يثب وثبة كبيرة فوق سياج تلك الجنة الرهيبة فكان خارجها ولم يزل يعدو، أو لم يزل يسابق الريح، حتى كان عند الأجمة التي تأوي إليها كليتي. . فما أحست به حتى برزت

إليه من النبع الفضيّ ذي الخرير الذي كانت تستنقع فيه، ثم أقبلت عليه تلثمه وتضمه وتهدىء من روعه وتغالب شياطين الفزع، التي كانت تهيجه، حتى استطاع آخر الأمر أن يقص قصة أبيه ومأساة أمه وأخته، في صَيْبٍ مدرار، من دموعه الغزار.

وما كاد أونيوس ينتهي من قصته حتى تبسمت كليتي، وأخذت تهون على حبيبها، ما ألّم به من خطب باخوس، وخطب ميداس، وخطب هذا الذهب الذي دخل ذلك القصر الباذخ فدخله معه الفزع، وشاع فيه الجزع، واثار في قلوب أهله عواصف الآلام. . . قالت له كليتي وهي تبتسم:

«ما دام باخوس هو صاحب هذا السحر، فلا أرى لك أن تجزع يا حبيبي أونيوس. . إن باخوس رب الفرح والمرح، والزق والقدح، والسرور والحبور، وهو من يوم أن أنزل بقرصان البحر ما أنزل، لم يمس مخلوقاً بسوء، إلا من استحق عذابه، ولم يبالِ حسابه. . ماذا؟ ألا تعرف قصة باخوس وقرصان البحر؟. . إذن فأنا أتلوها عليك. . بل أتلو عليك قصة حيرا سيدة الأولمب وما كان من أمرها مع سميليه أم باخوس، قبل أن أروي لك قصة القرصان.

* * *

لعلك تذكر ما رويت لك من كراهية فينوس ربة الحب والجمال. . والزواج. . لزوجها الشرعي الذي فرضه عليها أبوها زيوس فرضاً، دون أن يرجع إليها في ذلك برأي، ودون أن يعتمد منها على مشورة، عقاباً لها على ما هزئت بخطابها من أرباب أولمب، وما سخرت من عواطفهم التي ألهبها جمالها البارع، وحسنها الساحر اليانع. . ولعلك تذكر ما انتهى إليه ذلك الزواج الكريه البغيض من صبوات فينوس، ومغامراتها، ولا سيما مع هذا الإله القوي الجبار، مارس. . .

اهملت فينوس زوجها الحداد إهمالاً. . فلم تلد أحداً من أبناء أولمب. . وهامت فينوس بمارس، وهام مارس بفينوس. . فولدت له أولادها غير الشرعيين: هارمونيا الجميلة ربة الألفة، وكيوبيد رب الحب. . وإن شئت فرب الكراهية والبغضاء. . فقد كان يحمل في كنانته سهاماً ذهبية يصيب بها القلوب فتملأها حباً، وتؤججها صبابة، وسهاماً رصاصية إذا أصاب بها قلباً أغطش فيه ظلام البغض، وملأه مقتاً وكراهية. .

وظل كيوبيد طفلاً. . وإن شئت فصبياً. . وجزعت فينوس إذ رأت ولدها المبكر لا ينمو برغم كرّ الايام ومرّ السنين، فذهبت تسأل المجربات من ربات أولمب

لعل إحداهن تهديها إلى دواء، ولم تبالِ أن تسأل أبوللو رب الطب لعلها تجد عنده طباً لهذا الطفل الحبيب الذي شغل بال أمه ربة الجمال زمناً لم تنعم فيه بزورة لحبيب، ولا مغامرة في دولة الحب، وذلك بالرغم مما كان بين أمها ديون، وأم أبوللو، لاتونا، من شحناء وبغضاء وتحاسد، في قلب زوجهما زيوس..

ثم هدتها بعض صويحباتها إلى ربة العدالة تيميس، فذهبت إليها تستشيرها وتستهديها، لكن تيميس أجابتها اجابة ملغزة معماة، إذ قالت لها: إن رب الحب لا يمكن أن ينمو ويكبر إلا حيث ينمو ويكبر ربّ العاطفة!» فما معنى هذا؟ وماذا قصدت تيميس؟ لم تدرِ فينوس، ولم يستطع أحد من مشيريها أن يدري!

ثم مضت أيام، ووضعت ولدها أنتيروس.. فإذا هو رب العاطفة الذي أخبرت عنه تيميس، وبشرت به، وفينوس لا تدري!

ثم ما هي الا أيام حتى شب أنتيروس، وشب معه كيوبيد.. فهل كان هذا هو ما عنت ربة العدالة؟ حقاً إن الحب لا ينمو ولا يكبر، إلا إذا نمت العاطفة وكبرت، وشملت دنيا الجمال ودنيا المفاتن، وما وراء دنيا الجمال ودنيا المفاتن، من دُنى الأماني والأحلام!

أما هارمونيا الجميلة، ابنة فينوس، فقد أحبت قدموس منشىء طيبة الخالدة وملكها، الذي كان هو الآخر يعبد هارمونيا ويفنى في محاسنها، ولم يزل يتودد إلى أمها، ويغازلها بالعطايا واللهى، حيت قبلت أن تزوجه من ابنتها ربة الألفة...

وولدت هارمونيا لقدموس ابنته الحسناء الفاتنة ذات الغرة الغراء والجبين المشرق الوضاء: سمليه..

سمليه الرائعة ذات الخفر.. أجمل ابتسامة افتر عنها أولمب.. الأنثى التي نشرت الفتنة في قلوب الآلهة.. حفيدة زيوس كبير الأرباب.. حفيدته.. هل تسمع يا أونيوس؟ حفيدة زيوس.. فلا تنسَ هذا.. ابنة هارمونيا، ابنة فينوس، ابنة زيوس،.. فهل حفظت هذا النسب؟ احفظه ولا تنسه، فهو نسب مضحك، نشأ عنه زواج مضحك زواج قمين بأن يزيح عن صدرك هذا الهم الذي ينوء به.. أما كيف يضحك هذا النسب، فاعلم أن قلب زيوس، سيد الأولمب، قد صبا إلى حفيدته سمليه!! صبا إليها وافتتن بها وجنّ بها جنوناً.. لقد رآها حين شبت عن الطوق، فلم يذكر أنه رأى مثل هذا الجمال كله يجتمع لأنثى واحدة من عباده! لقد كان أجمل ما في كل ربة من ربات الأولمب موجوداً فيها مضاعفاً.. فشعر فينوس السبط الذهبي، وجسمها المشوق المستوي، وأنوثتها التي تشبه الجنة بما

حفلت به من حياة ونضرة وخصب وثمر.. ثم عينا حيرا بم أترعتا به من أمر وخمر وسحر، وبشرتها الخالدة ذات الماء والصفاء والنقاء، وكفاها اللدنتان الرخصتان ذواتا الأنامل الناعمة اللينة.. ثم جيد لاتونا الناهد المثمر الذي يتحلب جمالاً وفتنة ولذاذة، ثم ظهر ديون العاجي الأملس الذي يحمل فوقه وزراً من النظرات الجائعة، والأشواق المجنونة ثم نعومة ديانا ربة الصيد ومليكة القمر، وخفتها ورشاقتها وتثنيها.. كل ذلك في فهم مينرفا وروح منوميزين.. منوميزين العلوية.. أم عرائس الفنون التسع، وواهبة الدنيا الجميلة أسمى معاني الخلود والبقاء...

آه يا حبيبي أونيوس لو ظفرت يوماً بنظرة من هذه الغادة! .. ولكن.. ذلك أمل.. فلقد ذهبت سمليه.. ولم تبق من آثارها إلا ذكرى.. وإلا هذا الإله الفرح المرح باخوس..

إذن.. فقد رآها زيوس تتواثب فوق شاطىء البحر.. وكلما قبلت الارض قدميها الصغيرتين الجميلتين، نبتت مكان القبلة أزهار عجيبة من الليس الأبيض الناصع، والشبير الضاحك المتأرج، والورد الجريح الدامي.. والبنفسج المتلهف المشتاق! وافتن زيوس في اتخاذ صورة من صور الشباب المنيف الغض، الذي تنهل في إهابه أمواه الصبا، وتترقرق في بشرته نضرة النعيم.. ثم بدا لها عند كرمة ذات ظلال وأفياء.. وأخذ يتبرج، يحسب أن هذا يجذبها إليه، فما راعه إلا أن يراها تحمر، وتحمر، ويكاد خداها يلتهبان ، ثم تسرع الخطى، وتغذ السير، فإذا شعرت به يغذ السير من خلفها أطلقت ساقيها للريح، حتى تكون عند قصر أبيها الملك فتصرخ صرخة راجفة فيجتمع اليها الخدم والحشم والحراس الاشداء الأقوياء، فاذا شكت اليهم هذا الشاب الذي يلاحقها.. نظروا ليروا اليه.. فلم يجدوا شيئاً!!

ــ أين؟؟ أين هو يا مولاتي..

ــ هناك.. ها هو..

ــ نحن لا نرى أحداً...

ــ انتم لا ترون أحداً؟.. أنتم عميان إذن...

ــ بلى .. ولكنا مع ذاك لا نرى أحداً...

أما كيف كان ذلك، فقد استطاع زيوس سيد الأولمب أن يستخفي عن جميع الأعين، إلا عن عيني سمليه.. إنها وحدها التي كانت تستطيع أن تنظره، وتراه

وهو لا يزال يتبرج، ثم إذا هو يرجو ويتوسل، ويشكو ويتصابى...

وتنطلق سمليه داخل القصر وتأمر بالأبواب فتغلق ويحكم رتاجها، لكنها تنظر فترى الشاب الجميل الفينان على مقربة منها، بل على خطوات، فإذا استصرخت من حولها، فلم يصرخوها، لأنهم لا يرون شيئاً، سقطت مغشياً عليها...

وقبل أن تبلغ سمليه أرض الغرفة، ينظر الخدم فيرونها محمولة على ذراعين من أثير، مسجاة على مهاد من هواء وضياء.. ثم إذا الأبواب تفتح من تلقائها.. ثم اذا سيدتهن الصغيرة تعرج هكذا في السماء.. على هون.. على هون.. على هون...

ويكون أبوها قد أقبل على هتاف الخدم وصراخهم.. ويكون قد لمح ابنته وهي محمولة هكذا إلى جنات اللازورد.. فيكاد يجن.. لولا أنه ينظر فجأة فيرى زوجته الجميلة هرمونيا.. أم سملية.. واقفة فوق رابية كاسية بأزهار الكميليا.. وقد أخذت تحيي الركب السماوي بمنطقة حريرية بيضاء، أمسكتها، وراحت ترسل القبل النسيمية من فمها الأحمر الصغير المفتر، باليد الأخرى...

وقصد إليها زوجها ملك طيبة مسحوراً مشدوهاً، فلما سألها، وعرف منها أنه زيوس، وأنه ذهب بابنته ليتخذ منها زوجة جديدة حبيبة، ضاع رشده، ولم يدر كيف يفسر هذا، ولا كيف يعلله...

ــ زوجة لزيوس، وهي من أحفاده! يا عجباً لسكان الأولمب.. يا عجباً..

ولم يمض طويل على الملك حتى تفرج عن ضحكة عريضة.. ضحك لها جميع من حوله، من حاشية القصر وهم لا يدرون علام يضحكون...

ثم أقبلت سمليه، وقصت على أبويها ما كان من أمرها مع زيوس، أو ما كان من أمرزيوس معها...

.. وبعد أن تمت مراسم الزواج يا أماه، وبعد أن ملأ هذا الفتى العجيب الوسيم القسيم، نفسي وروحي وقلبي بمحبته.. قال لي وهو يستودعني سره الهائل.. سره الذي يملأ أطباق السموات.. إنه سيد الأولمب.. زيوس العلي.. وحاولت أن أسجد بين قدميه مهابة وإجلالاً.. إلان أنه تلقاني بين ذراعيه، وطبع على شفتي المرتعشتين، المسبحتين باسمه وبمجده وحمده، قبلة لن أنسى سحرها ما حييت»

***

ثم ولدت سمليه ابنها البكر.. باخوس

واشتهر أمرها في الأولمب.. وملأت الغيرة قلوب ضرائرها وشريكاتها في قلب زيوس، وكن جميعاً يؤثرن السلامة، فلا يشغبن على سيدهن، ولا يأبهن لجنونه بزوجته الجديدة الصغيرة، الحسان المفتان، وذلك لما كن يعترفن به من غلب حسنها على حسنهن، مما لا سبيل معه إلى انكار..

إلا حيرا!!...

وكيف ترضى حيرا بأن يغلب سلطانها على قلب زوجها سلطان، أو يكون لإحدى الربات ــ لا أنصاف الربات ومَنْ جرى في عروقهن دم البشر، نفوذ على سيد الأولمب، غير نفوذها هي؟

لتقلب الدنيا على رأس سمليه إذن.. بل.. لتنسفها من طريقها إلى قلب الإله الأكبر نسفاً.. وليذهب إلى هيدز هذا الجمال الفتان الذي كان عليها وعلى ربات الأولمب نقمة النقم، بقدر ما كان على زوجهن نعمة النعم!

وذهبت حيرا تزور الزوجة المختارة المحظوظة..

ولقيتها سمليه خير لقاء وأحسنه.. اللقاء الذي يليق بسيدة الأولمب ومليكته الأولى..

ثم دار الحديث عن الزواج وعن الازواج.. وجرّ هذا إلى ذكر زيوس ومغامرات زيوس، ثم استدرجتها حيرا إلى ذكر ما بين زيوس وبين كل من زوجاته من مودة ومحبة، وفي كلمة كلها ملق وكلها دهان.. راحت حيرا تحذر سمليه من غدرات سيد الأولمب، ومن قلبه القلب، وحبه الذي لا يثبت على حال..

وإن كنتِ في شك من نصحي.. فالدليل بينّ، والبرهان قائم.. ها نحن أولاء قد أصبحنا سبع زوجات يا سمليه العزيزة.. وإني ما زلت أذكر تلك اللحظة التي وقف فيها زيوس يغازلني ويبكي.. ويشكو إليّ ويبكي.. ويقبل الأرض تحت قدمي ويبكي.. ويعدني ألا يصبو قلبه إلى إحدى ربات الأولمب غيري.. فماذا انتهى إليه زيوس من كل ذلك؟..

أين دموعه وأين وعوده.. وأين مواثيقه؟.. ذهبت كلها أدراج الرياح.. ذهبت كلها في مغامراته التي لا تنتهي، ولن تنتهي.. ثم أنا أقسم لك أنه كان يعد كلًا من زوجاته نفس المواعيد، ويواثقها نفس المواثيق، ويغازلها نفس الغزل،

ويقول لها كما قال للأخريات، على أنني أحرص الحرص كله على ألا يخامرك شك فيما أقوله لك، وما أحذرك من تقلبات زيوس.. سليه إن كان حقيقة يحبك كل هذا الحب الذي تزعمين، وإن كان يؤثرك علينا جميعاً، أن يجيب لك طلبة هينة واحدة.. فإن أجابك إليها.. فأنت حقاً ملء قلبه وملء حبه.. سليه أن يظهر لك في صورته الحقيقية الأولمبية.. فهل أهون عليه من إجابتك إلى هذا الطلب؟

إنك إلى الآن لا تعرفين صورته تلك، وهو يرى أنك، كما زعم لي ذلك، لم ترتفعي بعد إلى هذه المرتبة.. مرتبة رؤيته في صورته الحقيقية الأولمبية.. تلك الصورة التي لم يبد بها إلا إليّ، وإلا لزوجة أخرى من زوجاته لا أستطيع أن اسميها لك الآن حتى ترينه كما رأيناه، فلا يكون قولي إذاعة لسر الإله الأكبر.. إنك ما زلت تذكرين صورته الاولى التي بدا لك فيها عندما راح يغازلك ويتصبّاك.. أو عندما راح يتوسل إليك ويتذلل لك.... وأنت لا تزالين تفتنين بهذه الصورة التي يتدفق في أعطافها ماء الشباب، وتنهل في أهابها خمرة الصبا، فما بالك لو تبدى لك في صورته الحقيقية الأولمبية يا سمليه؟ أي جمال وأي بهاء، وأي حسن يخفي عنك سيد الأولمب؟ إذا كان هو الذي يهب الآلهة، إناثاً وذكراناً تلك الأنصبة الضئيلة من المحاسن والمفاتن، فأي نصيب كبير منها احتفظ به لنفسه! حدثي نفسك إذن هذا الحديث الذي أسررت به إليك.. وقلبيه على جميع وجوهه.. وانظري إن كان فيه زيف، أو إن كان فيه ما يخيف!! لقد تحدث الأولمب كله بحديث حبه لك، وتفانيه فيك، وغرامه بك.. وكنت، أنا وتلك الزوجة الأخرى التي رأت زيوس في صورته الحقيقية الأولمبية، نسمع إلى تلك الاحاديث، وتنظر إحدانا إلى الأخرى.. وتصمت.... وكنا في الحقيقة نرثي لجمالك هذا، اليانع اليافع، كيف يبخسه حقه سيد الأولمب، فيرى أن صاحبته لم ترتفع بعد إلى مرتبة النظر إليه في صورته الحقيقية الأولمبية؟...

ثم أستاذن الآن سمليه الحبيبة.. لقد مكثت عندك فوق ما يجب.. وأظني ضايقتك بهذا السر الذي كشفت لك عن قليل منه أي قليل.. اذكري أن تسأليه إجابتك إلى تلك الطلبة.. أصري على رؤيته في صورته الحقيقية الأولمبية.. فإن أجابك إلى ذلك فثقي بالخلود شأن ربات الأولمب.. ولا تنسي أن دماء بني الموتى من البشر تتدفق في عروقك.. وهي دماء مصيرها إلى الفناء.. اما إذا ظفرت برؤية زيوس، في صورته الحقيقية الأولمبية، فقد ظفرت إذن ـ أنت وذريتك جميعاً.. بالخلود!!

***

وجاء زيوس لزيارة سمليه...

ولأول مرة يراها مقطبة الجبين، زاوية ما بين الحاجبين، لا تهش للقائه ولاتبش،، ولاتنثر ذراعيها الطويلتين البيضاوين الدفيئتين، حول عنقه الجبار القوي.. ولا تثب على أطراف أخمصيها لتصل إلى فمه الظامىء المتحلب كي تمنحه قبلة اللقاء كما عودته..

ولأول مرة يراها ساكنة ساكتة صامتة.. لا تحدثه عما صنع طفلها الفرح المرح باخوس، ولا عن باقات الورد وأعواد الزنبق وطاقات الشقائق التي ظل يجمعها طيلة الصباح ليقدمها تحية عبقة إلى أبيه...

ولأول مرة لا تحدثه ـ في خفر ودلال.. عما كانت تجد من الشوق لطول ما غاب عنها منذ أمس.. ولا عن بطء أقدام الزمن التي كانت تحسبها كأنما قيدت بأغلال وأصفاد، فلا هي تمشي.. ولا الزمان يمضي.. ولا ساعاته تمر...

ولأول مرة يكلمها فتثاقل عليه في الرد...

ولأول مرة يتكلم هو كثيراً.. وتتمتم هي قليلاً...

ـ سمليه!

ـ ....؟..

ـ ماذا؟ أحدث شيء؟

ـ وأي شيء

ـ ماذا عراك يا حبيبتي؟

ـ لم أكن أظن.. ولم يدر بخلدي!

ـ وما ذاك الذي لم يدر بخلدك؟

ـ أنك تفضل عليّ زوجة من ربات الأولمب؟

ـ ومَنْ من ربات الاولمب أفضل عليك يا سمليه!

ـ احسب أنه لا فائدة في الانكار

ـ حدثيني عما سمعت.. هل زارك أحد؟

ـ .....؟....

ـ أه.. لا بد أنها قد وسوست إليك!

ـ ومن هي؟

ـ حيرا..

ـ تباركت سيدة الأولمب.. ومن أخبرك؟

ـ من أخبرني؟.. وهل أنا في حاجة لأن يخبرني أحد؟ إني أعلم ماتوسوس به نفسك ونفوس العالمين!

ـ إذن.. فلقد زارتني.. وشرفتني بتنازلها ذاك!

ـ وأنا.. ألم أحذرك منها ما لم أحذرك من غيرها؟

ـ بلى.. ولكن.. لقد حدثتني حديثاً لن أذكر لك منه كلمة حتى تقسم بالبحيرة المقدسة أن تجيبني إلى طلبة واحدة أطلبها منك..

ـ أقسم!

ـ إذن فلا بد أن أراك على صورتك الحقيقية الأولمبية..

ـ سمليه.. ماذا تقولين!

ـ لا بد..

ـ رفقاً بنفسك يا حبيبة!

ـ لن أتنازل عن طلبتي ولو مت.. لقد أقسمت يا إلهي، ويا حبيبي ويا زوجي.. ويا أبا ولدي باخوس..

ـ أنت لا تعرفين ماذا طلبت أيتها البلهاء..

ـ أنا بلهاء لأنني طلبت أن أراك في صورتك الحقيقية الأولمبية؟

ـ أجل.. بلهاء أشد البله..

ـ إذن أصر على أن أراك.. إلى هذا الحد تبخل عليّ بنعمة الخلود؟

ـ إن كان الخلود هو ما تطمعين فيه وتطمحين إليه برؤيتي فلأهبك الخلود دون أن تريني

ـ لا بد.. ولماذا لا أراك في صورتك الحقيقية الأولمبية؟

ـ لأنك لا تقوين على رؤيتي فيها

ـ لا تنسَ يا إلهي ويا زوجي أنك أقسمت

ـ يا شقية.. ما دمت تصرين.. فلك ما أردت.. تبا لكم أيها البشر.. دائما تطلبون ما يمحقكم وتصرون عليه.

* * *

ثم حدجها زيوس بنظرة تفيض رحمة، ورقى إلى السماء.. وهناك.. فوق ذروة الأولمب.. جلس الإله الحزين يفكر ويدبر.. ويتأمل ويروىء.. ويسائل نفسه كيف تقوى تلك الفتاة البلهاء.. سمليه.. على احتمال نظرة واحدة تنظرها إليه وهو في صورته الحقيقية الأولمبية..

إذن.. فهي التي جنت على نفسها بهذه الحماقة.. وسأبدو لها في أخف حالات تلك الصورة، وإن أكن أعلم أنها ستبيد.. كأن لم تكن.. وإن كنت أعلم كذلك أنني خاسر جمالاً هو سر الحياة ، وروح الوجود.. جمالاً لن تعوضني منه محاسن ربات الأولمب، ومفاتنهن جميعاً.. وأنى لي بجمال موزع في مئين ومئين.. جمعته كل سمليه، مضاعفاً مباركاً!!

وا أسفاه عليك يا أنسي ويا بهجة نفسي وعطر أنفاسي!! وا أسفاه عليك يا نغمة الوجود، وراحة الفؤاد المعمود، وقرة عين الإله المعبود، أكذاك يا حيرا الهائلة أملأ عليكن الدنيا خيراً ونعمياً، وتملآنها عليّ شراً وعذاباً أليما؟ ليتني إذ خلقت الخير، أحجمت عن الشر فما خلقته! وليتني إذ عرفت سمليه الحبيبة، نأيت عن الأولمب ولا عرفته ! ترى، ماذا يكون معنى الحياة ومعنى الخلود بدونك يا سمليه؟ وليت شعري، ماذا يكون معنى الحديقة بدون الزهر والثمر، والطير والشجر، والجدول ذي الخرير، ومائه المترقرق النمير»

وهكذا راح زيوس يرثي لنفسه، ويبكي على الذي لما يقع...

ثم اتخذ صورته الحقيقية الأولمبية، وراح يتخفف منها، ويختزل فيها، ويشذب من أطرافها ، حتى نزل بها إلى أهون حالاتها.. ثم أخذ يهبط من سماواته العلى، وأخذت الدنيا كلها تهتز وترتجف، واستشرفت الخلائق تنظر الى هذا اللألاء وذاك السناء، وتردد اسم زيوس وتسبح بحمده، ثم تخبت وتخشع، وتوشك ان تزول أو أن تتصدع...

وناداها من خارج قصرها البلوري...

وأهرعت سمليه للقائه.. ولم تكد تدرك منه لمحة واحدة.. حتى ذهبت في

الهواء أباديد. . لقد تناثرت المسكينة شذَرَ مَذَر. فها هنا شلو، وها هنا عضو. . ثم إذا الأشلاء والأعضاء تذوب وتنماث. . وإذا سمليه لم تعد شيئاً. . وإذا سمليه قد أصبحت ذكرى!

ثم ارتد زيوس في لمحة إلى صورته المختارة من الشباب والصبا. . ووقف يبلل البقعة المباركة التي تحمل أثر قدمي محبوبته، بل معبودته، بدموعه الأولمبية الكريمة. .

ثم دخل إلى قصرها البلوري، فوجد فتاها الصغير يرتع ويلعب. . ابنه. . ابنه باخوس. . . فتناوله بيديه المرتجفتين، وطبع على جبينه قبلة أسيفة باكية. . وانطلق به إلى السماء . . حيث وجد زوجاته مسرورات محبورات لموت سمليه، فسخر منهن، وأقسم ليجعلن من روحها اسمى الربات الخالدات. . وقد فعل. . فقد رفع روح سمليه إلى عليين، وهي إلى اليوم تشرف من أجواز السماء على الأزواج البررة الاوفياء المطهرين!!!

أما باخوس. . .

فقد عاد به أبوه سيد الأولمب، وعهد به إلى خالته اينو، أخت سمليه، فعنيت به عناية عظيمة، ونشأته على خير ما تنشىء عليه أبناءها، وكانت الكارثة التي أصابت أمه تضاعف عنايتها به وتزيد محبتها له. . ومع ذاك، فقد خشي أبوه سيد الأولمب أن تصيبه حيرا، عدوة أمه اللدود، ببعض أذاها، فأمر ولده هرمز، رسول السماء إلى الأرض، ورب البيان، وحبيب الرحالة والرعاة، فانطلق به إلى قصور النيسياد،عرائس الغاب اللائي يقمن في منعزلهن السحيق بعيداً عن العالم، وسط جزيرة نائية، في البحر المحيط. . فسهرن عليه، واحتفين به، لما يصيبهن لقاء ذلك من خير زيوس، سيد الأولمب. . ولما شب باخوس، وصار صبياً فتياً. . استأذن أمهاته عرائس الغاب. . وودعهن وداعاً مرحاً مؤثراً. . ثم انطلق يذرع الرحب، ويتقلب في الآفاق. . وكانت حيرا تفتش عنه في أركان العالم الأربعة، وبذلت في سبيل ذلك كل ما وسعها من جهد، ولكنها لم تعثر به، لان جزيرة النيسياد، هذه التي خبأه فيها أبوه، كانت جزيرة مسحورة، لا يهتدى إليها إلا بأذن من زيوس نفسه. . فلما وطئت قدم باخوس أرض العالم المعروف، لقيته حيرا. . . فجذلت جذلاً شديداً، وسلطت عليه من فورها طائفاً من الجنون. . فذهب عقل الإله الصغير المسكين، وراح يضرب في الارض على غير هدى، حتى لقيته رها، أم حيرا. . . فرقت له، ورثت لحاله، وشفته ببعض الاعشاب والجذور التي جمعتها من

غيضة مجاورة. . . فشكرها الإله الصغير من سويداء قلبه، ولما عرف أنها أم حيرا. . دهش دهشاً شديداً، وعجب كيف يلد هذا الخير كله ذلك الشر جميعاً. . لكنه أغضى. . ولما سألته رها عن ابنتها مليكة الأولمب، أثنى عليها ثناء طويلاً، فتبسمت قائلة: أنت يا بني أول لسان سمعته يثني على حيرا اللعينة. . فهل بذلت لك جميلاً أو أدت إليك معروفاً؟. . فأمسك باخوس ولم يرد. . واستأذن شاكراً، ومضى غير مستأنٍ إليك وفي إحدى جولاته في أطراف الأرض كشف شجرة الكرم، فراح يستنبتها، ثم أخذ يعلم الناس في كل صقع يمر به زراعتها، كما أخذ يعلمهم عصر عنبها، واستخراج الخمر مما يعصرون. . فلما عاد من الهند ، أهدى إلى أبيه زقاً مما صنع، فسر سيد الأولمب بهدية ولده سروراً شديداً، ونصبه إلهاً لهذا الشراب السحري، باعث النشوة وجالب الفرح ومبيد الاتراح. . وسماه «ابنة العنقود»

وحينما كان عائداً من الهند، كان كل تفكيره متجهاً إلى ادخال زراعة الكروم في هيلاس العزيزة، أو اليونان الكبرى، وطنه الذي انبته وغذاه لبان طفولته الأولى، في حجر أمه سمليه، الا أنه لقي بعض الأمراء اليونانيين الذي أفزعهم وروع ألبابهم ما رأوا من الحركات العجيبة التي كان يأتيها باخوس وأتباعه، أولئك الاتباع الذين كانوا يزدادون كلما مر مولاهم بقرية أو جاز بمدينة، ولم يكن أحد يفتتن بباخوس، وشراب باخوس، وعبادة باخوس كما يفتتن النساء، فكان ركبه لهذا يتكون معظمه منهن، وكن لا ينين عن الرقص والغناء من حوله، في حالة تشبه الحمى. . لذلك عارض هؤلاء الأمراء اليونانيون في ادخال زراعة الكروم في بلادهم، واشتدوا في ذلك اشتداداً كبيراً. . إلا أن باخوس ، كان يأخذ سبيله غير عابىءٍ بهم، ولا مبالٍ بمعارضتهم، إذ كان الناس، نساء ورجالاً ، ينسون أنفسهم وأوطانهم وملوكهم بمجرد تذوقهم القطرة الاولى من خمر باخوس. . وكانوا لا يكتفون بأن يصبحوا من أنصاره، بل كانوا يعبدونه ويسبحون بحمده، ويغرون الناس بعبادته. . .

وبلغ باخوس تخوم وطنه طيبة. .

وكان يحكمها في ذلك الأوان ملكها ينثيوس، ذلك الملك الفيلسوف الذي أبت له فلسفته أن يسمح لرعاياه بالدخول في هذه الديانة الباخوسية الخمرية، ولا أن يسمح لهذه الديانة الباخوسية الخمرية بدخول بلاده. . وكان يسميها ديانة المجانين، وكان يسميها ديانة المخمورين، وكان يخوض بسببها، أو بسبب فلسفته، في إلهها باخوس، ونسميه، العربيد الأولمبي الصغير. أو المجنون الذي لم تستطع رها

أن تتم شفاءه مما أصابته به حيرا، وكان ذلك كله يصل إلى مسامع باخوس، فيسخر ويهزأ ويبتسم.. ويكتفي بقوله «سيرى... سيرى سيد العقلاء، وكبير الفلاسفة».

وأرسل ينثيوس جماعة من جنوده للقبض على باخوس، والمجيء به ذليلاً مدحوراً، ولم يصغ لنصيحة مشيريه من عقلاء طيبة بألّا يمس الإله بأذى).. فلما ذهب الجند الى حيث جلس باخوس في عربته العجيبة التي تجرها صنوف كثيرة من وحوش الغابة وسباع البرية، ومن حوله الباخوسيات— وهن وصيفاته وعابداته— يرقصن ويتغنين، وقفوا ساعة يشاهدون ويعجبون، ثم هجموا على الجمع المقدس، فما راعهم إلا أن تهجم عليهم الباخوسيات هجمة مفزعة وحشية، فيفرقن شملهم، ويهزمنهم هزيمة شنيعة نكراء.. ومع ذاك، فقد استطاع جنود الملك أن يأسروا من اتباع باخوس رجلاً عجوزاً محطمًا.. ذهبوا به إلى ملكهم الذي راح يتهدد الاسير الشيخ بالثبور وعظائم الأمور، ليكون عبرة لباخوس وملأه، عسى أن يرعووا عما هم فيه من هذا اللهو وذاك العبث وذاك الجنون..

ثم سأله عن اسمه وعن إلهه وعن هذا الدين العجيب الذي أغراهم به باخوس، فسكت الرجل قليلاً ثم قال: « أما اسمي فهو آستيس، وأما بلادي فإنها ميونيا.. وأما أبواي فكانا فقيرين معدمين، لم أرث عنهما مالاً ولا ضياعاً.. وكانا يعملان في صيد السمك، فتعلمت عنهما هذه الحرفة، وورثت عنهما شصاصتهما وشباكهما، ثم لبثت أصيد السمك كما كانا يصنعان، حتى فرغ صبري، وضقت بهذه الحرفة التي كانت تجعلني ألصق بمكان واحد لا أريم عنه، واعتزمت العمل في بعض تلك السفن الغادية الرائحة في البحر أمام عيني، لما كان يخامرني من الشوق إلى معرفة ما وراء هذا البحر الرجراج، المتلاطم بالأمواج ومشاهدة الشعوب الضاربة فوق عدوته، الأخرى، وما كنت أسمعه من أفواه البحارة عن عجائب الدنيا وشواذ المخلوقات.. ولم يمض طويل منذ التحقت باحدى هذه السفن حتى غدوت رباناً ماهراً خبيراً بدرجات الشمس، واسع الدراية بمواقع النجوم، عارفاً بأحوال الرياح، والأنواء، عليمًا بمعالجة اللجج، طَبًّاً بمواضع الشطوط والصخور، حتى اشتهر أمري، وذاع في الخافقين ذكري، وصار الناس لا يأمنون في أسفارهم إلا أن يصحبوني.. وحدث في إحدى سفراتنا إلى تلك الجزيرة العائمة «ديلوس» حيث ولد إله الشمس أبوللو وربة القمر ديانا أن جنحت سفينتنا قريباً من شاطىء جزيرة «ضياء» واضطررنا إلى النزول إلى البر، وأرسلت رجالي للبحث عن شيء من الماء العذب، وقليل من الفاكهة التي اشتد إليها شوقنا ووقفت أنا على أكمة عالية أنظر إلى البحر، وأرض مده وجزره، وأزن ريحه، فما راعني إلا أن أرى

رجالي يعودون وقد حملوا شاباً مستغرقاً في نومه، وقد بدت في وجهه الغافي الوسنان أمارات النبل، وتألقت حول رأسه هالة من النور.. وكان تيار من الحب المقدس ينبعث من روحه فيعطر الدنيا من حولي، ويكاد يجعلها رضى ورضواناً وروحاً وريحاناً... وأشار إليّ رجال ألا أنبس بكلمة حتى لا أوقظ الشاب.. ثم همسوا إليّ أن هلم.. فوضعوا الشاب في السفينة، ثم أخذنا نعالجها حتى عامت، وجرت بنا ريح رخاء.. ولم نكد نبعد عن الشاطىء حتى رأيتهم يتهامسون، ثم عرفت أنهم يريدون أن يتخذوا من الشاب تجارة، فيذهبوا به إلى مصر لبيعه فيها، لما كان يدفعه المصريون إذ ذاك من أثمان كبيرة في سوق الرقيق الأبيض.. وقد نصحت لرجالي أن يعدلوا عما انتووه في أمر الغلام، نبهتهم إلى تلك الهالة من النور التي تتألق حول رأسه، وإلى ذلك التيار المقدس من المحبة الذي يشع من وجهه، وحذرتهم أنه ربما كان إلهاً كريماً، فسخروا مني، واتهموني بالخرف وذهاب الرشاد، ثم استيقظت فيهم غرائز الشر التي بذلت ما في طوقي لمحاربتها، والتي ورثوها عمن عملوا معهم من قرصان البحر ولصوص الجزائر، فهددوني، إنْ أنا عارضتهم فيما اعتزموه من بيع هذا الفتى في مصر أن يقذفوا بي وسط اليم لتلتقمني حيتانه وسباعه وأغواله..

واستيقظ الشاب عند ذلك...

وجعل يقلب عينيه بين الماء والسماء.. ثم سألنا عن حمله إلى تلك السفينة، فراح رجالي يسخرون به، وطلبوا إليه أن يحمد لهم حملهم إياه حتى لا تأكله ذؤبان الجزيرة وسعاليها.. ثم سألوه من أين والى أين، فأخبرنا أنه يريد الذهاب إلى ناكسوس التي كانت إلى يميننا، فلما أوهموه أنه ليس أحب إليهم من الذهاب به إليها، وبدأت أنا أوجه الفلك شطر تلك الجزيرة، غمزوا إليّ طالبين أن أوجهها شطر مصر.. فلما أبيت، صعد إليّ نفر منهم، وأوشكوا أن يقذفوا بي إلى البحر اللجي، لولا بقية من حياء أدركت نفوسهم الشريرة من تلك الشيبة التي تجلل رأسي ووجهي.. ثم جلس أحدهم مكاني، وراح يوجه السفينة شطر مصر.. ولم يكد يفعل، حتى تساءل الشاب قائلاً: «أيها الرجال ماذا تريدون، أن تصنعوا بي؟ أمن هذه الجهة تذهب جواري الماء إلى ناكسوس؟ ألم تعدوا أن تذهبوا بي إليها؟ وضحك الأشقياء ملء أشداقهم، وغلوا في السخرية بالغلام الكريم.. وعند ذلك، حدثت المعجزة العجيبة أيها الملك! فقد سكن الموج.. وسكتت الريح.. ثم رأينا فروع كرمة كبيرة تنمو من أعماق البحر فجاة، فتكبر وتكبر، وتعرش في

سرعة البرق فوق سفينتنا، وتعلق عساليجها بالقلوع والمجاذيف وتلتف أظافيرها(*) بالحبال والسلب، حتى غدت الفلك أشبه بالعريش الكبير الأخضر أو تكعيبة(**) العنب الطافية.. ثم ما شدهنا إلا أن نرى سباعاً وفهوداً وغوراً وكلاب ماء البحر على غوارب الموج فتكون فوق الفلك، فاغرة أفواهها، مبدية أنيابها ونواجذها التي تقطر منها المنايا، زائرة صارخة، يكاد الشرر ينقدح من الجمرات التي تتأجج في أعينها.. وحدث أيها الملك عما انتاب رجال السفينة الاشرار من الروع، وما تولاهم من الفزع، حتى لقد ذهبوا يقذفون بأنفسهم في البحر، الذي أخذ يثور بهم ويفور.. وعجيبة الأعاجيب أيها الملك أنني كنت أراهم، حينما تتلاعب بهم أمواجه، وتداعبهم أثباجه، قد تحولوا دلافين وأسماكا وسباع ماء وثعابين بحر، وإن بقيت لهم وجوههم البشرية الممسوخة التي غدت قبيحة كريهة شائهة ، وإن بقيت لها سماتها التي كنت أستطيع أن أميز بها كلاً منهم في سهولة ويسر.. فهذا دكنس الذي صار سبع ماء، والذي كان أحسن غلماني وأمهرهم في تسلق الصواري، يتخبط في الماء ويتلبط، وذاك ابيبوس، شيخ البحارة، وشيطانهم الأكبر ، قد غدا ثعبان ماء كبير الجرم، ضخم الرأس، شائه المنظر ، وهذا ميلانتوس، عامل السكان قد صار قيطساً عظيم الرأس، ينظر إلّي في انكسار وذلة.. كلهم.. كلهم أيها الملك مسخوا وتغير خلقهم إلى أبشع خلق وأشنعه..

أما أنا.. أما آستوس المسكين الماثل أمامك الآن.. فقد لذت بالشاب الكريم الذي لم أكن، إلى هذه اللحظة أعرف من هو، فهش إلّي وبش، وسكن جاشي، وأذهب الفزع عن فؤادي ، ثم تبسم قائلاً وهو يربت بيده المباركة على ظهري «لا تخف أيها الشيخ، فأنت في حمى باخوس!» ولم ألبث أن رأيتني أسجد من فوري عند قدميه، مسبحاً باسمه، شاكراً نعماءه، مثنياً على ما حماني من هذه السباع، والضباع، والنمرة وفهود الماء، حامداً إياه انْ لم أصر واحداً من وحوش البحر التي صار إليها زملائي..

ثم سكنت الريح وسكت الموج، ونامت العاصفة، وشرعت عساليج الكرمة العائمة وأظافيرها تنفك وتتقلص.. ثم تتلاشى.. وإذا سفينتنا تعود سيرتها الأولى، وإذا هي تجري فوق الماء بحملها من تلك الوحوش العجيبة.. وإذا باخوس الكريم يشير إلّي أن آخذ مكاني من القيادة ، فأمتثل، وأوجه السفينة إلى

(*) أظافير الكرم خيوطه الخضر الدقيقة.

(**) عربيتها الكعب والكعاب والكعبة.

ناكسوس، فنصلها في سويعات، وكانت الرحلة تستغرق إليها أياماً.. فأدهش،.. ولكني أذكر أنني أحمل على سفينتي الحبيبة إلهاً أولمبياً قادراً، فأصبح بحمده شاكراً ووصلنا إلى ناكسوس..

وهناك، خرج الإله الكريم ليجول جولة في جزيرته المحببة، فلقى فيها فتاة محزونة جلست في روضة يانعة تشكو بثها للنسيم الذي كان يداعب شعرها، ولماء الجدول المترقرق تحت قدميها المعبودتين.. وخلبت الفتاة لب الفتى الإله، فاقترب منها، وشرع ينفذ بسحره إلى سويدائها، حتى أنست إليه، وأخذت في فيض من الدموع تقص عليه قصتها، فاذا هي الفتاة الهيفاء، ابنة الملك مينوس، الاميرة آريادن، التي هدت البطل تيذيوس إلى الطريقة التي قتل بها الوحش «مينوطور» والتي كانت قد شرطت على البطل لقاء ذلك أن يتزوجها، فقبل، ولما قضى وطره، وأقلعت بهما الفلك، عرج بها على ناكسوس، حيث غدر بها، وتركها وحدها فيها، لأنه لم يكن يطيق ذكرى الإساءات التي أذل بها والدها أباه ووطنه.. ولكن فينوس عثرت بها في تلك الجزيرة، أو ذلك المنفى، فواستها، وبشرتها بأنها سوف تحظى بحبيب من الآلهة يرفعها إلى مرتبة ربات الأولمب، وينسيها غدر هذا الفتى من بني الموتى.. تيذيوس.. فلما رأت باخوس، لم تشك قط في أنه الحبيب المنتظر، والزوج الموعود، وذلك لما لمحت فوق رأسه من هالة النور المقدسة، وما كان ينبعث منه من ذلك الفيض الروحاني العجيب، الذي يأسر الافئدة ويستولي على القلوب..

واستروحت إليه آريادن، ووضعت قلبها بين يديه، فلما أنبأها بسره، فاضت عيناها بدموع المسرة، وشكرت له تنازله العظيم بطلبه الزواج منها.. فتبسم، وطبع على ثغرها الأقحواني قبلة الخلود.. وصارا أسعد زوجين، وأهدى إليها تاجها الذهبي الخالد، ذا الجوهرتين النادرتين..

ثم عاد بها إلى السفينة، فكانت الوحوش ترقص، والموج يثب، والنسيم العليل يرسل أغنياته التي خيل إليّ أنها تملأ الدنيا علينا بأعذب الألحان.. ولم تزل هذه حالنا حتى وصلنا إلى بلادك أيها الملك.. فلما نزلنا إليها.. نظرت إلى البحر محزوناً، مشجوناً، دامع العين باكي القلب، وسألني باخوس عن حالي ذاك.. فشهقت شهقة أحسست أنني أجود فيها بآخر أنفاسي، ثم قلت والدموع تحبس منطقي: رفاقي يا الهي الكريم رفاقي.. رفاقي الذين عاقبتهم عقابك الصارم العادل.. الا تعفو عنهم وتغفر لهم؟ فتبسم باخوس، وربت على كتفي.. ثم قال: آه أيها الشيخ آستوس ما أعظم قلبك، وأعلى روحك.. أما زلت تذكر أولئك

الاشقياء بخير. . وقد كادوا يبطشون بك؟ . . ولكن لا ضير. . انظر. . ثم أشار إلى البحر باصبعين، فانشق عن الدلافين والاسماك وسباع الماء وثعابين البحر التي تحمل وجوه أصحابي. . فعجبت غاية العجب. . ولا سيما حين رأيتهم يذرفون دموع التوبة، ويسكبون عبرات الاستغفار، ثم أشار باخوس باصبعيه ثانية، فخرج المساكين من الماء أناساً كخلقهم الاول، ثم سجدوا بين قدمي الإله الكريم يطلبون العفو والمغفرة، فعفا عنهم، وتجاوز عن سيئاتهم. . وهم اليوم معنا يخدموننا فيمن يخدمنا من الخدم والحشم. .

أفبعد هذا الذي سمعت تريد أن تحارب باخوس أيها الملك، ولا تسارع فتدخل في دينه، بل في خدمه، ولك الشرف الأكبر، بأن تكون أقل عبد من عباده؟. . أراك تضحك مستهزئاً أيها الملك الشقي. . إلا أني أحذرك مغبة استهزائك. . أنا أستوس كاهن معبد باخوس المبارك القادر على كل شيء. . احذر أيها الملك أن تكون سخريتك وبالاً عليك وعلى آلك أجمعين»

ولكن الملك لم يترك الرجل يتم نذيره، بل أمر رجاله بسوقه إلى حيث يطيحون برأسه جزاء جرأته، فانطلقوا به إلى السجن، ريثما يعدون له المقصلة. . . ولكن. . . لقد تبارك باخوس، فهذه ابواب السجن تنفتح من تلقاء نفسها، وهذه أصفاد الرجل تتناثر عنه كأنها من قش هشيم. . ثم هذا هو السجن قد خلا من آستوس دون أن يراه أحد من حراسه الغلاظ الشداد، الذين وقفوا مبهوتين مشدوهين. . لأن الرجل الذي كانوا يراقبون لا يمكن أن يكون قد ابتلعه الهواء، أو ساخت تحته الأرض. . وهو لم يخط خطوة واحدة من مكانه. . فأين ذهب؟. . باخوس وحده يعلم وغيره لا يعلم. .

وكان في هذا وحده نذير الملك الذي ركب رأسه، وصمم على أن يذهب بنفسه على رأس ثلة من جنوده الاقوياء المختارين للبطش بباخوس وملإه، ومن يلوذ به من أتباعه. . نساء ورجالاً. .

وانطلق الملك بنثيوس المسكين المزهو بنفسه وبجنوده إلى جبل كثيرون، حيث كان يقيم باخوس وعباده، وحيث كانت ترانيمهم وترتيلاتهم ورقصهم وغناؤهم تملأ السهل والجبل معاً، وحيث كانت جموعهم تغطي شعاف الجبل وأحياده من كل جانب. . وكانت أصواتهم التي تصم الآذان قد ملأت أذني بنثيوس وآذان جنوده من بعد، فأثارت فيهم حمية الجاهلية، وحماسة الجبارين المكذبين، كما تثير الطبول قبيل المعمعة كوامن الزهو في أفئدة الخيل، فتعلك لجمها، وتكاد تقضمها قضماً. . وكان اتباع باخوس قد أشعلوا ناراً عظيمة وجعلوا يرقصون حولها في عنفوان

وجنون، وكان الملك قد هاله هذا المنظر الذي يتهتك فيه النساء على هذا النحو، فوقف لحظة في ناحية من الغابة المجاورة يرى ويتعجب، ويملأ قلبه الأسف.. ورأى بينهم أمه.. أمه التي حملته وجاءت به إلى هذه الدنيا رآها بينهن ترقص وتخلج كالمجنونة ، وتصيح وتهتف وتغني، وترسل في الهواء تلك الساق ثم هذه الذراع.. ثم تضم تلك المرأة وهذه الفتاة.. كالتي فقدت وعيها، أمه أجاف العظيمة التي خلب باخوس لبها.. وأذهب عقلها..

ولم يطق بنثيوس صبراً، فصرخ صرخة هائلة عرفت فيها أمه صوت ولدها، فالتفتت إليه، ثم صاحت بصويحباتها كما تصرخ اللبؤة: أنظرن.. خنزير بري.. خنزير بري... شر الوحوش التي تأوي إلى تلك الغابة.. هلم نقتله يا صويحباتي..

وفي لحظات كن جميعاً عنده.. بالمئات والألوف.. ثم أحدقن به، وما هاله إلا أن ينظر فيرى في يد كل منهن سلاحاً مخيفاً لا عهد له به، لم يكن في أيديهن من قبل... ورحن ينشنه.. ويخزنه أول الامر وخزاً أليماً موجعاً...

ونظر بنثيوس حوله فرأى جنوده، قد ولوا الأدبار.. ووجد نفسه وحيداً فريداً وسط هذا الجيش المضحك المخيف العرمرم.. الذي تقوده أمه.. وعماته.. وخالاته..

وظن الملك أن المسألة أقمن، ومصانعة هؤلاء المجنونات أخلق.. فراح يسأل الصفح ويعترف بالاثم، ويطلب المغفرة، ويرجو أن يقبلنه عبداً من عباد باخوس.. إلا أنهن لم يصخن إليه، بل جعلن يتضاحكن منه، ثم رحن يمزقنه ارباً، وراحت أمه تجز الرأس العزيز، ثم تشكه برمح طويل، وترفعه في الهواء، وتنطلق به فرحة مزهوة إلى.. باخوس.. وهي تملأ الدنيا بصيحاتها المجنونة: «انتصرنا، انتصرنا، المجد لنا».

تلك يا حبيبي قصة باخوس وقرصان البحر.. فهل رأيت إلى إله الكرم الرحيم؟ ما لك تعبس هكذا؟... ألا تزال تفكر؟...

ولقد كان أونيوس يفكر حقاً.. إلا أنه كان يفكر هذه المرة فيما أصاب بنثيوس من بطش الباخوسيات وعلى رأسهن أمه وخالاته عماته.. وقد ناقش كليتي في ذلك، فافترت عن ثناياها الرطاب العذاب، ثم طمأنته قائلة: « ألم يكن بنتيوس يستحق هذا المصير يا حبيبي؟ ألم يكن قد جرد بأسه ليقتل باخوس والباخوسيات؟ ولماذا كن في نظره يستأهلن هذا القتل؟ وأجابها أونيوس بأنهن كن يستأهلنه لأنه

ليس في الدنيا دين يبيح هذا اللون من الفسوق الذي يتغفلون الناس ويتغفلون أنفسهم فيسمونه عبادة. . .

وريعت كليتي. . وأشارت بسُبّابتها الجميلة الناعمة إلى فمها الأرجواني الأحوى: أنْ اصمت يا أونيوس. . اصمت إنك تجدف في حق باخوس. . وإن كان مصير هذا الملك قد آلمك. . فقد علمت أن باخوس الغفور قد عفا عنه، ورده إلى الحياة، فذهب هو بنفسه، ليدعو قومه إلى هذا الدين الجديد، الذي دخل فيه الناس جميعاً. . .

قصصت عليك هذا القصص مما روى عرائس الغاب عن باخوس، لتعلم أن الذي أصاب أباك من فتنة الذهب، وما انتهت إليه تلك الفتنة مما لحق بالناس وبأمك وأختك، هو خير لا شر. . وأن علاجه أهون على باخوس من رد القرصان سباع ماء وكلاب بحر، ثم ردهم إلى خلقهم الأول الذي كانوا عليه، ثم جمعهم باشارة هينة من أعماق اللج وأقطار البحر فيكونون عند قدمي باخوس في غمضة عين، وليس ما أصاب أباك وأهلك من وبال تلك الفتنة أبْشع مما أصاب بنثيوس من القتل والتمزيق. . ولا علاجها أعسر من رده إلى الحياة بعد الذي أصابه. . هلم بنا. . . »

ولما سألها أوينوس: إلى أين؟ تضاحكت ثم قالت : إلى حدائق أبيك الذهبية يا حبيبي، وكأنما عاود أونيوس ما سكن عنه من الروع، فجفل، ثم حاول أن يثني الفتاة عن التوجه إلى الحدائق المسحورة، لكنها عادت إلى ضحكها الجميل العذب، ثم أخبرت اونيوس أنه لا معدى لهما عن الذهاب ثمة، لشهود مؤتمر الآلهة: الذين دعاهم باخوس، للنظر في قضية والدك يا حبيبي. . وليروا بأعينهم نهاية أحلامه الذهبية. . وما جرت عليه عبادة الذهب من آلام وأحزان. .

وازداد اونيوس ضيقاً بفكرة الذهاب إلى قصر أبيه، إلا أن عروس الغاب لم تفتأ تغريه بشهود أرباب الأولمب ورباته واتباع أولئك ووصيفات هؤلاء حتى رضي آخر الأمر أن يتبعها خائراً متخاذلاً. .

* * *

هل ترى يا أونيوس إلى هذا الإله الكريم الذي يوشك سناه أن يذهب بسنا الآلهة جميعاً؟ وهذا الإله الجالس على عرش ممرد من قوارير؟ الجالس في الطنف. . إنه زيوس سيد الأولمب. . .

وهل ترى إلى هؤلاء الجالسين على يمينه؟ إنهما اخواه. . فهذا بوسيدون إله

البحار الذي وصل إلى قصر أبيك في عربته العجيبة المرجانية، التي تجرها خيول ليست كهذه الخيول التي ترونها في دنيا البر.. بل هي جياد غريبة لها ذيول مكان أرجلها الخلفية تشبه ذيول السمك، تدفعها فوق أعراف الموج دفعاً يسبق الريح، إن لم يسبق الوهم.. ثم ذاك بلوتو.. بلوتو إله الدار الآخرة.. إله هيدز.. فهل ترى إلى الافراح والاتراح كيف تعترك في أسارير وجهه؟ وهل ترى إلى هذه الجالسة إلى جانبه، تود لو تفلت منه بجمالها الباكي الحزين؟ إنها زوجته بروزربين(*)، زوجته، المسكينة التي تقاسمه ظلمات ملكه السادر البغيض..

أما الجالسات على شمال زيوس فهن زوجاته.. زوجاته جميعاً.. إلا حيرا.. فلقد كرهت سيدة الأولمب أن تلبي الدعوة لشهود معجزة باخوس!

أما اولئك المنتثرات في الغياض القريبة من الطنف، فهن بنات زيوس.. ولعلك تنظر الآن إلى أجملهن، وأكثرهن نضارة وفتنة، متسائلا: ترى؟ من تكون هذه الناهد المكورة(*) اللعوب، التي تكاد عيون الآلهة تلتهمها؟ هذه فينوس يا أونيوس، فهل رأيت خمل الورد الذي يذوب سعيداً فوق بشرتها؟

ثم هذه ديانا.. هذه التي تهبط من السماء في مركبتها الفضية، التي تتخذها من قمرها الحبيب حينما يكون هلالاً.. وددت لو رأيتها يا أونيوس وهي تهبط في سكون الليل، حتى إذا دنت مركبتها من شعاف الجبل الذي ينام فوقه حبيبها الراعي انديميون، الذي قضت عليه أن ينام في مثل تلك الساعة من كل ليلة نوماً سحرياً كي تفوز منه بقبلة طويلة سعيدة، ذهبت لميعادها تشتار تلك القبلة، فمست بشفتيها الظامئتين المرتعشتين شفتيه النائمتين، الحالمتين، والفتى السعيد يرى في المنام جمال الأولمب كله يتجسم فمًا حبيباً في وجه فاتن.. ثم يمتد إلى فمه الجائع المتلمظ فيطعمه تلك القبلة الطويلة الخالدة... ويأبق فلا يعود إلا في ميعاده.. لله كم تمنى أنديميون أن ينعم بتلك القبل الأولمبية في يقظته.. ولكن.. بلا جدوى..

ولعلك تسائل نفسك عن هذه الغادة الفاتنة الفينانة المتشحة بأعواد الزهر، واقفة عند النبع تنظر إلى تماثيل أبيك، فواحة تتأرج.. إنها فلورا يا أونيوس..

(*) او برسفونيه.

(*) المكورة من النساء المتناهية في الحسن، المدمجة الخلق، المستديرة الساقين.

فلورا ربة الفردوس، وربة الزهر والثمر، وربة العذارى.. زوجة زفيروس إله النسيم الجنوبي الذي يصحبها في كل مكان، ويهب مع شذاها الجميل العطري رحمة ورضواناً في قلوب العاشقين، يأسو الجراح، ويداوي الكلوم، ويطب لندوب الصبابة..

أما هؤلاء المعتزلون فهم أبناء زيوس وأحفاده.. وفيهم عزولك المتحجر القلب... أبوللو. أقبل في حشد كبير من وصيفاته وتلميذاته عرائس الفنون وبنات الغاب.. وها هن أولاء يتواثبن على أفنان الأشجار الذهبية كنسمات الربيع في بواكير مايو، وقد صحبت كل منهن آلتها الموسيقية...

اسمع يا أونيوس.. هذه موسيقى يوتيرب «أميرة الغناء» وربة الناي الذي يبعث الشجو. أما هذه التي ترقص على نغماتها فإنها تريسيكور.. تريسيكور الرشيقة المفتان التي تشبه وثباتها رفيف الأوتار، وسفسفة القيثار.. أكبر ظني أن موسيقى يوتيرب، ورقص تريسيكور، أذان ببدء المحاكمة! لله ما أسعد أباك حتى في محنته، أوه. لقد حركت اراتو أوتار قيثارتها لتضبط ايقاع الرقص لربة الرقص، وتقيم أغاني يوتيرب التي انطلقت تشدو، وتملأ آذان الآلهة..

ولكن.. ليت شعري لماذا تتغنى يوتيرب بأشعار من نظم كاليوب، ولا تتغنى برقائق أشعارها، وهي ربة الرقائق الغنائيةالتي طالما أسكرت العشاق ورفهت عن المحبين، وتنزلت على قلوب الشعراء وحياً خالداً، وإلهاماً مبيناً؟

إن كاليوب هي عروس أشعار الملاحم، فيا ترى.. أنرى الآن ملحمة في هذه الحديقة يا أونيوس؟

ماذا؟.. ألا تعرف كاليوب؟ أنها أجمل عرائس الفنون، وقد سلبت أبوللو فؤاده، ولم يزل يترضاها ويتوسل إليها حتى رضيت به بعلاً.. فلما تزوجها أولدها ابنه أورفيوس، هل تذكر أورفيوس؟ أورفيوس.. الموسيقي البارع.. حبيب يوريديس.. الذي كان يأسر الوحش، ويحرك الجبال، ويراقص النجوم بموسيقاه..

مالك مطرقاًساهماً هكذا؟.. فيمَ تفكر يا حبيبي.. ألا تكلمني؟

ولم يزد أونيوس على أن قال لها، وهو يمسح دمعة خفيفة من عينيه، إنه لا يحب أن يسمع أي حديث عن أبوللو.. لا لأنه كان عزوله في حب كليتي فحسب، بل لأنه يمقته فهو عدو أبيه ميداس، وأول من أصابه بالخزي في هذه الحياة الدنيا..

ولم تكن تعلم كليتي شيئاً مما يعنيه أونيوس، وكانت توشك أن تسأله عما صنع أبوللو بأبيه، لكن ناقوساً كبيراً أخذ يرسل رنينه الذهبي في أجواء الحديقة، فقطع حديثهما، لأن الآلهة وقفت جميعاً، ايذانا ببدء المحاكمة.. وهو تقليد أولمبي عجيب فيه إكبار للحق، وعرفان بشأن العدالة..

ثم جلس الآلهة، وأمر زيوس بإحضار ميداس الخبيث.. فجاء وهو لا يكاد يتماسك، إذ كان يربط حجراً كبيراً على بطنه، زاده ثقلًا أنه تحول حجراً من ذهب.. فكان يهوي بميداس إلى الأرض بين كل خطوة وأخرى....

ولم يكد ميداس يعرف أنه في حضرة كبير الآلهة، وسيد الأولمب، وفي حضرة الأرباب أجمعين، حتى صاح ملء فمه ، والدموع الذهبية تسيل من عينيه،

أغثني يا إله السموات.. ادركني برحمتك يا أرحم الأرحمين..

مرْ لي بلقمة فقد أوشك الجوع أن يقتلني.. وبشربة ماء فقد كاد الظمأ يقضي عليّ..

وقهقه الإله، ثم سأله زيوس عن سبب جوعه، وعلة ظمأه، فصاح ميداس:

ـ سببهما تلك البركة التي أهلكني بها ابنك باخوس! أكان لا بد أن يتحول ذهباً كل طعام أمسه، وكل شراب أتجرعه؟.. أهكذا يتفضل الآلهة فتنعم بتلك المهلكات؟ أهذا جزاء ما أكرمت به أستاذه سيلينوس؟ جزاء هذا أن يقتلني من الجوع، ويرديني من الظمأ؟

ويقهقه الآلهة مرة أخرى..

ثم يسأل زيوس ولده باخوس عما يزعم ميداس من ظلمه إياه، فيقص باخوس على أبيه كل ما كان من هذه المأساة، وما عرضه على ميداس من بركاته الأخرى.. المحبة.. التوفيق.. إحياء الموتى وإبراء العُمْي.. ثم رفضه إياها جميعاً، وإصراره على أن يتحول ذهباً كل ما يمسه بأي جزء من جسمه...

وهنا.. يصيح ميداس:

ـ أكان حتماً أن يتحول طعامي وشرابي ذهباً أيضاً؟ ألم يكنِ مما يجمل بباخوس، ألا يجعل نعمته التي أنعم بها عليّ نقمة تودي بي؟

ويقهقه الآلهة أيضاً...

ولكن إلهاً واحداً لا يبتسم، بل يعبس ويتجهم، ثم يقف فجأة فيستأذن أباه في الكلام.. أما ذلك الإله فهو أبوللو.. أبوللو خصم ميداس من سنين خلت..

ويأذن زيوس لابنه رب الشمس والموسيقى بالكلام.. فينظر إليه ميداس وفرائصه ترتعد، وأسنانه تصطك، وعيناه تزيغان، لما يعلم مما يضمر له أبوللو من الكراهية والبغضاء، منذ ذلك اليوم الذي تبارى فيه أبوللووبان.. إله المراعي.. في العزف على الناي.. وكان الحكم بينهما هذا الملك البائس السيء الطالع.. ميداس.. الذي كان إذ ذاك من عباد بان المخلصين، فلم يسعه إلا أن يحكم لإلهه، وأن يعطيه قصب السبق على إلهالموسيقى أبوللو.. الذي كان في وسعه أن يبدل منازل النجوم بموسيقاه..

ويقول أبوللو:

ـ والدي سيد الأولمب،إخواني أرباب الأولمب جميعاً، إن كان هذا الرجل النزق قد أضحككم، فإنه لم يفعل من ذلك كثيراً حتى يخلع تلك العمامة الكبيرة الذهبية، التي تخفي تحتها أكبر فضيحة تصور لكم عقلية هذا الملك الذي سفه نفسه، فطلب من أخي باخوس ما طلب..

وتعلقت أبصار الآلهة برأس ميداس، تريد أن تنظر إلى ما تحت العمامة.. وطلب إليه زيوس أن يخلعها، ليرى الآلهة ما تحتها.. لكن الرجل اضطرب اضطراباً شديداً... وبدلاً من أن يطيع أمر سيد الآلهة، أمسك بكلتا يديه فوق العمامة، حتى لا تطير من فوق رأسه بكلمة يرسلها أحد الآلهة فتطيعها العمامة، وإن لم يطعها ميداس..

ولم يملك أبوللو هذه المرة الا أن يضحك.. وعجب الآلهة لضحك رب الشمس.. الذي أشار إلى العمامة بسبابته اليمنى، فطارت من فوق رأس ميداس.. لتكشف من تحتها عن أذنين طويلتين مكسوتين بالشعر، هما بلا شك اذنا حمار..

ويقهقه الآلهة.. ولا يملكون إلا أن يصفقوا كما يصنع عبادهم من البشر حينما يملك عليهم إعجابهم شيء غريب غير عادي.. ثم يقول أبوللو:

أرأيتم يا اخواني؟ هذا هو ميداس إذن.. هذا هو الملك الذي سفه نفسه، فظن أن الذهب هو أثمن ما في الوجود.. لقد كان هذا دأبه في الحياة دائماً.. لقد عرفته حينما ساقته الصدفة ليكون حكماً بيني وبين بان، إله المراعي، في مباراة

موسيقية فحكم لبان، الذي وعده بحفنة من الذهب. . فعرفت أنه حمار. . وأنبت له هاتين الاذنين اللتين بذل ما في وسعه لسترهما، فلم يعلم سرهما إلا زوجته البائسة، وحلاقه، أجل. . حلاقه الذي تهدده ميداس بضرب عنقه إن هو أفشى سر أذنيه. . فلم يطق الرجل، بل ذهب، بعد أن عانى في سبيل اخفاء سرهما ما عانى. . وهو ككل الحلاقين لا يعرف كيف يصون سراً. . ذهب إلى برية موحشة، حيث حفر حفرة عميقة ونزل إليها، ثم جعل يصيح فيها: إن ميداس الملك، له أذنا حمار. . إن ميداس الملك له اذنا حمار. . . إن ميداس. . الملك. . حمار. .

ثم خرج الحلاق المسكين وقد نفض عن قلبه عبء هذا السر. . ولكن الحفرة لم تلبث أن رمدتها ريح بردم، ولم يثبت الردم انما فوقه غاب وقصب لا تكاد الرياح تضرب أوراقه حتى يصيح بالف فم والف لسان: إن ميداس الملك . . له اذنا حمار. . إن ميداس الملك . . حمار.

ويقهقه الآلهة. . ويقهقه أبوللو أيضاً. .

* * *

وسمع اونيوس قصة أذني أبيه، فكاد ينفجر من الهم. . وعرفت كليتي سر كراهيته لهذا الإله أبوللو، فأرادت أن تواسيه بكلمات لا تغني في مثل هذا الموقف المؤلم. . لكنها أرادت أن تقول شيئاً. . والسلام. . إلاّ أن أونيوس كان قد غشي عليه، ولم تدرِ عروس الغاب ماذا تصنع، إلا أن تضع رأس حبيبها فوق صدرها، وإلا أن تروح على وجهه بشيء من أوراق الشيبر. .

ثم تسمع بين الاشجار التي لم تصبها لعنة الذهب خشخشة ، فتتلفت كليتي. . وإذا هي ترى ميروب، أخت أونيوس الكبرى، ومن خلفها هذا الفتى الصغير الحدث، ميتوس. . كانا قد فرا بنفسيهما حينما شهدا تلك اللعنة التي تتدفق في جسم أبيهما، حينما تحولت أمها وأختها الصغرى إلى ذهب، بعد أن مسهما تلك اللمسة المشؤومة، وقد أقبلا الآن ليعرفا سر ذلك الجمع المحتشد في حديقة القصر البائس. .

وأحسنت كليتي لقاءهما، وعالجت ميروب أخاها حتى أفاق من غشيته، ثم أخبرتها كليتي نبأ آلهة الأولمب، وسر احتشادهم في قصر الاحزان. . فلم تضع ميروب لحظة واحدة، بل اندفعت بين الاشجار تفرق أغصانها. . وتشق طريقها إلى هذا الجوسق الذي جلس الآلهة فوقه، وتفرقوا من حوله، حتى إذا كانت بين يدي سيد الأولمب، أخذت تصيح بصوت كله ألم وكله ضراعة، طالبة إلى كبير الآلهة أن

يدرك أمها وأختها بلطفه.. ثم توجهت إلى باخوس الكريم فتوسلت إليه أن ينتزع من أبيها تلك المنة.. أو تلك اللعنة..

وتلفتت ميروب إذ سمعت أباها يناديها باسمها.. لكنها لم تعرفه.. ولم تكن قط قد رأت هاتين الاذنين المنكرتين تشوها وجه الملك.. لكن ميداس أخذ يناديها حتى أيقنت أنه هو...

وكان الرجل يبكي بكاء موجعاً ، وهو يرجو ابنته أن تتوسل إلى باخوس عسى أن يأمر له بلقمات وبجرعة من ماء تصل إلى جوفه، دون أن تتحول ذهباً: توسلي إليه يا ميروب.. توسلي إلى هذا الإله الشقي «عسى أن يرحمني.. إن الجوع يكاد يقضي عليّ، والظمأ يكاد يعتصر أحشائي»

ثم ينسى الرجل لعنته فيثب إلى ميروب كي يأخذها في ذراعيه.. ولا يكاد يمسها، حتى يتسرب الذهب إلى جسمها.. وتتدفق صفرته في بنيانها، فتجمد الفتاة في مكانها، كما تجمد الدموع فوق خديها، وملء عينيها..

ويقهقه الآلهة مع ذاك.. بينما يتلوى ميداس من الجزع.. والفزع.. ولكن الاشجار تنفرق مرة أخرى.. ويكون اونيوس هو الذي يشق طريقه بينها هذه المرة، ومن ورائه أخوه ميتوس.. حتى إذا كانا قاب قوسين من سيد الأولمب طفق أونيوس يبرق ويرعد، ويسائل الآلهة عما أضحكها من تحول أخته إلى هذا الذهب المشؤوم، كما تحولت إليه أمه واخته الصغرى من قبل:

«هل خلقتمونا لنكون لعباً لكم يا أرباب الأولمب؟ أ إذا حكم أبي لبان على أبوللو، نقم منه أبوللو فصيره إلى ما ترون؟.. ثم يعجز بان عن أن يصنع شيئاً لأبي لأنه لم يؤت قدرة رب الشمس؟ ومع ذاك فقد كان بان يعزف في ناي ربة الحكمة مينرفا.. ذلك الناي الذي قذفت به حينما رأت صورتها في الماء، وهي تنفخ فيه، فهالها قبح منظرها، فأخذه بان فنفخ فيه، فخرجت منه موسيقى ربة الحكمة.. الموسيقى العلوية التي تردد أصداءها أفلاك السماوات، فما ذنب أبي إذا خيل له أن موسيقى مينرفا أعظم من موسيقى رب الشمس؟ ثم إذا كان أبي يستأهل هذا الجوع وذاك الظمأ اللذين يعذبانه، فما ذنب أمي وأختي هذه.. يكنّ تماثيل ميتة هكذا؟»

وكانت غشية خفيفة قد أصابت ميداس، فلم يكد صوت ابنه يصك اذنيه الكبيرتين المهولتين حتى أفاق من غشيته، وحتى وثب يتوسل إلى أونيوس أن يرجو الآلهة في لقمة، لقمة واحدة يتبلغ بها.. وشربة ماء... شربة واحدة.. تشفي

ظمأه.. وتخفف جواده، ثم يثب ميداس وثبة ثانية.. يريد أن يعانق ولده.. لكن أونيوس يثب هو الآخر خفيفاً رشيقاً.. فيثب ميداس وراءه ناسياً لعنة الذهب التي أصابه رجسها. إلا أن أونيوس يبتعد عن أبيه الذي لا يملك إلا أن يجري وراءه، فيجري أونيوس.. بل يطلق ساقيه للريح، ويقهقه الآلهة..

لكن قهقهتهم تنقطع فجأة، حينما يعود الملك فيجد ابنه الأصغر .. ابنه ميتوس قد وقف يبكي.. ويضرع إلى سيد الأولمب أن يتلطف، فيعيد الحياة إلى أمه واختيه.. وأن يرحم أباه المسكين فيرفع عنه هذه اللعنة..

وكان الفتى ينزف روحه من عينيه وهو يبث شكواه إلى سيد الأولمب.. وكانت دموعه الحزينة تفجر ينابيع الرحمة في قلوب الآلهة جميعاً.. فلم يضحك منهم أحد.. ولم يسخر منه أحد.. بل تفضلت مينرفا فوقفت تستأذن أباها في الكلام.. فلما أذن لها، توسلت اليه أن يأمر ولده باخوس فيشفي الملك من لعنته، وأن يرفق بهذه الأسرة البائسة فيرد إليها ما غاض من ماء حياتها.. ثم تكلمت مينرفا كلاماً طويلاً جميلاً فيما يخلق بالآلهة أن تعامل به بني الموتى من رفق ومرحمة، وغض عما ركب في رؤسهم ونفوسهم من جشع وطمع.. وغرور وكبرياء..

وشكر زيوس لابنته حسن حديثها، وأمر ابنه باخوس أن ينظر فيما أشارت به مينرفا.. فوقف باخوس وهو يبتسم، وبرأ نفسه من مظنة القسوة، أو العسف، وقص طرفاً من حديثه مع ميداس.. ثم قال للملك البائس إنه إن أراد أن تذهب عنه لعنة الذهب، فيجب قبل كل شيء أن يقسم باسم سيد الأولمب ألا يتردد في لمس كل ما أصار ذهباً، ليعود إلى ما كان عليه من قبل، وإلا .. فسوف تصيبه لعنة أشد من لعنة الذهب، وأعظم فتكاً..

وأقسم ميداس باسم الإله الأعظم أن يفعل.. بل أقسم أن يتخلى عن كل ما يملك من ذهب لمعابد الآلهة.. فتبسم باخوس.. وأمره بأن يذهب إلى نهر باكتولس، وأن يترسم مجراه حتى يكون عند منابعه، فيغمس نفسه في مياهه، وأن يتطهر فيها من أدرانه، ويطلب الصفح عن خطاياه.. فإذا عاد، فليلمس كل شيء أصاره ذهباً، ليعود إلى صورته التي كان عليها من قبل.

وأراد سيد الأولمب أن يتم ذلك كله في لحظات، فأمر ولده هرمز بأن يحمل الملك ميداس إلى منابع نهر باكتولس، وأن يعود به بعد أن يتطهر.. فتقدم هرمز إلى الملك، ثم حمله.. وغاب به في أجواز السماء...

* * *

ونهض سيد الأولمب . . فنهض الأرباب، وساروا خلفه، ليشهدوا قصر ميداس وليجولوا في حديقته، حتى يروا ما صنع هذا الملك الجشع البائس. . بأبنائه وسائر أهله ورعاياه. .

ولم يكادوا يفرغون من جولتهم حتى عاد هرمز من رحلته الطويلة، التي لم تكن تستغرق من ميداس أقل من عامين، وقد حمل الملك المسكين فوق كاهله. . فوضعه أمام الجوسق. . . حتى إذا عاد سيد الأولمب، وعاد من خلفه الآلهة. . أخذ هرمز يقص ما كان من تطهر الرجل وما تحولت إليه رمال النهر من الذهب الخالص، والتبر البراق العجيب. . .

وأمر كبير الأرباب ميداس بأن ينطلق فيرد رعاياه إلى صورهم الأول، وأن يبدأ بخدمه قبل أهله. . فانطلق الملك كالمجنون بين حنايا الحديقة يلمس الرجال والنساء والأطفال لمساً سريعاً خاطفاً، فتدب فيهم الحياة، ويأخذون في حركة ذاهلة. . كمن استيقظ من حلم مخيف مزعج. . .

وكأنما أراد الملك أن يؤكد ما أمره به سيد الأولمب، فآثر أن يرد الحياة إلى الخيل والحمير والبغال والبقر والغنم. . قبل أن يردها إلى زوجته وابنائه. . وما كاد يفعل هذا، حتى قهقه الآلهة. .

ولم يخجل ميداس. . بل ذهب في رد الحياة إلى حيواناته كل مذهب. . وكأنما نسي جوعه وظمأه، فلم يفكر في أن يأكل شيئاً من ثمار بعض الاشجار التي كان يلمسها عفوا، فتعود إليها خضرتها ونضرتها، وتشع الحياة من ثمارها الدواني، حتى سقطت أمامه تفاحة كبيرة طيبة الشذى، زكية العرف، فتذكر مسغبته فجأة، فانحنى على التفاحة وأمسك بها، وجعل يقضمها قضم الجائع الخميص(*) النهم. . غير ملقٍ باله إلى ما يثير عمله هذا من ضحك الآلهة. . .

ثم يذكر ظمأه. . فيقصد أقرب غدران الحديقة فيقذف بنفسه في مائه، ثم يعب منه قبل أن يتحول ذهبه إلى ماء. . ولماذا ينتظر، وسيتحول الذهب ماء في جوفه على كل حال؟ ثم يبرز من الغدير، ويتوجه إلى القصر ، فيغيب فيه لحظات، ثم يعود ليقف بين يدي زيوس، فيقسم أغلظ الاقسام أنه رد الحياة إلى زوجته وابنته. . وأنهما على أثره ليسبحا بحمد سيد الأولمب، وليشكرا له. . ولكن الآلهة تغرق في الضحك. . وتنبهه مينرفا إلى ابنته ميروب، تلك التي انتصب

(*) الخميص من أصابته المخمصة وهي أشد ألوان الجوع. . .

تمثالها الذهبي منذ ساعة، يشكو البرد والجمود.. فينطلق إليه ميداس، ويمسه على عجل، وتدب الحياة الحارة في الذهب البارد، وتتحرك ميروب.. وتنظر إلى أبيها، ولا تكاد تتبينه حتى تصرخ صرخة تتردد أصداؤها في جنبات الحديقة التي عادت اليها الحياة.. ثم تولي الأدبار.. ويجري ميداس في اثرها.. ويهتف بها أن تقف.. فقد زالت عنه لعنة الذهب.. لكن الفتاة تذهب في سبيلها لا تلوي على شيء.. ولاتصدق حرفاً واحداً مما يقوله لها أبوها...

ثمّ تظهر الملكة عند باب القصر خائفة وجلة، وإلى جانبها ابنتها دوريس.... ولا تكاد تقع عليها عين مينرفا، ربة الحكمة، حتى تهتف بها، وتدعوها إلى مجلس الآلهة، فتذهل الملكة.. وتتقدم على مهل.. وفي خطى وئيدة ثقيلة.. حتى إذا كانت على خطوات من عرش سيد الأولمب، خرت ساجدة، ثم تقف وتتوجه نحو مينرفا، فتسجد.. وتبكي.. وتبتهل.. وتتوسل إلى ربة الحكمة أن تدرك أسرتها المعذبة بما يعيد إليها هدوءها وطمأنينتها.. فتبسم ربة الحكمة.. وتعدها خيراً...

ثم يظهر أونيوس وأخوه ميتوس من وراء الدوح الباسق فجأة.. ولا يكادان يريان أمهما وأختها حتى يسرعا اليهما.. ويكون بينهم لقاء باكٍ مؤثر حزين...

وتكون ميروب قد استدارت حول الحديقة، وهي تجري وتلهث، وأبوها يجري ويلهث من خلفها.. فلا تكاد ترى أمها واخوتها حتى تجري نحوهم، فتأخذها أومفاليه، — الملكة أمها — في كلتا ذراعيها — وتهديء من روعها.. أما ميداس.. هذا الملك البائس.. فيقف عن كثب.. ينظر إلى أهله مرة.. وإلى أرباب الأولمب مرة أخرى... لكنه الآن يكون معمماً.. لقد أمر أبوللو العمامة الحائرة الطائرة في أجواز السماء فنزلت حتى استقرت على رأس الملك البائس، وسترت اذنيه الحماريتين.. وما صنع أبوللو ذلك إلا رحمة بأبناء ميداس الذين ظلمهم أبوهم بجشعه الخبيث، وتكالبه على متاع الحياة الفاني.. وما متاع الحياة الفاني إلا غرور...

* * *

ثم يعود كل شيء كما كان...

ولكن الآلهة يبقون في مقاعدهم من الجوسق.. ولا يدري ميداس علة بقائهم فيها.. ترى لماذا لا ينصرفون إلى عروش الأولمب وقد تمت المأساة — أو الملهاة — على هذا الوجه؟ ماذا يبغون مني إذن؟

ويقهقه الآلهة، لأنهم يعرفون ما وسوست به نفس ميداس.. ويقول له أبوللو: نريد أن تبر يمينك.. فتتنزل عن جميع ما تملك من ذهبك الخاص لمعابد الآلهة كما وعدت!

ويضطرب ميداس.. لأن نزوله عن ذهبه الخاص معناه الافلاس، وكيف يكون ملكاً وهو لا يملك ذهباً يباهي به جيرانه الملوك؟ ثم كيف يكون ملكاً مفلساً؟

ولا يرى ميداس إلا أن يصطنع الحيلة مع هؤلاء الأرباب الذين لا ينسون.. فيقول أنه يتبرع بكذا لمعبد كذا.. وبكذا لمعبد كذا.. وكذا لمعبد.. ويذهب في ذكر أسماء المعابد مذاهب شتى.. ثم يسكت..

ولكن الآلهة يقهقهون...

ويقول له أبوللو إن مجموع هذه التبرعات لم يبلغ قطرة من بحر ثرائه الجم.. وأن عليه أن ينجز ما وعد...

ويضطرب ميداس.. ثم لا يرى إلا أن يقسم أن هذه التبرعات هي كل ما يملك...

وهنا.. يعبس سيد الأولمب.. ويتجهم تجهماً شديداً.. ثم يشير باصبعه إلى اقبية القصر الملكي المشؤوم، فيرتفع القصر في الهواء، وتنشق الاقبية عن خزائن الذهب، وكنوز الجواهر، ومذخور اليواقيت.. فيذهل ميداس، ويضطرب اضطراباً شديداً.. لكن الإله الاكبر يأمره أن يذهب إلى كنوزه تلك وأن يأتي بشيء من ذهبها وجواهرها... فيذهب ميداس.. ويمد يده ليأتي بشيء منها...

ولكن..

يا للهول.. إنه لا يكاد يمس الذهب حتى يصير حجارة.. ولا الجواهر واليواقيت حتى تصير حصى...

وأصبح كل ما في كنوز ميداس حجارة وحصى..

ووقف ميداس يقلب عينيه في كنوزه.. ولم يحتمل المسكين هذه المصيبة الجديدة.. فزاغت عيناه فجأة.. وجعل يقهقه كالذي أصابه طائف من الجنون.. وهو يقول:

هذا هو الذي تفلحون فيه يا أرباب الأولمب.. هذا هو الذي تفلحون فيه.. إذا كنتم تريدون ذهبا لمعابدكم.. فلماذا لا تحولون جدرانها ذهباً.. لماذا لا

تطمعون إلا في ذهب ميداس المسكين؟

ويقهقه الآلهة...

ويقف أبوللو.. ويشير إلى جهة المغرب.. فتأتي أصوات مدوية تقول: إن ميداس الملك له أذنا حمار.. إن ميداس الملك.. حمار..

ويضحك الآلهة.. ويقول أبوللو: ألم أقل لكم ذلك؟

* * *

ويشير سيد الأولب إلى القصر فيهوي على رأس ميداس... وتبكي الملكة.. ويبكي أبناؤها.. ولكن مينرفا تذهب إليها فتتلطف بهم، وتهنئهم بخلاصهم من هذا الشر.. ثم تشير إلى الأفق الشرقي فتريهم قصراً جديداً باذخاً أمرت ببنائه لهم ليكون لهم عوضاً من هذا القصر البائس الحزين، الذي كتبت عليه لعنة الذهب.

* * *

وينصرف الآلهة...

ويكون آخر من ينصرف هو الإله أبوللو...

لقد شم أبوللو رائحة حبيبته القديمة.. عروس الغاب الفاتنة.. كليتي.. فأراد أن يعرف سر وجودها في هذه الجهة..

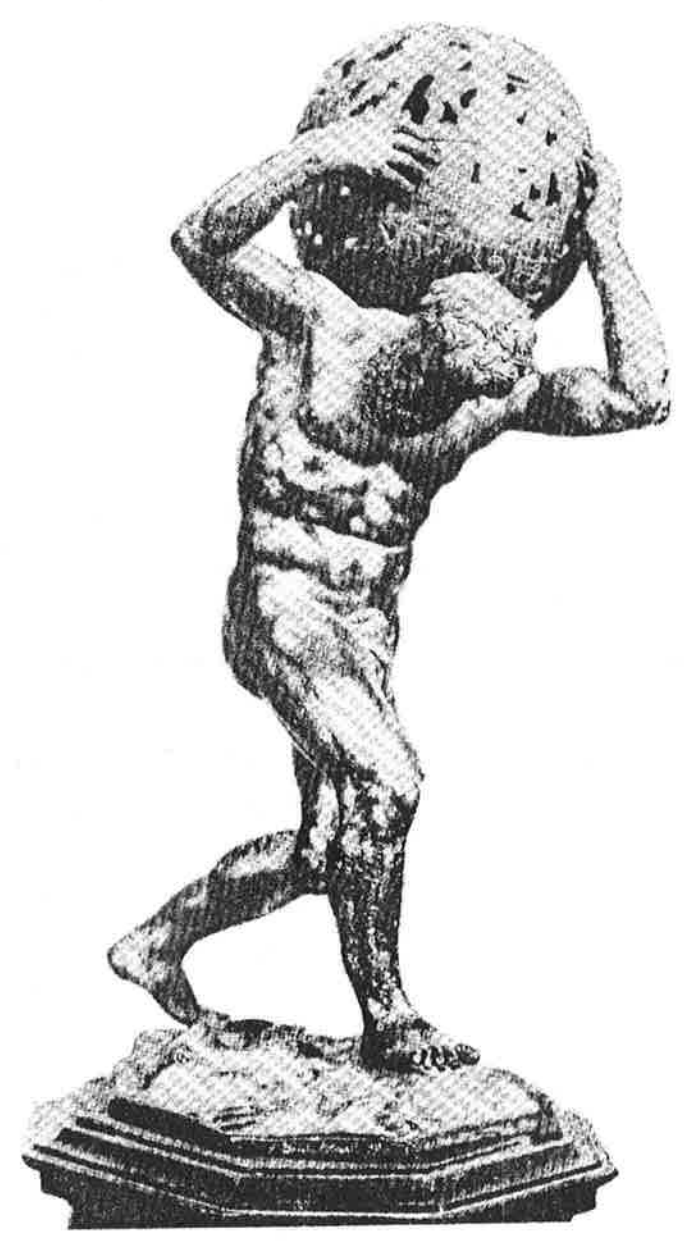
وتلفت اله الشمس حوله.. فرأى عروس الغاب الحسناء مستقرة في ذراعي حبيبها الجديد.. هذا الفتى أونيوس.. ابن عدوه الملك ميداس...

وعبس أبوللو.. وغيظ غيظاً شديداً.. وأشار إلى كليتي وهو يقول: أيتها الشقية لن تكوني إلا لي.. لي إلى الأبد.. كوني إذن زهرتي.. زهرتي الصفراء الخالدة التي لا تعرف حبيباً غيري.. ولا تُصلي لإله سواي...

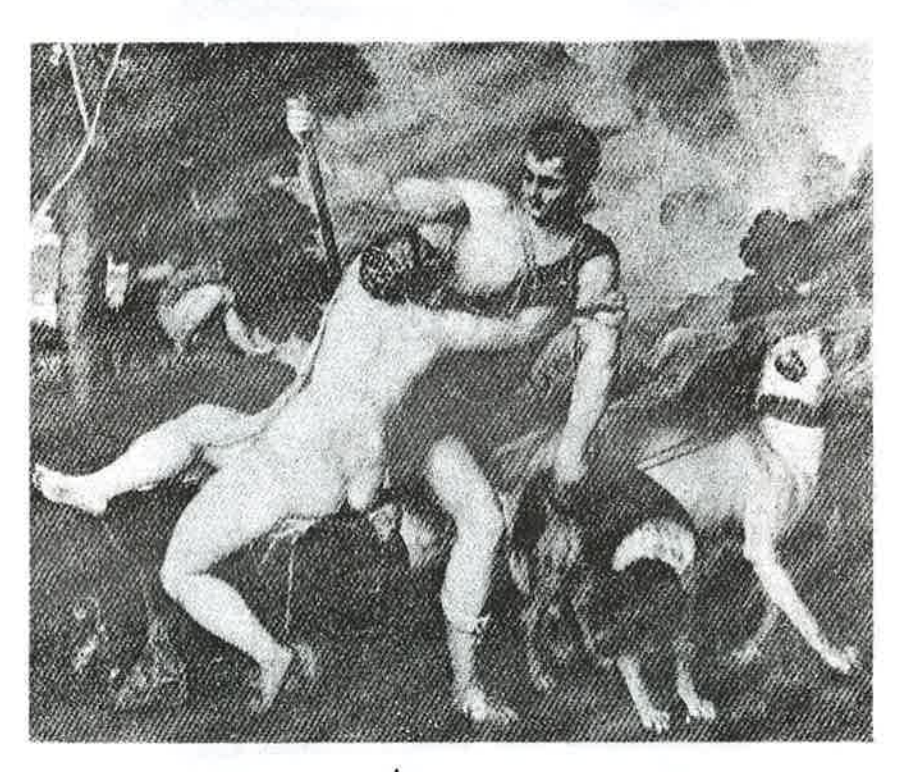
وفي لحظات.. تحولت كليتي في ذراعي أونيوس.. فصارت زهرة من زهرات عباد الشمس.. واستدارت بوجهها إلى أبوللو.. وهي إلى اليوم تستدير بوجهها حينما يكون...

أما أونيوس فقد بكى بكاءً طويلاً مراً.. وهو إلى اليوم يبكي على كليتي الحبيبة.... لقد رثت له فينوس ربة الحب، ورقت لحاله، فحولته إلى قطرات من الندى.. لا تزال تبلل عيني كليتي وخديها في مطلع كل فجر، ومشرق كل صباح.. منذ ذلك اليوم حتى الآن..

* * *



لوحة ٤٤ – چان ده بولونى : هرقل يحمل الكون .



لوحة ١١٢ – تتسيانو : فينوس تتوســل إلى أدونيس كى لا يخرج إلى الصيد



لوحة ١١ – الإله مارس : الرأس والجذع أصليان ، وبقية التمثال أعيد ترميمه جملة مرات .



لوحة ٣٤ - كلويه: ديانا الصيادة .



لوحة ١٤٥ - آنجر : تأليه هوميروس .

المحتويات